بسم الله الرحمن الرحيم

جامعة العلوم الإسلاميّة العالميّة

قسم الدراسات الأدبيّة والنقديّة

أثر الفتنة الأندلسية الكبرى في الشعر الأندلسي

(٣٩٩-٤٢٢هـ)

إعداد

أجمل فهد نهار الطويقات

إشراف

الأستاذ الدكتور عفيف عبد الرحمن

٢٠١٠

قرار لجنة المناقشة

نوقشت هذه الرسالة:(أثرالفتنه الأندلسية الكبرى في الشعر الأندلسي(٣٩٩-٤٢٢هـ)

وأجيزت بتاريخ / /

أعضاء لجنة المناقشة	التوقيع
الأستاذ الدكتور عفيف عبد الرحمن،مشرفاً ورئيسا	....
الأستاذ الدكتورحسين يوسف خريوش،عضواً أستاذ الأدب في جامعة اليرموك	....
الدكتور عبد الحليم الهروط،عضواً	....
الدكتور ياسين عايش،عضواً	....

قدمت هذه الرسالة" أثر الفتنة الأندلسية الكبرى في الشعر الأندلسي (٣٩٩-٤٢٢هـ)استكمالا لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في تخصص اللغة العربية وآدابها في جامعة العلوم الإسلامية العالمية،عمان،المملكة الأردنية الهاشمية.

٢٠١٠/١١/١١

"The Impact of Great Andalusian Conflict in the Andalusia Poetry (422-399 AH**)". A dissertation submitted in partial fulfillment of the requirements for the degree of master in Arabic language and literature at the world Islamic science and education university. Amman. Hashemite kingdom of Jordan.**

الإهداء

إلى الوالدين العزيزين أدام الله رضاهما عليّ

إلى كل الأهل والأحبة والأصدقاء الأوفياء

إلى بناتي سجى وسارة وملك وفرح

إلى الغالي طلال ريحانة البيت

شكر و تقدير

إلى زوجتي الغالية

عرفانا بالمحبة والتقدير

ما فتئت تدفع بي إلى كل المعالي

إلى كل من مدّ يد العون في سبيل انجاز هذا الرسالة

مزيد من الثناء والعرفان

وأخصّ بالشكر الجزيل أستاذي الدكتور عفيف عبد الرحمن،الذي تابع تفاصيل هذا العمل فقد تعلمت منه الجلد في طلب العلم،والسهر لنيل شرف المعرفة،فأعطاني كثيرا من وقته بصدر رحب،ونفس راضية،ولقيت من توجيهاته السديدة ما كان خير عون لي على إتمام هذه الرسالة،فجزاه الله عني خير الجزاء.

كما يطيب لي في هذا المقام أن أتقدم بوافر الشكر لأعضاء لجنة المناقشة الذين تفضلوا بقبول النظر في هذا البحث متحملين عناء تقويمه واستكمال نقصه،أساتذتي الأفاضل:

الأستاذ الدكتور حسين يوسف خريوش،و الدكتور عبد الحليم الهروط،والدكتور ياسين عايش.

فهرس المحتويات

ملخص الرسالة

هذا ملخص رسالة الماجستير المعنونة بـ "أثر الفتنة الأندلسية الكبرى في الشعر الأندلسي في النصف الأول من القرن الخامس الهجري"،وقد قسّمت هذه الرسالة إلى ثلاثة فصول مسبوقة بمقدمة:وفيها أهميّة الموضوع، وسبب اختياره، والهدف من الدراسة، وخطة البحث ومنهجه.

أمّا الفصل الأول: "الفتنة جذورها وأحداثها" قسمته إلى مبحثين:

المبحث الأول: جذور الفتنة: أبرزت فيه العوامل الداخلية، التي أدّت إلى حدوث الفتنة وما تمخض عنها من نتائج ، ثم كان الحكام بما اتصفوا به من رداءة في الحكم سبباً لنقدهم من المجتمع بشكل عام والشعراء بشكل خاص؛ لما اضطلع به الشعراء من دور ريادي في المجتمع العربي الأندلسي، فظهر إلى جانب العوامل السابقة عاملٌ آخر تمثل في النقد السياسي للحكام.

المبحث الثاني، فقد تناولت فيه أحداث الفتنة، من خلال تصوير مشاهد الصراع بين المتصارعين، وسقوط قرطبة، والاستغاثة، والاستنجاد ،وقصائد المدح والثناء بحسب الولاء أو التعصب،أو الميل المبني على المصالح

وأمّا الفصل الثاني: فقد عمدت فيه إلى دراسة نتائج الفتنة على الشعر الأندلسي وتأثيرها فيه ،وقد تناولت أثرين بارزين من آثار الفتنة في الشعر وهما:

- بكاء قرطبة والخلافة. - وظاهرة الغربة و الاغتراب في الشعر

وفي الفصل الثالث درست أثر الفتنة في الشعراء، ودورها في التأثير على مجريات حياتهم،وأنماط سلوكهم، و التأثير في أشعارهم، وما اختطَّه الشعراء من معجم لغوي في شعرهم ، في هذه الفترة الحرجة من تاريخ العرب في الأندلس ، ومدى معاينة الشعر لأبعاد السياسية والاجتماع، وقد قسمته إلى مبحثين:المبحث الأول: تناولت فيه أثر الفتنة في الشعراء.

و المبحث الثاني: أفردت الحديث فيه لشاعرين من شعراء هذه الفترة الزمنية من تاريخ الأندلس.

ثم كانت الخاتمة التي لخصتْ أبرز النتائج التي تم التوصل إليها من الرسالة، وختمت بمصادر الرسالة ومراجعها.

Abstract

"The Impact of Great Andalusian Conflict in the Andalusian Poetry

(422-399 AH**) "**

The study was divided into three chapters preceded by an introduction.

The introduction included the significance of the study, the reason beyond choosing it, the purpose of the study and the procedures and methodology of the research.

Chapter one was divided into two parts. The first part was devoted to the roots of the conflict It disproved the internal factors that led to that conflict at that strength and tough results on the Arabic and Islamic presence in Andalusia.

The second part was dedicated to the conflict through the way in which poetry described the events and the consequences of the conflict through viewing the scenes of contest among rivals, the decline of Cordoba, poems of appeal and praise according to loyalty. Those were the most important factors in the appearance and interaction of poetry.

Chapter two was devoted to the studied the consequences of the conflict on the Andalusia poetry and its influence on both the components and the artistic side of the poem. Therefore, two effects of the conflict on poetry were discussed; *crying on Cordoba and Khilafah. * feeling strange among poets.

Chapter three was devoted to study the impact of the conflict on the poets themselves and its role in influencing their lives, behavioral styles and then studying that in their poetry. It also studied the approaches poets followed in choosing lexicon for their poetry in this critical period of the history of Arabs in Andalusia and the extent of consistency between poetry and daily used political semantics. This chapter was also divided into two parts: the first part, as mentioned above, was devoted to the impact of the conflict on the poets while the second part studied two inspired poets during that era. After that, came the conclusion that summarized the results of the study. Finally, the study ended with lists of references and resources.

مقدمة

لقد كان للفتنة التي حدثت في الأندلس نهاية القرن الرابع الهجري، وامتدت نحو ثلاثة وعشرين عاماً، أثر كبير في مختلف مناحي الحياة ولا سيما في الأدب بشكل عام وفي الشعر بشكل خاص،وتحاول هذه الرسالة أن تكشف عن هذا الأثر الذي صور المأساة السياسية التي عاشتها الأندلس، تلك المأساة التي شاهدها الكثير من الشعراء،فوجدت سبيلها تلقائياً في شعرهم، ولشدة تأثيرها أطلق عليها المؤرخون وصف الفتنة الكبرى تمييزاً لها عن الأحداث والفتن التي ظهرت في الأندلس، وحسبك قول ابن حيّان يصف عمق تأثيرها فيه وفي الوجود العربي الإسلامي،يقول :"...وأنسأتني المدة إلى أن لحقت بي منبعث هذه الفتنة البربرية الشنعاء المدلهمة، المفرقة للجماعة، الهادمة للمملكة المؤثلة، المغربة الشأو على جميع ما مضى من الفتن الإسلامية"([١])، فأصبح الشعر شعر القلق الذي ساور النفوس، وشعر اليأس والشكوى والبكاء، و شعر تصوير مشاهد القتال والثناء على المحاربين، وشعر النقد الاجتماعي ،وشعر المدح ، كما صور الخصومات والصراعات السياسية والعسكرية بين الفرقاء جميعاً ، وشعر تصوير مظاهر الوداع والشكوى من الزمن؛ لذلك كان الشعر صورة صادقة لواقعه وانعكاساً له ، لأنه تناول الأحداث السياسية ودار في فلكها، وأدرك الأبعاد المأساوية التي لازمت الأندلس في محنتها.

وهذا الجانب كان الدافع الأساسي لدراسة شعر هذه المرحلة من تاريخ الأندلس ، لأنّ الشعر أكثر صدقاً في التعبير عن بيئته، وأعمق ارتباطاً بجزئياته، فيتلون الشعر بموضوعاته التي يستقيها من واقعه ، و كان نصيب الشعر الأندلسي من ذلك واسعاً.

وتهدف هذه الدراسة إلى كشف نتائج الفتنة، وعرض صداها في الشعر، إذ انعكس أثرها في تصور الشاعر للبنية الاجتماعية والنفسية والعمرانية.

وتكتسب الدراسة أهميتها ، لأنّها تتناول شعر هذه الفتنة،التي كانت نتائجها حاسمة في مناحي الحياة الأندلسية بشكل عام على نحو مستقل .

ومن الدراسات المهمة التي ينبغي الإشارة إليها في هذا المجال دراستان، تناولتا الفتنة، وإن لم تحيطا بها كل الإحاطة ، إذ لم تكن هذه الفتنة هدفهما الأول في التناول ،وهاتان الدراستان هما :

[١] ابن بسام ،الذخيرة في محاسن الجزيرة، الطبعة الأولى ،تحقيق إحسان عباس،دار الثقافة، بيروت، لبنان، ١٩٧٩،القسم الأول، المجلد الثاني: ٥٧٦.

١- الفتن والحروب وأثرها في الشعر الأندلسي من سقوط الخلافة إلى سقوط غرناطة لجمعة شيخة

٢- تاريخ الأدب الأندلسي عصر سيادة قرطبة لإحسان عباس .

وقسمت هذه الرسالة إلى ثلاثة فصول مسبوقة بتمهيد:

الفصل الأول ، الفتنة جذورها وأحداثها والذي قسمته إلى مبحثين: الأول: جذور الفتنة: فنَّد العوامل الداخلية، التي كانت الفتنة وأسبابها ونتائجها أبرز تلك العوامل، ثم كان الحكام بما اتصفوا به من رداءة في الحكم سبباً لنقدهم من المجتمع بشكل عام والشعراء بشكل خاص لما اضطلع به الشعراء من دور ريادي في المجتمع العربي الأندلسي، فظهر إلى جانب العامل السابق عاملٌ آخر تمثل في النقد السياسي للحكام.

أما المبحث الثاني، فقد تناولت فيه أحداث الفتنة، من خلال تصوير مشاهد الصراع بين المتصارعين، وسقوط قرطبة، والاستغاثة، والاستنجاد ،وقصائد المدح والثناء بحسب الولاء أو التعصب،أو الميل المبني على المصالح.

أمّا الفصل الثاني فقد عمدت فيه إلى دراسة نتائج الفتنة على الشعر الأندلسي وتأثيرها فيه من حيث المضمون،وقد تناولت أثرين بارزين من أثارهذه الفتنة في الشعر وهما:

- بكاء قرطبة والخلافة.
- وظاهرة الغربة و الاغتراب في الشعر

وفي الفصل الثالث قمت بدراسة أثر الفتنة في الشعراء، ودورها في التأثير على مجريات حياتهم، وما اختطّوه من معجم لغوي في هذه الأشعار، وقد قسمته إلى مبحثين، في المبحث الأول تناولت أثر الفتنة في الشعراء. أمّا في المبحث الثاني فقد أفردت الحديث فيه عن شاعرين من شعراء هذه الفترة الزمنية من تاريخ الأندلس، كما تعد هذه الترجمة لكلا الشاعرين من قبيل التمثيل لا الحصر، ذلك لأن الفتنة أصابت جميع أركان البيت القرطبي بشكل خاص و الأندلسي بشكل عام .

ثم كانت الخاتمة التي لخَّصتْ أبرزَ النتائجِ التي تم التوصل إليها من الدراسة، وختمت الرسالة بالمصادر والمراجع التي احتوت النصوص الشعرية لهذا اللون من الشعر، كانت الدواوين الشعرية أهمَّها، بحيث شكلت رافداً أساسيا لاستقاء المادة الشعرية لشعر عصر الفتنة.

وقد مثلت بعض المصادر والمراجع الأدبية المنبع الثاني لتلك النصوص، و كان في مقدمة تلك المصادر كتابُ الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسام ،بحيث شكل هذا الكتاب أهمَّ المصادر بعد الدواوين في هذه الدراسة؛ لما وسعه من مادة ضخمة. وإضافة إلى كتاب الذخيرة كان في المرتبة الثانية من تلك المصادر كتاب نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للمقري ، وتوالت مصادر كثيرة ، كالحلة السّيراء لابن الآبار، وغيرها من المصادر المهمة. أما المصادر التاريخية فكان في مقدمتها البيان المغرب لابن عذارى، وكتاب أعمال الأعلام لابن الخطيب، إضافة إلى كتب التراجم والسير، كالجذوة للحميدي.

ولم تكن مهمة رصد الشعر والبحث عن نصوصه في متون الكتب مهمةً سهلةً، فقد تطلب ذلك قراءة كلّ ما جاء في المصادر والمراجع والدواوين، للعثور على مقطوعة أو بيت يدلنا على مفهوم أو موقف أكان سياسياً أم نفسياً أم غير ذلك من الأسباب التي تناولتُها في دراسة أثر الفتنة في الشعر والشعراء.

أما المنهج المتبع في هذه الدراسة فتراوح بين المنهج التاريخي، والمنهج التحليلي للنص، واستيفاء معانيه وظروفه، وتوظيفها لما يخدم البحث ويدلل على نتائجه، ويبين ما كان للأحداث والتداعيات من أثر واضح في معاني تلك النصوص.

وبهذا لست أزعم أن كلَّ ما ذكرته قد خلا من القصور، وأرجو من القارئ الكريم أن يقدر أني حاولت جاهداً قدر المستطاع أن أسهم في استجلاء أثر الفتنة في الشعرالأندلسي، وإن كان هناك من التوفيق والسداد في الطرح فهذا بفضل الله سبحانه وتعالى ، ثم بجهود أستاذي الفاضل الدكتور عفيف عبد الرحمن الذي كان لتوجيهاته القيمة ولمساته الكريمة الأثر الكبير في تقويم هذا البحث، فجزاه الله عني خيرَ الجزاء. كما لا يفوتني أن أقدم شكري وعظيم امتناني لكل من مد لي يد العون في تسهيل مهمتي.

تمهيد

الفتنة : أصل الفَتَن([1])، إدخال الذهب في النار لتظهر جودته من رداءته ،ويستعمل في إدخال الإنسان النار ، ويطلق على العذاب،كقوله تعالى" ذوقوا فتنتكم "([2])،وعلى ما يحصل عند العذاب كقوله تعالى: " أَلاَ فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُواْ"([3]) وعلى الاختبار كقوله:" وَقَتَلْتَ نَفْساً فنجّيناك مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُوناً"([4]).ومنه قوله تعالى"- "وَإِن كَادُواْ ليفتنُونك عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ"([5])أي يوقعونك في بليّة وشدّة في صرفك عن العمل بما أوحى إليك.

وقال ابن حجر أيضا الفتنة تكون من الأفعال الصادرة من الله ومن العبد كالبليّة والمصيبة والقتل والعذاب والمعصية، وغيرها من المكروهات. وقد ذمّ الله الإنسان بإيقاع الفتنة:" والفتنة أشدّ من القتل "([6]) ومنه قوله تعالى وبمعنى الميل والصد عن الحق: "وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللّهُ إِلَيْكَ"([7]) .

و يورد ابن منظور معاني الفتنة عند علماء اللغة ([8]):فهي عند الأزهري وغيره: الابتلاء والامتحان والاختبار، وعند ابن العربي: الاختبار، و المحنة، والمال، والأولاد، والكفر، واختلاف الناس بالآراء، والإحراق بالنار.

وقيل الفتنة في التأويل الظلم، ويرى ابن سيده أنّ الفتنة تعني: الخبرة، والجنون، والإثم، والميل عن الحق، والكفر، والفضيحة والعذاب.

وفي سياق هذه المعاني ذهب الفيروز أبادي في القاموس المحيط إلى أن الفتنة تعني:"الخُبُرة كالمفتون، وتعني أيضا الضلال والجنون والمحنة والمال والأولاد واختلاف الناس في الآراء"([9]).

وهي على الأعم الأغلب تشير إلى ما يقع بين الناس من القتال والقتل،ومنه قوله تعالى: "إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا" القتل والأسر، أي حمل الكفار على المؤمنين وهم في صلاتهم

[1] ابن حجر العسقلاني ، فتح الباري في شرح صحيح البخاري، الطبعة الثالثة، تحقيق عبد العزيز بن باز، دار السلام،٢٠٠٠ ،الجزء الثالث عشر:٥

[2] الذاريات :١٤

[3] التوبة: ٤٩.

[4] طه : ٤٠.

[5] الإسراء: ٧٣.

[6] البقرة: ٢١٧.

[7] المائدة: ٤٩.

[8] ابن منظور، لسان العرب، تحقيق أمين محمد عبد الوهاب ومحمد العبيدي، الطبعة الثالثة، دار إحياء التراث العربي، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، لبنان، ١٩٩٩، مادة فتن.

[9] الفيروز آبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب، القاموس المحيط ، المؤسسة العربية للطباعة والنشر ، بيروت، لبنان ،مادة فتن.

ساجدون حتى يقتلوهم أو يأسروهم. وكذلك قوله تعالى في سورة يونس" على خوف من فرعون وملئهم أن يفتنهم "(١)، أي يقتلهم.

و تعني اختلاف الناس وعدم اجتماع قلوبهم : كما في قوله تعالى(٢) : " ولأوضعوا خلالكم خلالكم يبغونكم الفتنة "، أي يوقعوا الخلاف بينكم (٣) .

أما قول النبي صلى الله عليه وسلم (٤): "فإني أرى الفتن تقع خلال بيوتكم كوقع القطر"، فإنه يكون يكون في القتل والحرب والاختلاف الذي يكون بين فِرَق المسلمين إذا تحزبوا، ويكون ما يبلون به من زينة الدنيا وشهواتها، فيفتنون بذلك عن الآخرة والعمل لها، وبدأ ذلك بمقتل سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه.

أما الفتنة الأندلسية الكبرى فإن المعنى الاصطلاحي لها قد أخذ معناه من حجم التأثير الذي أحدثته ، والمدى الزمني لها، إذ امتدت نحو ثلاثة وعشرين عاما من نهاية القرن الرابع الهجري إلى ما يقرب من نهاية الربع الأول من القرن الخامس الهجري، وانتهت بزوال الخلافة الأموية رسمياً في قرطبة، وبها انفرط عقد الخلافة الأموية في الأندلس، وفي المغرب أيضا، وانقطعت الدعوة لبني أمية وذكرهم على المنابر في جميع أقطارها (٥).

فالفتنة فيقصد بها الحرب الداخلية في المجتمع الإسلامي، وتنطبق على كل فترة تحدث فيها اضطرابات ، تثيرها فئات تخرج عن نطاق الجماعة لأسباب عدة قد تكون سياسية أو مذهبية أو عقديّة أو عصبية (٦).

والمتتبع للتاريخ العربي الإسلامي يجد أن هذه الفتن ظهرت في وقت مبكر من التاريخ الإسلامي عقب اختلاف الصحابة في من يتولى قمة هرم السلطة السياسية وهو الخلافة، وما ترتب عليها من صدامات عسكرية في موقعتي صفين و الجمل ،وظهور فئات تعصبت لمذهب سياسي وعقدي كالخوارج والشيعة.

---

١ يونس الآية٨٣.
٢ النساء الآية ١٠٣
٣الزمخشري الخوارزمي، أبو القاسم محمود بن عمر ، الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تحقيق : عبد الرزاق المهدي ، دار إحياء التراث العربي - بيروت، الجزء الثاني:٢٧٧.

٤ ابن حجر، فتح الباري،الجزء الثالث عشر رقم الحديث:٧٠٦حديث أسامة بن زيد:١٥.
٥ الحميدي، محمد بن أبي نصر، جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، الطبعة الأولى، تحقيق روحية عبد الرحمن السيوفي، منشورات محمد علي بيضون،دار الكتب العلمية، بيروت،لبنان،١٩٩٧ : ٢٩ .
٦ جمعة شيخة،الفتن والحروب وأثرها في الشعر الأندلسي من سقوط الخلافة إلى سقوط غرناطة، الطبعة الأولى،المطبعة المغاربية للطباعة والنشر والإشهار،تونس١٩٩٤،الجزء الأول ،المقدمة.

ولفظ الأندلس –أو شبه جزيرة الأندلس – مصطلح جغرافي كان يدل في العالم الإسلامي حتى نهاية العصور الوسطى على إسبانيا والبرتغال الحديثة ، وقد قصره الكتاب العرب على اسبانيا الإسلامية التي لم تشمل شبه الجزيرة كلها دائماً، وإنما مرت بموجات متعاقبة من المد والجزر نتيجة التوسع الإسلامي في الجزيرة، وحركة الدفاع المسيحي الإسباني، أو نتيجة لكثرة الثورات التي كانت سبباً في إضعاف المسلمين، وأدت بالتالي إلى ضياع الأندلس من أيديهم، بعد فترة حكم استمرت طويلاً ، إذ "حدث من تغلب الثوار ما أضاع ثغورهم ، وأذهب أكثر بلادهم ، ولم يبق من تلك إلا الأقلّ"([1])،حتى فقد اسم الأندلس الذي كان يطلق على مساحة كبيرة من الأرض مدلوله بالتدريج متزامناً مع النفوذ العربي الذي أخذ بالاضمحلال البطيء، ولبثت الأقاليم الجنوبية التي ظلت تحت السيطرة العربية تعرف من وقت لآخر به،ثم لم يعرف به بعد ذلك سوى إقليم صغير هو مملكة غرناطة آخر معاقل العرب في اسبانيا.

وتقع اسبانيا في جنوبي غرب أوروبا ، وجبال البرانس الشامخة حد فاصل بينها وبين فرنسا ،ولولا تلك الجبال، لأصبحت اسبانيا جزيرة يحيط بها الماء من جميع جهاتها، ولامتزج ماء المحيط الأطلسي الذي يقع بغربها بماء البحر الأبيض المتوسط الذي يعانق حدودها الشرقية، كما اتصلا بالجنوب حيث مضيق جبل طارق.والبحر يحيط بها من معظم جهاتها، وإنما " سميت جزيرة بالغلبة كما سميت جزيرة العرب([2]).

وفي وسط الأندلس هضبة "ميسيتا"و تعني السهل الواسع المرتفع،وتشغل مساحة واسعة وتنحدر هذه الهضبة غربا مكونة السهل الغربي الخصيب. أما بقية جهاتها فتحيط بها الجبال، وتفصل بينها أودية خصبة تمتد حتى الشواطئ([3]).

وقد كانت تلك الجبال مأوى للثائرين حيث الوديان والتعرجات والمنحنيات والمتاهات التي كانت مجالاً لفرسان من العرب، حفزتهم الحميّة إلى رفض الطاعة، فمضوا يحاربون ويقولون

---

[1] الحميري،محمد بن عبد المنعم ، الروض المعطار في خبر الأقطار، الطبعة الثانية،تحقيق إحسان عباس ، مكتبة لبنان ،بيروت،١٩٨٤:٣٣.

[2] الحموي، ياقوت.شهاب الدين، أبي عبد الله، معجم البلدان، الطبعة الثانية، دار بيروت للطباعة والنشر ١٩٨٤، المجلد الأول: ٢٦٣.

[3] العمري، أحمد بن فضل الله ،شهاب الدين أبو العباس، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق: احمد زكي باشا،مطبعة الكتب المصرية،١٩٢٤،الجزء الأول: ٢٤٥.

الشعر على نحو ما صنع سعيد بن جودي([1])، وهو يجري بحصانه في بعض هذه البقاع مخاطباً أمير قرطبة([2]):

يا بَني مَرْوَانِ جِدّوا في الهَربِ　　نجمَ الثائِرُ مِن وادي القَصَبِ
يَا بَني مَرْوَانِ خَلّوا مُلكَنا　　إنّمَا المُلْكُ لأبنَاءِ العَرَبِ

أما قرطبة فهي أشهر مدن الأندلس وأكثرها أهمية في التاريخ الإسلامي الأندلسي فمنذ السنوات الأوائل للوجود العربي في الأندلس تم اتخاذها عاصمة ومركزا لهم ،يقول ابن بسام عن قرطبة ([3]): " وحضرة قرطبة ،منذ استفتحت الجزيرة هي كانت منتهى الغاية، ومركز الراية ،وأم القرى ،وقرارة أهل الفضل والتقى، ووطن أولي العلم والنهى، وقلب الإقليم ،وينبوع متفجر العلوم وقبة الإسلام،.... ومن أفقها طلعت نجوم الأرض وأعلام العصر، وفرسان النظم والنثر، وبها انتشأت التأليفات الرائقة ،وصنفت التصنيفات الفائقة". وهذه صورة صادقة للحركة العلمية والأدبية التي اشتهرت بها قرطبة ، ومعبرة عن مدى تفوقها على نواحي الأندلس المختلفة .

و عرفت الأندلس ابتداء من القرن الثالث حتى القرن الرابع الهجري تطوراً عمرانياً كبيراً، ويعدّ تأسيس المدن وتوسيعها والعمل على عمرانها أبرز سماته، وقد أصبح بعضها يمثل أكبر مدن العالم في ذلك الوقت ، ويستثير إعجاب أوروبا في جودة البناء وفخامته، تقول الراهبة السكسونية (روزفيتا) التي عاشت في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، في قصيدة لها عن قرطبة ([4]):

---

[1] أبو عثمان سعيد بن سليمان بن جودي بن أسباط بن إدريس السعدي(٢٣٨ - ٢٨٤ هـ)،وهو من هوازن من جند الشام، من أسرة لها مكانة مرموقة عند بني أمية،وقد كان من الشخصيات الأندلسية ذات الأثر في الحياة الاجتماعية والسياسية والعسكرية، وكان له دور بارز في التصدي لعصبية العجم والمولدين التي اشتدت على يد الثائر عمر ابن حفصون.وعرف شاعرٌحماسيٌ، يؤثر في سير الأحداث ومجرياتها، وقد كان من رؤساء العرب المعدودين في منطقة البيرة وقتل غدراً سنة ٢٨٤هـ.أنظر: ابن الخطيب،لسان الدين محمد بن عبد الله ، الإحاطة في أخبار غرناطة، الطبعة الأولى، تحقيق يوسف علي طويل، بيروت :منشورات علي بيضون، دار الكتب العلمية،المجلد الرابع:٢٢٩

[2] ابن الأبّار،محمد القضاعي، الحلّة السيراء في تراجم الشعراء من أعيان الأندلس والمغرب من المائة الأولى للهجرة إلى المائة السابعة للهجرة، الطبعة الأولى ، تحقيق علي إبراهيم محمود ، دار الكتب العلمية ، بيروت،٢٠٠٨ : ٩١ . وانظر: ابن سعيد المغربي، المغرب في حلي المغرب،الطبعة الثانية،تحقيق شوقي ضيف، دار المعارف،مصر،المجلد الثاني :١٠٥،١٠٦ورد صدر البيت الأول:
قل لعبد الله يَشْدُدْ في الهرب........

[3] ابن بسام ،الذخيرة في محاسن الجزيرة، القسم الأول، المجلد الأول: ٢٣ .

٤ بيرس،هنري ،الشعر الأندلسي في عصر الطوائف،ترجمة الطاهر أحمد مكي،مصر،دار المعارف ١٩٨٩م:١١١.

" جوهرة العالم الساطع، مدينة جديدة، رائعة فخورة بقوتها،شهيرة بمباهجها، مزهوة بما تملك من خير وفير".

ولما تسلم زمام الأمر في الأندلس عبد الرحمن الناصر (٣٠٠هـ) كانت النهضة الحضارية الأندلسيّة تسير نحو القمة في جوانبها المختلفة، وكان الجانب العمراني أيضاً يرافق تلك النهضة إن لم يكن من أبرز سماتها .

فقد خطا الجانب العمراني خطوات بعيدة في هذا المضمار، إذ اتسعت رقعة العمران سريعا في عهده ، فقام ببناء مدينة غرب قرطبة سماها الزهراء سنة ٣٢٥هـ في سفح جبل بطلش، وخط فيها الأسواق والمنتزهات، واجتلب إليها العامة بالرغبة ،وأمر مناديه بالنداء في جميع أقطار الأندلس ألا من أراد أن يبني داراً أو يتخذ مسكناً بجوار السلطان، فله من المعونة أربعمائة درهم ؛ فتسارع الناس إلى العمارة ، وتكاثفت الأبنية ،وتزايدت فيها الرعية ، وكادت الأبنية أن تصل بين قرطبة والزهراء"([1]).

و أمر الحاجب المنصور بن أبي عامر (٣٣٦-٣٩٢هـ) ([2]) ببناء مدينة الزاهرة شرقي قرطبة على نهرها الأعظم ، يحذو بذلك حذو عبد الرحمن الثالث الذي بني مدينة الزهراء ،وفي سنة(٣٧٠هـ)كمل البناء،فانتقل إليها ونزلها بخاصته وعامته فتبوأها، وقامت بها الأسواق وكثرت فيها الزقاق، وتنافس الناس بالنزول في أكنافها والحلول بأطرافها ؛ للدنو من صاحب الدولة وتناهى الغلو في البناء ([3]).

واتصلت مباني قرطبة بمباني مدينتي الزاهرة والزهراء في أواخر القرن الرابع الهجري،وتمت إنارتها بالسراج ليلاً بحيث" إنه كان يمشي فيها لضوء السرج المتصلة عشرة أميال"([4]) ، مما يدلل على عظمة تلك المدينة وازدهارها.

[1] النصيبي،ابن حوقل، صورة الأرض، القسم الأول، الطبعة الثانية، مطبعة بريل،١٩٦٧م :١٠٧.

٢ انظر ترجمة المنصور بن أبي عامر: الحميدي، محمد بن أبي نصر، جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، الطبعة الأولى، تحقيق روحية عبد الرحمن السيوفي، منشورات محمد علي بيضون،بيروت- لبنان ، دار الكتب العلمية،١٩٩٧: ٦٩،وابن الأبّار، الحلة السيراء : ١٥٣، ولسان الدين ابن الخطيب، أعمال الأعلام، الطبعة الثانية،تحقيق ليفي بروفنسال، دار المكشوف، بيروت، لبنان،١٩٥٦ :٥٩ وما بعدها ،و المقري التلمساني، أحمد شهاب الدين، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، الطبعة الخامسة، تحقيق أحسان عباس، بيروت، لبنان: دار صادر، ٢٠٠٨،المجلد الأول:٣٩٦-٤٢٣،.

[3] ابن عذارى المراكشي، أحمد ،البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ليفي بروفنسال، بيروت، لبنان: دار الثقافة ،الجزء الثاني: ٢٧٥، ٢٣٦، والمقري نفح الطيب، المجلد الأول: ٥٧٨، ٥٧٩

[4] المقري ، نفح الطيب ، المجلد الثالث: ٢١٦.

وقد كان لهذا النشاط العمراني تأثيره في الإنسان الأندلسي، ويمكننا تلمس مدى تأثير البيئة الأندلسية مع ظهور صداها على أفواه الشعراء الذين برعوا في تصوير تلك الحالة بأناقة تنسجم وروعة البناء ، فشعراء الدولة العامرية الذين اهتموا بوصف المباني والقصور الجميلة مثل الزهراء والزاهرة ، وما يحيط بها من حدائق غناء وخضرة ندية وما يزينها من زخرفة وتحف على هيئة أسود تقذف الماء من أفواهها ، كما نجد المنصورقد زين قصره ، إضافة إلى ما تزخر به الأندلس من مظاهر حضاريّة كانت تسحر الأبصار بروعتها وحسن إتقانها وتنوع طرائقها ، فهاهو الشاعر يحيى بن هذيل القرطبي الأندلسي(ت٣٨٩هـ) الذي عاش وأدرك بناء الزهراء في عهد الخليفة الناصر، والزاهرة في عهد الحاجب المنصور بن أبي عامر، يصف مباني الزاهرة وبساتينها وأسد العامرية وخرير الماء الدري ، وأغصان أشجارها التي هي كالقيان في ارتدائها اللون الأزرق ، مازجا وصفه هذا بمدح المنصور بن أبي عامر، يقول ([1]):

قُصُورٌ إذا قَامتْ تَرى كُلَّ قَائمٍ ... عَلى الأرضِ يستخذي لها ثُمَ يَخَشَعُ([2])

كأنّ خَطيبَاً مشرفَاً مِنْ سُمُوكِهَا ... وُشمُّ الرُّبي مِنْ تَحْتِهِا تَتَسمّعُ

تَرىَ نَوْرَهَا مِنْ كُلّ بَابٍ كأنّما ... سَنا الشّمسِ مِنْ أبْوابِهَا يَتَقطّعُ

ومِنْ واقفاتٍ فَوقَهنّ أهِلّةٌ ... حَنَايَاهَا التيجانُ أو هِي أبْدَعُ

عَلى عَمَدٍ يَدْعُوكَ ماءُ صَفَائِهَا ... إلِيه فَلَوْ لا جَمْدهُا كُنْتَ تَكْرَعُ

ويمكننا أنّ نتصور الامتداد الكبير والتطور على مدى قرن من الزمان ، هو القرن الرابع، والجنان النضرة بورودها ونوافيرها وحدائقها الغناء المزينة بالحيوانات الرخامية ، وهذه كلها كانت مثار إعجاب الناس في قرطبة ، فعبر لهم شعراؤهم عن هذا الإعجاب .

ومع تذبذب الحياة السياسية بين الامتداد والتقلص، كان هناك شيئان آخذان بالنمو المطرد،هما مدينة قرطبة نفسها في عمرانها وأبهتها، والطابع الحضاري العام للبلاد الأندلسية.

وعلى العموم فإن جميع المدن كانت عامرة ومأهولة بالسكان ثرية بمظاهر الحياة وأسباب الحضارة وديمومتها([3])، ومع كثرة الأنهار انتشرت عيون الماء والسواقي.

---

[1] الكتاني أبوعبد الله محمد،التشبيهات من أشعار أهل الأندلس، تحقيق إحسان عباس،دار الثقافة بيروت،لبنان: ٧٥.

[2] يستخذي:يخضع، ابن منظور، لسان العرب، مادة(خذا)

٣ المقري نفح الطيب، المجلد الأول :٢٠٥.

ولم يكن عهد الحجابة الذي أبانه بقوة الحاجب المنصور بن أبي عامرأقل من سابقه في دعم الحركة الأدبيّة، بل نجد أنَّ حركة الأدب قد سارت في ازدهارها وتطورها، فهو أول حاكم أندلسي وضع للشعراء ديواناً يرزقون منه ،وكان على رأسه أحد النقّاد هو عبد الله بن مسلمة الذي كانت تخرج على يديه صلات الشعراء الذين يستجيد شعرهم. كما أنّ المنصور شاعر دفعته شاعريّته إلى إجلال الأدب وأهله ،فهو يتذوق الشعر وينظمه، يقول([1]):

رَمَيْتُ بِنَفْسِي هَولَ كُلِّ عظيمة ... وخَاطَرْتُ والحُرُّ الكَريمُ مُخَاطِرُ
وما صاحبي إلاّ جِنانٌ مُشَيَّعٌ ... وأسْمَرُ خطّى وأبْيَضُ باترُ
ومِنْ شِيَمي أنيّ عَلى كُلِّ طَالبٍ ... أجُودُ بِمَالٍ لا تَقِيهِ المَعَاذِرُ
وإنّي لزجّاءُ الجيوشِ إلى الوَغَى ... أسودٌ تُلاقيهَا أسودٌ خَوادِرُ
لسُدْتُ بنفسي أهلَ كُلِّ سِيادةٍ ... وكَاثرتُ حَتّى لَمْ أجِدْ مَنْ أكَاثر

وله أيضا ([2])

ألمْ تَرني بعْتُ الإقامَةَ بالسُرُى ... ولينَ الحَشَايَا بالخُيول الضوامرِ
تَبَدَّلتُ بَعْدَ الزَعَفرانِ وَطِيْبِهِ ... صَدَا الدّرعِ منْ مُسْتحَكَمات المسامرِ
أروني فتى يَحْمي حِمَاي ومَوقِفي ... إذا اشتَجَر الأقْرَانُ بَيْنَ العَسَاكِرِ

وصلة المنصور بن أبي عامر وثيقة مع ثقافة عصره ومع العلماء والشعراء،ولذا أبقى تواصله معهم وأظهر ذلك بالتزامه بمجالسته لهم ؛ إذ" كان له مجلس معروف بالأسبوع ،يجتمع فيه أهل العلوم للكلام فيها بحضرته ، ما كان مقيما بقرطبة ،لأنه كان ذا همة ونيّة في الجهاد"([3]).

ويلاحظ في فترة الحجابة نمو الدراسات اللغوية ،لاسيما بوفود صاعد البغدادي الأندلسي في حدود الثمانين والثلاثمئة([4])، الذي دفع بقوة في بث روح تلك الدراسات من خلال تلك المجالس الأدبية و ما ينبني عليها من نقاش و مساجلات بين الأدباء .

ومع مرور الوقت زاد عدد المجالس الأدبية حتى غدت ظاهرة مألوفة بين الأدباء والعلماء والشعراء، فصار لكثير منهم مجلس يعرف باسمه([5]). وبفضل كتاب صاعد البغدادي" الفصوص"

---

[1] ابن الأبّار، الحلة السيراء: ١٥٦.
[2] المصدر نفسه: ١٥٧.
[3] الحميدي ، جذوة المقتبس:٧٠.
[4] الحميدي ، جذوة المقتبس:٢١١.
[5] عن هذه المجالس ،أنظر: المصدر السابق:١٦٨و ٣٧١.

الذي أملاه على الأندلسيين في مسجد الزاهرة ([1])، كما سبقه القالي في كتابه"الأمالي" الذي أملاه بمسجد قرطبة الجامع ، فإنَ العملية النقدية قد صادفت إحدى مقوماتها المادة العلميّة الأدبية والطبقة المثقفة الواعية، ولذا لم يتوان أدباء الأندلس عن تناول كتاب الفصوص نقداً وتجريحاً([2]).

ومع مرور الزمن، فإن الروح الأندلسية الخاصة بدأت تنمو بدافع المنافسة للروح المشرقية، ولكنها لم تجرؤ على الخروج عن الخطوط العامة للأدب المشرقي الذي ظل تأثيره حاداً وقوياً . ومن الخطأ الكبير ألا يخايلنا عند دراسة الأدب الأندلسي إلا هذا الاستقلال في الشخصية الأندلسية؛ لأننا ندرس أدبا يستند إلى حضارة مشتركة في الشرق والغرب "فلو لم يكن التقليد مقصوداً لكان التشابه أيضاً محتوماً"([3]) .

ويمكن القول إنَّ الحياة الثقافية قد ازدهرت وراجت بشكل واضح، وفي جميع مجالاتها مع نهاية القرن الرابع الهجري ، مع ملاحظات مهمة والانتباه إليها ليس صعباً ، وهي شيوع الحياة الفكرية بصورة واضحة،وتشجيع الدولة للعلماء على اختلاف ميولهم ومعارفهم ومذاهبهم ،مع اطلاع العلماء والأدباء على ثقافات ومعارف الأمم الإغريقية واللاتينية عن طريق الترجمة .

وأمّا عناصر المجتمع الأندلسي، فقد تعاقب أقوام كثر عبر عصور مختلفة على سيادة الأندلس، وسميت البلاد أحيانا باسم بعض هؤلاء الوافدين، فسكنها الايبريون فأطلق عليها أيبيريا ([4])، والسلتيون ثم الفنيقيون واليونانيون والقرطاجيون،ثم الرومان والفندال،ثم القوط .
ولما جاء الفتح العربي الإسلامي في سنة (٩٢هـ)، كانت هذه العناصر قد تآلفت وتمازجت في البيئة الواحدة والتاريخ المشترك واللغة اللاتينية وديانتهم النصرانية. فصار الامتزاج الاجتماعي بين الفاتحين العرب والبربر وعناصر المجتمع الإسباني.

وقد كان هؤلاء العرب الوافدون في موجات من الكثرة بحيث يعدّ امتزاجهم بالإسبان عن طريق المصاهرة أمراً كافياً لجعل سلائل هؤلاء وهؤلاء- مع مرور الزمن- أبرز عناصر المجتمع الأندلسي،هذه العناصر التي كونت سكان الأندلس منذ الفتح حتى السقوط ، استطاعت أن تؤثر وتتأثر، و أن تنتظم فيما بينها تنظيما دقيقا ، فشكلت نسيجا مجتمعياً لم يستطع التخلص من

---

١ ابن بشكوال، خلف بن عبد الملك، كتاب الصلة وكتاب صلة الصلة لأبي جعفر أحمد الغرناطي،الطبعة الأولى،تحقيق شريف أبو العلا العدوي،القاهرة، مصر: مكتبة الثقافة الدينية،٢٠٠٨ ،المجلد الأول:٢٦٤.
٢ المصدر نفسه ،الصلة،المجلد الأول:٢٦٤.
٣عباس، إحسان تاريخ الأدب الأندلسي، عصر سيادة قرطبة، الطبعة الأولى، دار الثقافة، بيروت، لبنان،١٩٦٠ :٢٩.
٤ دورثي لور، اسبانيا شعبها وأرضها، ترجمة طارق فوده، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر ، القاهرة- نيويورك ١٩٦٠: ٣٢.

خصوصياته، فالفاتحون يحملون رسالة الإسلام التي تحفظ حقوق الخلق في ساحة القتال ، وتحترم إنسانية العباد في أرضه ، وتضمن له حرية عبادته، وعليه فإن أصحاب الأندلس الأصليين سيحافظون على كثير من أراضيهم، وسيظل لهم وجودهم الفعلي في النشاطات المختلفة. يقول ابن حوقل([1]): " وبالأندلس غير ضيعة فيها الألوف من الناس ،... وهم على دين نصرانية الروم ". والكثير من أصحاب الأرض من غير هؤلاء ممن دخل الإسلام، سيكونون في واقع أمرهم معظم سكان الأندلس، وسيصبحون في مصاف العرب والبربر بعد أجيال، وقد تستحيل التفرقة بين هؤلاء وهؤلاء.وأمّا أهم مكونات الشعب الأندلسي :-

١- العرب

كانت النواة الأولى للعرب الذين وصلوا الأندلس تتكون من القيسيين والكلبيين، ممن وفد مع موسى بن نصير، ثم جاءت بعدهم دفعة أخرى سنة ٩٤ هـ، ومنذ ذلك الوقت تتابعت الهجرات، واستجلب عبد الرحمن الأول أجنادا سوريين، استقروا فيما بعد في جنوب الأندلس وغربها. وسمي أولئك الوافدون مع ابن نصير البلديين، في حين سمي الوافدون مع بلج بن بشر الشاميين الوافدين سنة 123هـ([2]) .

استقر العرب بصفة عامة في مدن السهول الخصبة، ولا سيّما في منحدر الوادي الكبير، وقرب منحدرات الأنهار التاجة وشنيل وإبرة قرب مرسيا، واستقر العدنانيون القيسيون حول طليطلة، والهذليون في منطقة أريولة، وأكثر التميميين والقيسيين في منطقة أشبيلية وبلنسية. وتوزع القحطانيون اليمنيون في عديد من الأماكن. واستقرت الأرستقراطية الحميرية في قرطبة وبَطَلْيُوس وأشبيلية وألبيرة ومرسيا،وتوزعت منازل العرب الشاميين في أماكن متعددة، فنزل جند دمشق كورة (ضاحية) ألبيرة، وجند الأردن كورة جيّان، وجند مصر كوره باجة، وبعضهم بكورة تدمير([3]) .

٢- البربر

يقصد بالبربر الجماعات التي أقامت منذ أحقاب بعيدة في الشمال الأفريقي من برقة شرقاً حتى المحيط الأطلسي غرباً، و يرجع ابن خلدون الكلمة إلى كثرة بربرتهم ، والبربرة بلسان العرب هي اختلاط الأصوات غير المفهومة. ويرجعهم البعض الآخر إلى لفظ بربـاروس وتعني الرافضة للحضارة الرومانية ، وقد عاش البربر على شكل جماعات وبعضهم عاش داخل المدن واختلطوا بمن احتل البلاد كالرومان والوندال وغيرهم، والغالبية عاشت على شكل قبائل وجماعات واتخذت

---

[1] ابن حوقل، صورة الأرض، القسم الأول: ١١١.

[2] ابن عذارى المراكشي، البيان المغرب،الجزء الثاني:٣١

٣ ا بن الخطيب، لسان الدين ، الإحاطة في أخبار غرناطة، المجلد الأول:٢٠ .

من سهول وجبال المنطقة موطناً وسكناً([1]).

وتدفقت جموع البربر إلى الأندلس، وكان أكثرها من زناتة مع الطلائع الأولى للفتح،إذ قاد طارق بن زياد مولى موسى بن نصير اثني عشر ألفاً من الجند،جلّهم من البربر([2]) ثم تبعتها صنهاجة أيام ضعف الدولة الأموية، ومن كان منهم من أهل الحاضرة استقر في القرى"([3]).وشكل البربر مع العنصر العربي،والعناصر الآخر المجتمع الجديد،إلا أن اندماج البربر بمجتمعهم الجديد ظلّ دائما محدودا، ولهذا نجد أثناء الحديث عن الفتنة وأحداثها أن الصراع المؤرخ له يتم بين طرفين: الأندلسي وعلى رأسه العصبيّة العربيّة والبربري.

٣- الصقالبة أو الموالي :

وهم الخدم المستجلبون من الشمال، وأصلهم من أساري الجيوش الجرمانية في حروبها مع السلافيين،ثم حملوا إلى الأندلس وبيعوا بها. والبعض منهم كان من أسرى القراصنة الذين كانوا يطوفون في مياه البحر الأبيض المتوسط. واستجلب اليهود عدداً منهم خاصا بخدمة الحريم، من فرنسا([4]). ومنهم من كان من سبي المسلمين أثناء معاركهم مع المحيط المعادي لهم،يقول ابن حوقل عن خدم الأمويين في الأندلس: "ومن مشهور جهازهم الرقيق من الجواري والغلمان ،من سبي أفرنجة وجليقة وانكبردة وقلورية ([5]).

و كثر عدد الصقالبة الموالي أيام الخلافة،وبلغ عددهم ثلاثة عشرة ألفاً وسبعمائة وخمسين فتىً.... وخدم الخدمة ستة آلاف وثلاثمائة وأربع عشرة امرأة" ([6]). بينما يرى ابن عذارى أن عدد الصقالبة في قرطبة وحدها قد زاد عن خمسة عشرة ألف نسمة مما كان له تأثيره الكبير([7]) ، ولا سيّما أنهم كانوا في خدمة أصحاب القرار ، وقيادة الجيش، وكان لهم قول مسموع في نساء القصر ولدى أهل السلطة ([8]).

ومع هذا العدد الكبير صار لهم ذكر وصيت، ومكانة مرموقة في المجتمع الأندلسي، وبلغوا حظوة ما بعدها حظوة عند الخليفة الناصر وابنه الحكم ، فعلى الرغم مما ظهر منهم من أمور قبيحة فإن الحكم كان يقول([9]): "هم أمناؤنا وثقاتنا على الحريم، فينبغي للرعية أن تلين لهم، وترفق في

---

[1] الموسوعة الإسلامية العامة، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ٢٠٠١ م: ٢٧٥.

[2] المقري، نفح الطيب،المجلد الأول:٢٣١ .

٣ زمامة، عبد القادر الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية ، تحقيق سهيل زكار، الدار البيضاء، دار الرشاد الحديثة، ١٩٧٩ :٥٥.

[4] المقري، نفح الطيب، المجلد الأول:١٤٥

٥ ابن حوقل، صورة الأرض، القسم الأول: ١١٠

٦ المقري، نفح الطيب، المجلد الأول:٥٦٧.

٧ ابن عذارى، البيان المغرب، الجزء الثاني: ٢٣٢.

٨ ابن عذارى، البيان المغرب، الجزء الثاني: ٢٥٩ .

[9] المصدر نفسه: ٢٥٩ .

معاملتهم ،فتسلم من معرتهم، إذ ليس يمكننا في كل وقت الإنكار عليهم".

وازدادت سطوتهم بعد موت الحكم، إذ غدوا أكثر جمعاً، و أحدّ شوكةً، يظنّون أن لا غالب لهم وأن الملك بأيديهم، وظهر دورهم بشكل واضح أثناء الفتنة، والأحداث التي تلتها من سقوط للخلافة وتمزق للبلاد، فانفردوا بعدد من المدن وتملكوها.

٤- النصارى المعاهدون أو الأعاجم.

وهم النصارى الذين بقوا بعد فتح الأندلس في المدن والبقاع المفتوحة ، في ظل الدولة الإسلامية ، وكانوا يكوّنون مجموعات كبيرة في القواعد الرئيسة مثل قرطبة و أشبيلية وطليطلة، وكان من الطبيعي أن يكون عددهم كبيراً في كل أرجاء الأندلس ،ويظهر خطرهم على الوجود العربي،كلما ازداد العدو الإسباني قوة، ففي عهد المرابطين كان أن بدأ التحرك المسيحي الإسباني للاستيلاء على المدن الأندلسية، لعب هؤلاء المعاهدة دورا مساندا لتلك القوى المسيحية الطامحة، ففي نواحي غرناطة مثلا وعد المعاهدون ابن روذمير قائد القوات الإسبانية، باثني عشر ألف مقاتل ، وكانوا في منطقة محدودة ([١]).

٥- المولّدون أو المسالمة من أهل الدين:

وهم سكان الأندلس الأصليون الذين اعتنقوا الإسلام ، منهم من أسلم واستقر بموضعه ، ومنهم من سبي عند الفتح واستقر بها ، وبها بقي عقبه ، ومنهم من أسلم بعد الفتح ،أو سبي بعد الفتح،واستقر بها عقبهما، ومنهم من كان يهودياً استقر بالأندلس قبل الفتح وأسلم واستقر في الأندلس في عهد فتح البلاد [٢] .

٦- اليهود: لا يُعرف متى وصل اليهود أرض إسبانيا، فقد زعم " دورثي "أنهم جاؤوا إليها مع طلائع الفينيقيين الأولى الذين قدموا اسبانيا([٣]). ومن المؤكد أنهم كانوا موجودين في أرض إسبانيا منذ القرن الرابع الميلادي .

وكان هؤلاء اليهود الذين استوطنوا الأندلس قبل الفتح عوناً للفاتحين العرب والمسلمين، يقدمون المعونة العسكرية والاستخباراتية، حتى غدوا أدلة للمسلمين على القوط ([٤]). ومعنى ذلك أن اليهود أسهموا بشكل فعال ،وبسرور بالغ في الفتح العربي للأندلس. وما هذه المؤازرة إلا نابعة من رغبة اليهود في التخلص من حكم المسيحيين القوط ([٥]). وظل العنصر اليهودي الذي ساهم في الفتح نشطاً

١ ابن الخطيب ، الإحاطة، المجلد الأول: ٢٢ .
٢ زمامة ، الحلل الموشية : ٥٥
٣ دورثي لودر، اسبانيا شعبها وأرضها :٤٣
٤ المقري، نفح الطيب ، المجلد الأول: ٢٦٣.
٥ دورثي لودر، اسبانيا شعبها وأرضها :٤٤.

نشطاً يتحرك في مجالات الاقتصاد المختلفة ، ولكنه كان أيضا ذا تأثير سياسي كبير([1]).

لقد كون هؤلاء جميعهم ظاهرياً مجموعاً ينمّ عن انسجام ، وكانت العامة أكثره ، إذ كان في قرطبة وحدها " خلق لا يحصيه إلا خالقهم "([2]).وكان على قمة هذه العناصر كلها أرستقراطية عربية تتكون من نبلاء الفاتحين، وبعض أكابر البربر و الصقالبة ، واتخذ هؤلاء الطبقة العامة خدما في كل مجالات الحياة ، وكانوا يعيشون ، سواء منهم سكان المدن أو الأرياف والحصون ، على طريقة ملاك الأراضي الكبار ، يستخدمون المولدين والعامة والفلاحين المستعربين في زراعة ضيعهم([3])، فيخصصون لهم أجرا مقدما، أو يفردون لهم قسطا من المنتوج . غير أنه سيكون لهذه الطبقة العاملة التي تمثلت في بقية الأجناس الأخرى ، بطبيعة الحال ، فيما آلت إليه الأمور وتبعا للتقلبات السياسية المختلفة ، وضع جديد يضعف من شأن العصبية العربية.

ومما يثبت هذا الوضع الذي آلت إليه العصبية العربية أن الحكم في الأندلس ، منذ بداية الأمويين وحتى الأفول ، ظل متأثرا بما كان لكلّ هذه العناصر من قوة قد تزداد هنا وقد تضعف هناك ، تبعا للغلبة أو الانحدار اللذين كانا من ثمرة الانقسامات داخل سلطة العائلة الواحدة ، أو الصراع الذي كان يحدث بين الدويلات ، أو التهديدات التي كانت ترد من قوة خارجية شمالا وجنوبا ، زيادة على ما كانت تحدثه العناصر غير العربية من فتن أو ثورات أو تطلعات تريد بها علو كرسي السلطة ([4]). وبالإجمال ، فإن صيرورة الحكم في الأندلس ظلت رهينة بحركية يكاد يكون لها وحدها التأثير الكبير ، تلك هي النزاعات الداخلية والمناوشات الخارجية والصراعات السياسية . وكان لهذه الحركية مرتكزاتها الأساسية هي التي ولدت الفعل اليومي والنشاط المتأجج الذي شمل كل العناصر المكونة لسكان شبه الجزيرة الأيبيرية .

وتمثلت هذه المرتكزات في الوظائف التي خصّ بها كل عنصر في البنية العامة التي تكون الحكم، سواء عندما كان في قوته وتوحده، أو في ضعفه وانحداره وتفتته.

لقد تربعت النخبة العربية على سدة الحكم ، وتقلدت مراتب الوزارة والكتابة والقضاء والشرط والحِسْبَة والخطط والمظالم والمواريث والمباني وبيت المال وضرب النقد ([5]) ،وشاركهم في هذه المناصب فيما بعد ، عديد من البربر الذين ارتبطوا بهم دماً ، وكذا بعض المولدين الذين سوّاهم بهم

---

١ بلقين ،عبد الله بن ، المذكرات المسماةبكتاب التبيان،تحقيق بروفنسال، دار المعارف بمصر،١٩٥٥م:٣٧ و ٥٣.

[2] ابن عذارى ،البيان المغرب،الجزء الثاني:٢٢٢.

[3] ابن الخطيب، الإحاطة، المجلد الأول:٢١ .

[4] انظر ترجمة سوار بن حمدون القيسي،وسعيد بن جوديّ :ابن الأبّار ،الحلة السيراء٩٠- ٩٤ ،وانظر تاريخ ابن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، الطبعة الأولى، لبنان، بيروت، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع.، المجلد الأول، أخبار الثوار:١٥٢٨ وما بعدها .

٥ زمامة، الحلل الموشية : ٥٥ .

الإسلام، وتضلعهم في لغة القرآن و آداب حضارته الإسلامية . وقد استطاع هؤلاء المولدون أن يشغلوا مناصب كبرى كانت وقفا على الأرستقراطية العربية ، مما خلق صراعاً داخلياً مريراً عبر عنه ابن الفرضي في حديثه عن عبد الله بن الحسن المعروف بابن الشديّ ، الذي استقضاه عبد الرحمن بن محمد ، على وشقة وما والاها ، قال ابن الفرضي:" إنه كان منسوباً إلى الكبر مزهواً شديد العصبية للمولدين منتقدا للعرب حافظا لمثالبها.. (توفي٣٣٥ هـ)"([١]) .

واحتل المعاهدة النصارى مناصب كبيرة في الدولة، ولا شك أن هؤلاء كانوا إداريين يدبرون أمور الاقتصاد، وتنظيم الدولة، وكانوا يختلفون عن كتاب الرسائل، واسترشد أصحاب الحل والعقد في الأندلس بكبار النصارى في كثير من الأحيان ، فقد أشار أرطباص([٢])على والي الأندلس أبي الخطار هشام بتفريق قبائل الشاميين على الكور تخفيفاً عن قرطبة.

ولعب اليهود دوراً مهماً في فتح المدن الأندلسية، فنالوا الجزاء الكبير من هذا الفعل ،و أعدوا نفوسهم ثقافة وعلماً، ليقوموا بالمهمات الجسام في جهاز الدولة ،وأشتهر منهم الشعراء والأدباء مثل إبراهيم بن سهل الإسرائيلي ،و نسيم الإسرائيلي ،وابراهيم بن الفخار اليهودي،وابن المدور،وابن شمعون،وقسمونة([٣]).

وأصبح منهم أعيان ووزراء كيوسف بن نغرالة ([٤])،وعن ترجمته يقول صاحب الإحاطة ([٥]) : "وإنما أتينا ببعض أخباره؛ لكونه ممن لا يمنع ذكره في أعلام الأدباء والأفراد".

فالأندلس كانت تضم عناصر مختلفة في العرق والدين واللغة والثقافة، وهذه عناصر لعبت دورا أساسيا وبشكل غير مباشر في إضعاف الدولة و وقوع الفتن.

---

١ ابن الفرضي، عبد الله بن محمد أبو الوليد ، تاريخ علماء الأندلس،الطبعة الثانية،تحقيق إبراهيم الإبياري، بيروت لبنان: دار الكتاب اللبناني،١٩٨٩ : ٢٢٧ .

٢ عينه العرب بعد الفتح ، حاكما على طليطلة، ورئيسا للنصارى، وزعيما لعجم الذمة ،ومستخرجا خراجهم لأمراء المسلمين. ابن الخطيب ، الإحاطة ، المجلد الأول:٢٠

٣ أورد المقري ترجمة لهؤلاء الشعراء في نفح الطيب، المجلد الثالث:٥٢٢-٥٣٠ .

٤ استوزر باديس صاحب غرناطة اليهودي يوسف بابن نغرالّة وأعضل داؤه المسلمين في غرناطة ، قال أبو إسحاق الإلبيري قصيدته النونية المشهورة التي منها في إغراء صنهاجة باليهود:

ألا قل لصنهاجة أجمعين بدور الزمان وأسد العرين

فثارت إذ ذاك صنهاجة على اليهود، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة ، وفيهم الوزير المذكور.وأنظر القصيدة:ديوان أبي إسحاق الالبيري،الطبعة الأولى،تحقيق محمد رضوان الداية،دار الفكر،دمشق،سورية،١٩٩١: ١٠٨ .

٥ ابن الخطيب ، الإحاطة ، المجلد الأول:٢٤٤.

الفصل الأول: الفتنة جذورها وأحداثها

المبحث الأول : جذور الفتنة

المبحث الثاني: أحداث الفتنة

المبحث الأول: جذور الفتنة

ما إن أوقع طارق بن زياد الهزيمة بلذريق ملك القوط في اسبانيا في الثامن والعشرين من رمضان سنة (٩٢ هـ/٧١١م) بجيش بلغ "اثني عشر الفا غير اثني عشر من البربر ،ولم يكن فيهم من العرب إلا شيء يسير"([١])، حتى لحق موسى بن نصير أمير طارق بن زياد والي إفريقيا للوليد بن عبد الملك في عسكر ضخم من وجوه العرب والموالي وعرفاء البربر عام(٩٣هـ /٧١٢م)، وأسهم في الفتح، وتوغل في الأندلس إلى برشلونة في جهة الشرق وأربونة في الجوف ،وصنم وقادس في الغرب ([٢])، ثم أقفل عائداً إلى الشام سنة (٩٦هـ) مصطحباً معه مولاه طارق تلبية لطلب الخليفة بوقف التوغل وعودته إلى دار الخلافة، بعد أن كلف ابنه عبد العزيز على إمارة الأندلس ومستقرها اشبيلية آنذاك،وما لبث أن قتل غيلة على يد رسل سليمان بن عبد الملك سنة(٩٧ هـ) بعد وشاية وصلت لسليمان تفيد بتصرف عبد العزيز بمعزل عن توجهات الخليفة،وإحداثه في ملك العرب ما تفعله النصارى في تعظيم ملوكها من لباس التاج،وسجود الوافدين عليه بين يديه([٣]).

وسميت الفترة الممتدة(٩٥-١٣٨هـ) بعصر الولاة ، واتصفت بالاضطرابات والصراعات الداخلية، والمعارك الطاحنة مع القوى المسيحية في الشمال ، إذ تم تولية ما يزيد على عشرين واليا ([٤])،خلال مدة لم تتجاوز نصف قرن([٥]).

---

١ المقري، نفح الطيب، المجلد الأول:٢٣١.
٢ المصدر نفسه:٢٣٣.
٣ ابن عذارى، البيان المغرب، الجزء الثاني:٢٤
٤ تاريخ ابن خلدون، المجلد الأول:١٥١٦- ١٥١٨، والمقري، نفح الطيب، المجلد الأول:٢٩٩.
٥ هؤلاء الولاة هم:

١. عبد العزيز بن موسى بن نصير(٩٥-٩٧ هـ)
٢. أيوب بن حبيب اللخمي(رجب-ذي الحجة٩٧هـ)
٣. الحر بن عبد الرحمن الثقفي(ذي الحجة٩٧-رمضان١٠٠هـ)
٤. السمح بن مالك الخولاني(رمضان١٠٠-١٠٢هـ)
٥. عبد الرحمن الغافقي(ذي الحجة١٠٢ – صفر ١٠٣هـ).
٦. عنبسة بن سحيم الكلبي(صفر ١٠٣- شعبان١٠٧هـ).
٧. عذرة بن عبدالله الفهري(شعبان١٠٧- شوال١٠٧ هـ).
٨. يحيى بن سلمة الكلبي(شوال١٠٧ – ربيع الأول١١٠ هـ).
٩. حذيفة بن الأحوص(١١٠هـ).
١٠. عثمان بن أبي نسعة(شعبان-ربيع الأول ١١٠هـ)
١١. الهيثم بن عبيد(محرم ١١١هـ).
١٢. محمد بن عبد الله الأشجعي(١١١هـ)
١٣. عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي للمرة الثانية(صفر١١٢- رمضان ١١٤هـ)
١٤. عبد الملك بن قطن للمرة الأولى (شوال ١١٤- شوال ١١٦ هـ)
١٥. عقبة بن الحجاج السلولي (شوال ١١٦- صفر ١٢١)
١٦. عبد الملك بن قطن الثانية (صفر- ذي القعدة ١٢٣)
١٧. بلج بن بشر(ذي القعدة ١٢٣- شوال ١٢٤هـ)

وبتعاقب الولاة على أمر الأندلس ، ومنافسة بعضهم بعضاً على الحكم ،وقصر مدة ولاية الواحد منهم،أصبحت البلاد مسرحاً للفتن والاضطرابات التي كان يذكي نارها ظهور العصبيَة القبليّة بين العرب أنفسهم من جهة ،وبين العرب والبربر من جهة أخرى.فقد خرج البربر مطالبين بالإمارة بدعوى الاعتداد بالنفس ،وأسبقيّة الفتح إذ تم على أيديهم ،وتحت قيادة طارق بن زياد البربري ،وأنهم أولى وأحق بمقاليد الحكم. وقد تزامنت ثورة البربر مع ثورة لهم على الحكم الأموي في شمال أفريقيا؛ ولذلك لم يجد بلج بن بشر([١]) والي إفريقيا بدّاً من أن يفر بجنوده المحاصرين من البربر باتجاه الأندلس سنة (١٢٣هـ) بعد معارك طاحنة مع الثائرين من البربر على الحكم الأموي، ويصطدم مع والي الأندلس عبد الملك بن قطن ويقضي عليه([٢]).

وسمّوا هؤلاء الجند المرافقين لبلج بن بشر بطالعة الشاميين الأولى؛ لأن أصولهم من القبائل العربية الشامية ،وكان لهؤلاء الطالعة دور أساسي ملحوظ في قيام دولة الأمويين بالأندلس فيما بعد([٣]). أما الطالعة الثانية فكان على رأسها أبو الخطار الكلبي([٤])، فقد وفدت سنة (١٢٥هـ) ، وتأمّر على الأندلس بعد مقتل أميرها عبد الملك بن قَطِن على يد بلج بشر الذي تبعه في الوفاة، وقد أضاف هؤلاء الشاميون عنصراً جديداً إلى عناصر الخصومة في الأندلس، واتّحد ضدهم البلديون، والبلديون هم عرب الأندلس القدماء منذ الفتح، وهؤلاء يمثلون أفواج العرب الأولى ممن وفدوا مع موسى بن نصير وحاربوا معه ، وقلة منهم مع طارق بن زياد ،ثم استقروا في الأندلس وتصاهروا مع الأسبان،إذ كان جلّهم جنود تزوجوا بالإسبانيات ،واعتبروا أنفسهم أهل البلاد وأصحابها ،وتسموا بالبلديين وكرهوا أن يقبل عليهم الشاميون ،وأن يتقاسموا خيرات البلاد، وينازعوهم السيادة ([٥]).

وما كاد شر البربر يزول حتى ظهر نزاع قبلي آخر بين البلديين والشاميين بدعوى ضيق قرطبة بالبلديين، فقام أبو الخطار بتقسيم فرق الشاميين على الكور فأنزل أهل دمشق البيرة،وأنزل

---

١٨. ثعلبة بن سلمة العاملي(شوال ١٢٤- رجب ١٢٥ هـ)
١٩. أبو الخطار حسام بن ضرار(رجب ١٢٥- رجب ١٢٧هـ)
٢٠. ثوابة بن سلمةالجذامي (رجب ١٢٧- محرم ١٢٩هـ)
٢١. عبد الرحمن بن كثير(محرم - ذي الحجة١٢٩هـ).
٢٢. يوسف الفهري(ذي الحجة١٢٩-١٣٨هـ).

١ قاتل خوارج البربر، وتوفي بعد أن أصيب بجروح سنة ١٢٥ هـ.
٢ الحميدي، جذوة المقتبس:١٥٩
٣ تاريخ ابن خلدون، المجلد الأول:١٥١٧.
٤ الحميدي، جذوة المقتبس :١٧٧ .
٥ للتوسع في الموضوع، أنظر المقري، نفح الطيب، المجلد الأول: ٢٣٧ وما بعدها.

أهل حمص اشبيلية ، وأهل قنسرين جيّاناً ، وأهل الأردن ريّة ومالقة ،وأهل فلسطين شذونة ،وأهل مصر تدمير([1]).

ثمّ نشأ صراع جديد ثالث بين المضريّة واليمنيّة ، ومنشأ هذا الصراع أنّ أبا الخطار حسام بن ضرار الكلبي وهو يمني تولى بلاد الأندلس سنة (١٢٥هـ)، فقام في وجهه الصميل بن حاتم (وهو مضري)، حيث خلع حسام بن ضرار الكلبي وأسره ،وولّى عليهم ثوابة بن سلامة الجذامي سنة(١٢٧هـ)ولكن هذا الوالي الجديد توفي بعد سنتين .

وأراد أهل اليمن إعادة الكلبي ،فامتنعت مضر بزعامة الصُّميل وافترقت الكلمة، وأقامت الأندلس أربعة أشهر بغير أمير. فلما تفاقم الأمر أتفق رأيهم على يوسف بن عبد الرحمن الفهري، فوليها يوسف - وكان مضريا- سنة (١٢٩هـ/٧٤٦م) ،واستقر الأمر فيما بينهم على أن يلي سنة،ثم يرد الأمر إلى اليمنية ([2]). فلما انقضت السنة نكث يوسف الفهري عهده ،والتقى الفريقان المتحاربان في شقندة من قرى قرطبة سنة(١٣٠هـ) وقتل فيها من العرب خلقٌ كثير، وانجلت المعركة عن هزيمة فادحة لليمنيين، وظل الأمر للفهري حتى غلبه عبد الرحمن بن معاوية المرواني (١٣٨هـ)([3]).

ولعل السمة الغالبة على فترة الولاة من الناحية السياسية أنَّها فترة نزعات وحروب،نزاع بين الفاتحين بتتبع الفارين والمدافعين،ثم فترة التنافس على الولاية والصراع على السلطة، بين العرب والبربر أولاً،ثم بين العرب أنفسهم قحطانيين وعدنانيين ثانياً.

والعصبية القبليّة أجّجت النزاعات الداخلية بين الفاتحين العرب والمسلمين،حيث غلب على نهاية ذلك الاختلاف اللجوء إلى حد السيف لحسم ذلك الصراع ، مما دفع الأندلسيين لتفسير أسباب الفتن، والبحث عن مبررات النتائج التي وصلت إليها الحالة، ولا سيّما بعد سقوط الخلافة ونكبة قرطبة؛فيشير ابن الخطيب إلى تلك العصبيّة باعتبارها أحد ثلاثة وجوه سببت كثرة الثوار، واندلاع الفتن في الأندلس : الأول منعة البلاد، وحصانة المعاقل، وبأس أهلها بمقاربتهم عدوّ الدين، فهم شوكةٌ وحدّ بخلاف سِوَاهم ، والثاني عُلوّ الِهمَم، وشموخ الأنوف، وقلّة الاحتمال لثقل الطاعة ، بين أشراف العرب والبرابرة ، ممن يأنف بعضهم من الإذعان لبعض ، والثالث : الاستناد عند الضيقة

---

[1] تاريخ ابن خلدون، المجلد الأول:١٥١٧، والمقري، نفح الطيب، المجلد الأول: ٢٣٧.
[2] تاريخ ابن خلدون، المجلد الأول:١٥١٧.
[3] المصدر نفسه:١٥١٨.

والاضطرار إلى الجبل الأشمِّ والمعقل الأعظم من مَلِك النصارى الحريص على ضرب المسلمين بعضهم ببعض([1]).

ويردّ ابن سعيد سبب كثرة الثوار في الأندلس والخارجين على السلطان إلى طبيعة القرطبيين، يقول :" لا تزال سمة العلم متوارثة فيهم ،إلا أنّ عامتها أكثر الناس فضولاً،وأشدهم تشنيعاً وتشغيباً،ويضرب بهم المثل ما بين أهل الأندلس في القيام على الملوك والتشنيع على الولاة وقلة الرضى بأمورهم"([2]). فهم سريعو الانجذاب إلى الشخصية القيادية، والتأثر بها،والعمل على تبعتها دون تفكير بعواقب هذا الاندفاع ، آل الأمر إلى ما يؤول إليه ،بينما أهل الشرق أصوب رأياً منهم في مراعاة نظام الملك ،والمحافظة على ديمومته، وإحكام شروطه ، مما يمنع الأسباب التي تقضي باختلال القواعد، وفساد التربية،و سوء العاقبة([3]).

لقد هلّ عام (٣٩٩هـ)،وكانت قرطبة في أبهى صورة وأكملها ، حتى تعاظمت على صورة بغداد في زمان الرشيد، وعزّ ملك العرب واشتدّ أمر الأندلسيين، وعلت منزلتهم،فقد مكّن الله لها أهل حزم وعزم منذ تولي الناصر لمقاليد الحكم عام (٣٠٠هـ)، ثم ولي ابنه الحكم الخلافة عام(٣٥٠هـ) ونهج نهجه ،ثم تسلم زمام السلطة الفعلية الحاجب المنصور بن أبي عامر في عهد الخليفة المستضعف المؤيد بالله(٣٦٦-٣٩٩ هـ)، فأعلى شأنها إلى الصرح،وتناهى بها كل فضل وكمُل ،وذلك ما أثار حفيظة المؤرخ ابن عذارى ليفسر ما حدث، فيشير إلى السنن الإلهية في الحضارات والأمم والأقوام، إذ إنّ نهاية الكمال النقصان،يقول([4]) : ".. وذلك للإدبار الذي يكون بعقب الإقبال، والنقص الذي يوافي بعد الكمال، فما من شيء كمل إلا دنا نقصه لا محالة ، فأبادهم كما أباد طَسْم وجَدِيس .فهل تحُسُّ منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا".

بينما يرى ابن سعيد أن سبب الفتنة هو تحاسد الأندلسيين فيما بينهم على الخلافة، وابتغاء بعضهم إيّاها من غير وجهها الذي رتبت عليه([5]).

ولربما كان ابن سعيد أقرب إلى الصواب في تفسيره لأسباب انحدار الخط العربي الإسلامي من القوة إلى الضعف ،ومن المجد إلى السقوط،فهذا التحاسد المبني على العصبية بين مكونات المجتمع الأندلسي،أصبح داء مستعصيا،طوى معه مجموعة من أعراض المرض ، وكأنه السرطان

---

[1] ابن الخطيب، لسان الدين ، أعمال الأعلام في من بويع قبل الاحتلام من الملوك الأعلام ،الطبعة الثانية تحقيق ليفي برونفسال ،دار المكشوف ،بيروت-لبنان،١٩٥٦ :٣٦.

[2] المقري، نفح الطيب، المجلد الأول: ٤٦٢.

[3] المصدر نفسه:٢١٥.

[4] ابن عذارى، البيان المغرب، الجزء الثالث:١١١.

[5] المقري، نفح الطيب، المجلد الأول: ٢١٣.

الخفي يستشري في باطن جسد ظاهره الصحة والقوة ،وفي باطنه السقم القاتل. وهي عيوب بدأت منذ أيام مبكرة من الوجود العربي في الأندلس ، ثم استفحل داؤها على عهد الدولة العامرية . غير أن الأمجاد العسكرية، والقوة الظاهرية كانت تلقى عليها حجابا كثيفا سترها عن الأنظار . لقد كانت الفتنة تنخر العظم تحت هذه القشرة الظاهرة من القوة والعظمة ، فلما تصدعت واجهة الدولة بعد وفاة المظفر بن المنصور بن أبى عامر، إذ بهذا البنيان الشامخ ينهار في لحظات ، وإذ بنيران الفتنة المبيرة تندلع معلنة بداية نهاية الإسلام في الأندلس. وبينما كان البناء السياسي للأندلس يتصدع شيئاً فشيئاً أثناء فترة الصراع على الخلافة بين من ادعاها من أفراد البيت الأُمَوي ومن أعقبوهم من بني حَمّود([1])، انهار البناء السياسي جملة .

ولعلّ هذه القوة الظاهرة أخفت عن الناس عيوب ذلك الوهن الذي أصاب الجسد الأندلسي،فهذا أحد الشعراء([2]) يرى أن ما أصاب قرطبة هو نظرة عين حسود،لما اتصفت به من الجمال والكمال.يقول([3]):-

ابْكِ على قُرْطَبةِ الزَّيْنِ   فَقَدْ دَهَتْهَا نَظْرَةُ العَيْنِ
أَنْظَرَهَا الدَهَرُ بِأسْلافِهِ   ثُمَّ تَقَاضَى جُمْلَةَ الدّيْنِ
كَانَتْ على الغَايَةِ مِنْ حُسْنِهَا   وَعَيْشِهَا المُسْتَعَذَبِ اللَّيْنِ

فالشاعر يرى في فترات الازدهار أن الزمان يقرضها ويدينها ثم يمهلها، حتى إذا حان سقوطها جعل ذلك بمثابة مجيء أجل الدَّيْن الذي تتقاضاه جملة واحدة، لكن هذه الحالة من الكمال والبهاء تبدلت، فأضحى التآخي والتراحم بين الناس معدوماً. يقول:

فانْعَكَسَ الأمْرُ فَمَا أنْ تَرى   بِهَا سُرُوراً بَيْنَ اثْنَيْنِ

والمقام فيها أصبح عدواً للسلم ،ومن أراده عليه أن يُوَدع قرطبة.يقول:

فَاعْدُ وَوَدِّعها وسِرْ سَالمَا   إن كُنْتَ أزْمَعتَ عَلى البَيْنِ

---

[1] بنو حمّود : من ملوك الطوائف في الأندلس. وقد سُمِّيت على اسم مؤسسها حمّود، من نسل إدريس بن عبد الله، أي أنهم من الأدارسة .بيد أنه بالرغم من هذه النسبة العلوية ، إلا أنهم كانوا ينتمون في الواقع من حيث النشأة والعصبية والمصير، إلى البربر ، وتوالى على الحُكم خلال تسع سنوات ثلاثة من بني حمود ، هم الناصر والقاسم والمعتلي ، وثلاثة من بني أمية ، هم المرتضى والمستظهر والمُسْتَكْفي ، وتداخلت ولايات هؤلاء الخلفاء .

[2] لم ينسب ابن عذارى الأبيات لشاعر بعينه، إنما أورد الأبيات دون التعريف بقائلها.

[3] ابن عذارى، البيان المغرب، الجزء الثالث:١١٠.

لم يصدق أهل قرطبة ما حلّ بهم في أتون الفتنة، وقد تغيّرت الأحوال واضطربت ، واختلّت الموازين، فأرض الأندلس منذ أن وطئت أقدام الفاتحين العرب المسلمين كانت على الدوام في رباط وحرب مع القوى النصرانية المغلوبة، وظل أمر انتصار أحدهم على الآخر بالقوى النصرانية مستبعداً حتى ذلك الحين،وبمجيء الفتنة لم يتوانَ الحزبان المتصارعان : البربري والأندلسي على الانتصار بشانجة أوابن مامة كما يورده ابن عذارى المراكشي في كتابه البيان المغرب ([1])، وأقحمت معها سيوف عدو الأمس القريب بخضم الفتنة،وتناولت رقاب إخوانهم المسلمين .

هذا الأمر الشنيع حدا بالناس لإنكاره، وبيان مآل حالهم لبعدهم عن دين الله، يقول أحد الشعراء([2]):

أضَعْتُمُ الحـزمَ فـي تَـدبيرِ أمْـرِكُمُ — سَتَعْلمون مَعَاً عُقْبَى البَوارِ غَـدا

فَلَوْ رَأيْتُمُ بِعَيْنِ الفِكْرِ حالَكُمُ — بَكيْتُمُ بِدَمٍ أَنْ دُمْتُمُ بَدَدَا

لَكِنَّ سُبل العَمَى أعْمَتْ بصائركم — فألْبَسَتْكُم ثِيابَاً لِلبِلى جُدُدَا

يَا أُمَّةً هُتِكَتْ مستور سوئتها — مَا كُلُّ مَنْ ذَلَّ أعْطى بالصَّغَارِ يَدَا

ويحدد معاني الأمر والنهي في سور القرآن الكريم وآياته ، ويحذرهم من عدم الالتزام بها ،فمصير المعرضين واضح بين، يقول :

في سُورةِ الْحَشْرِ آياتٌ مُفَصّلَةٌ — فـي شـأنِكم أنزِلَـتْ لَـمْ تَعْـدُكم أحَـدَا

نَعَمْ وفي الكَهَفِ في العِشْرين خَاتِمَةٌ — تَقْضِـي عَلَـيكم بِـأنْ لا تُفْلِحـوا أبَـدَا

ويقرر بأن العقوبة جامعة ودائمة؛ لاشتراك الجميع بالمعصية، فعليهم أن يستشعروا سوء أعمالهم ويكّفوا عنها.يقول :

فَاسْتَشْعِروا سُوءَ عُقْباكم فَقدْ شَمِلَتْ — جَمِيعَكُم مِحنَةٌ لا تَنْقَضِي أبَدَا

إنّ جريان الأحداث وفق هذه الصورة يدلّ بصورة واضحة على عمق العصبيّة القبليّة، وأن قيام بني أميّة بأمر الأندلس- لا سيّما بعد إعلان الخلافة- بمحاولة القضاء على تلك العصبية،ودمج مكونات المجتمع الأندلسي على اختلافها في العرق والدين والثقافة بصورة مدنية تكفل له ديمومته وانسجامه، وتحقق السلم المجتمعي،لم تفلح في القضاء على تلك العصبيّة وإن حدّت منها.

وبمجرد نجاح ثورة المهدي اشتعلت الفتنة بين البربر والعامة،وأجّجَّ المهدي تلك النار ،وأخذ مناديه ينادي في قرطبة :من أتى برأس قرطبي فله من الأجر كذا وكذا، فتسارع الناس في قتل من

[1] ابن عذارى، البيان المغرب، الجزء الثالث:٨٦، ولم يفصح ابن عذارى عن اسم قائل هذه الأبيات.
[2] المصدر نفسه: ١١١،١١٠.

قدروا عليه،وسبيت النساء،وهتكت الحُرامات،وقتل من ليس له ذنب، و" أمعن أهل قرطبة في هذه القبائح حتى أخذهم الله بذلك عمّا قريب،ومحقهم إلى الأبد"([1]).

وهنا يمكن الاطلاع على وضع الخلافة الأمويّة في الأندلس من قوة وتوسع في شبه الجزيرة الإيبيريّة قبل وقوع الفتنة،وهذا ما تمثله خارطة الأندلس في عصره الذهبي ، بينما تمثل الخارطة الثانية الحدود السياسية للوجود العربي الإسلامي في هذه الجزيرة عقب وقوع الفتنة([2])، ودورها في تقليص الدولة العربية وانكماشها،وازدياد نفوذ الممالك النصرانية وتوسعها بعد الفتنة، وسقوط قرطبة، وظهور عهد الطوائف.

واستطاع عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك الذي لقب بعبد الرحمن الداخل ،أن يتقلد زمام الإمارة بالأندلس سنة (١٣٨هـ) ويجعلها وراثة في عقبه ،ويؤسس لدولة أموية تنفصل عن حكم العباسيين .

وقد ظل حكم الأمويين تحت مسمى الإمارة حتى تولى الإمارة عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الملقب بالناصر في ربيع الأول سنة (٣٠٠هـ / ٩١٢ م)،وهو لم يتجاوز الثالثة والعشرين من عمره، ولم يكن تحت سيطرته الفعليّة أكثر من العاصمة قرطبة وضواحيها.

وما إن استقرت البلاد على يديه وظهر ضعف الخلافة العباسية في المشرق حتّى أعلن خلافته عام(٣١٦هـ/٩٢٨م)([3])، فأخذ بجد ينظم الدولة ويوحدها ويقويها إلى أن" استقامت الأندلس وسائر جهاتها في نيّف وعشرين سنة من أيامه"([4]). وقد بلغت الدولة الأموية في عهده عصرها الذهبي وتحققت لها الأمجاد والانتصارات .

واستمرت الخلافة الأموية في الأندلس في زمن عبد الرحمن الناصر صلبة قوية ، فالخليفة يمسك بزمام الدولة خمسين سنة لم تخرج عن طوع يده أيّاً من أمور الخلافة ، واستمر الخليفةالوارث لحكم أبيه الحكم المستنصر– على هذا الحال – حتى توفي بعد ستة عشر عاما من خلافته في عام (٣٦٦هـ)([5]).

[1] ابن عذارى، البيان المغرب، الجزء الثالث:٨١.
[2] مؤنس،حسين،أطلس تاريخ الإسلام،الطبعة الأولى:دار الزهراء للأعلام العربي،١٩٨٧ : أنظر الخارطتين رقم٩٥،٩٦: ٣٣،٣٤ .
[3] الحميدي، جذوة المقتبس :١٨.
[4] تاريخ ابن خلدون، المجلد الأول: ١٣٥١.
٥ تاريخ ابن خلدون، المجلد الأول: ١٥٣٩.

لقد ترك المستنصر ولي عهده صبياً مناهز الحلم ،و تقلّد الحجابة له جعفر بن عثمان المصحفيّ([1]) ،واستوزر له محمد بن أبي عامر المعافري([2]) وتسمى الخليفة بالمؤيد بالله، إلا أن الخليفة ، ونظرا لصغر سنه، مهد الطريق لبروز شخصية قحطانية قوية، لكن من خارج البيت الأموي، وهي شخصية محمد بن أبي عامر، الذي استطاع بدهائه السيطرة على أمور الحكم بعد أن قام بإقصاء كل المنافسين والمناوئين له، فتخلص في البداية من عم هشام الباغي أمر الخلافة، ثم من سيطرة الصقالبة، ثم من الحاجب جعفر بن عثمان المصحفي، وكذا من القائد غالب، وبعد ذلك أبعد السيدة صبح أم هشام المؤيد بالله ، فخلا له الجو بذلك للانفراد بالملك، فتغلب على الخليفة هشام المؤيد، وحَجَرَه في قصره، لا تراه الخواص ولا العوام([3])، ثم تسمى بالحاجب المنصور، كما أمر بالدعاء له على المنابر بعد الخليفة([4]).

وإزاء هذا الوضع، جعل السلطة الفعلية تخرج عن سيطرة الخليفة بشكل خاص، والأمويين بشكل عام، فلم تبق لهم إلا السلطة الاسمية من الدعاء على المنابر وكتابة اسم الخليفة على السكة والطرز، و صار الخليفة "ليس له من الأمر غير الاسم "([5]).

ورغم ذلك كله ، فإن المنصور بن أبي عامر قام بأعمال جليلة لصالح المسلمين في الأندلس، حيث نظمّ الدولة تنظيما دقيقا ، وقام بالجهاد ضد الممالك النصرانية الشمالية، حيث قام بنحو سبع وخمسين غزوة قادها بنفسه لم يذق فيها طعم الهزيمة أبداً، و"لم تنكسر له فيها راية،ولا فلّ له جيش، ولا أصيب له بعث، فكانت نصراً وعزا لم تبلغه الأندلس إلا في عصره"([6]).

ويقف الموالون والمعجبون بشخصيته الفذة وانتصاراته الباهرة ،كما يقف المتملقون له من الشعراء موقفاً يصور المنصور بأزهى الصور وأشمل الصفات المندوبة وأحبها إلى ممدوح،حتى غدا قبلة الشعراء يهزونه بمديحهم. يقول عبادة بن ماء السماء([7]) :

لَنَـا حَاجِـبٌ حَـازَ المَعَـالِي بأسرِهـا فَأَصْـبَحَ فِـي أَخْلاقِـهِ وَاحِـدَ الخَـلْقِ

---

[1] هو جعفر بن عثمان أبو الحسن الوزير الحاجب ،كان من أهل العلم والأدب البارع ،وله شعر كثير رائع ،يدل على طبعه وسعة أدبه، تمكن وزيره المنصور بن أبي عامر من إزاحته عن طريقه في السيطرة على الدولة،والقضاء عليه ،وتسلم الحجابة منه. أنظر: الحميدي، جذوة المقتبس :١٦٤.

[2] ابن الخطيب، أعمال الأعلام:٦٠ .

[3] تاريخ ابن خلدون، المجلد الأول: ١٥٣٩، ١٥٤٠ .

٤ المصدر نفسه: ١٥٤٠.

٥ ابن الأبّار،الحلة السيراء: ١٥٤.

٦ تاريخ ابن خلدون، المجلد الأول: ١٥٤٠.

[7] ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، القسم الأول، المجلد الأول:٤٧٥.

فــلا يَــغْتَرِرْ مِنْــهُ الجَهُـولُ ببشـــــــرِهِ فَمُـــعْظمُ هَــوْلِ الرعْــدِ فِــي أثـــر الْبَــرْقِ

وممن مدحه ابن دراج، يقول([1]):

حُســامٌ لِــداءِ المَكْــر والغــدْرِ حَاســـمٌ وظِـــــلٌّ علـــى الّــدينِ الحَنِيــفِ ظَـــليلُ

إذا إنْشــقَّ ليْـلُ الحَـرْب ِعَـنْ صُـبْحِ وَجْهِـهِ فَقَــــدْ آن مـــن يَـــومِ الضَــلالِ أصــــيلُ

و فيه أيضاً([2]):

فيـــا جَـــامِعَ الإسْــلامِ شَــمْلاً وتَارِكـــــاً دِيَـــارَ الأعَـــادِي مُوحِشَـــاتِ المَعَـــــاهِدِ

وَمُقْــتَحِمَ الأهَــوالِ فـــي حَوْمِـــةِ الوَغـــى كَمَـــا بَـــادَرَ الظّمـــآنُ عَـــذْبَ المَـــــوَارِدِ

كـان المنصـور بـن أبـي عـامر عبقريـة فـذة تمثـل ذروة النبـوغ والطمـوح الفـردي، فقـد خـرج المنصور من صفوف الطبقة الوسطى وشق طريقه بساعده وهمته إلى الحكم والرياسـة، ولـم تسـعفه في ذلك نشأة في بيت ملك، أوانقلاب عنيف([3]).

لقد وصل المنصور إلى مرتبة من السلطان والقوة لم يصل إليها أحد قبله من أعاظم أمراء الأنـدلس، ولعل الإسلام في شبه الجزيرة الإسبانية لم يظفر قط بمجاهد في بطولة المنصور وتفانيـه فـي الـذود عن دينه وإعلاء كلمته، ولعل الأندلس لم تر قط مثل المنصـور زعيماً أخلص فـي خدمتها، وكرّس جهوده ومواهبه في بناء قوتها وعظمتها وسحق عدوها وتحقيق أمنها ورخائها([4]).

ولعل الأندلس لم تر من قبل استقراراً كالذي رأتـه فـي عهـد المنصـور، ولـم تتمتـع قـط بمثـل مـا تمتعت بـه فـي عهـد المنصـور مـن الأمـن والطمأنينـة والدعـة، إنـه ـ بحقّ ـ أعظـم شخصـية سياسـية وعسكرية أتيح لها أن تحكم الأندلس، يقول ابن عذارى([5]): "فانتظمت لـه الممالـك،..وانتشـر الأمـن في كل طريـق، واستشـعر اليُمن فـي كل فريـق. وملـك الأنـدلس بضـعاً وعشـرين حجـة، ولـم تزخـر لمكروه بها لجّة؛ لبست فيها البهاء والإشراق،....وكانت أيامه أحمد أيام، وسهام بأسه أسدّ سهام.غزا شاتياً وصافياً،..حتّى استبدَّ وانفرد،...وانتظمت له الأندلس". يقول ابن دراج ([6]):

يـــا غيـــاثَ العِبَـــادِ إنْ بَخِـــلَ المُـــزْ نُ سَـــــقاهُمْ وبْـــــلاً ومـــــا اسْــــتَمطَرُوهُ

---

[1] ديوان ابن دراج القسطلي،الطبعة الأولى، تحقيق محمود علي مكي، دمشق : منشورات المكتب الإسلامي، ١٩٦١ : ٧.
[2] ديوان ابن دراج:٤٠٧
[3] أنظر عبقريته السياسية: تاريخ ابن خلدون، المجلد الأول: ١٥٣٩، ١٥٤٠.
[4] الحميدي، جذوة المقتبس :٧٠.وانظر:ابن عذارى، البيان المغرب، الجزء الثالث: ٢٩٨.
[5] ابن عذارى، البيان المغرب،الجزء الثاني: ٢٧٤.
[6] ديوان ابن دراج، :٤٢٩

والـــذي أَمَّـــنَ العِبَـــادَ ببـــيضٍ مُرْهَفَــــــاتٍ لِقَـــــاؤُهُنَّ كَرِيـــــهُ

و كانت وفاة الحاجب المنصور نقطة تحول حاسمة في تاريخ أندلس المسلمين؛ إذ انتهى بوفاته عصر القوة والزهو، وهو العصر الذي تتابع فيه على حكم الأندلس ثلاثة من أقوى الحكام وهم: عبد الرحمن الناصر والحكم المستنصر ثم الحاجب المنصور.

إن من عاش على شيء وداوم عليه فلابد أن يموت عليه، والمنصور قضى حياته كلها في الجهاد في سبيل الله فلا بد أن يموت مجاهداً، وقد كانت تلك أسمى أمانيه ،إذ كان يحمل أكفانه حيثما سار إلى غزوة،وهي أكفان صنعت من غزل بناته، واشتريت من خالص ماله الموروث، وقد استجاب الله دعاءه، فوافته المنية في ٢٧ رمضان سنة ٣٩٢هـ بمدينة "سالم" وهو منصرف من بعض غزواته، وقد لحقه الإعياء واشتد به المرض، فترك جواده وسار نحو أسبوعين محمولاً، فما كاد يصل مدينة "سالم" حتى شعر بدنو أجله فاستدعى ولده عبد الملك، وألقى إليه نصائحه الأخيرة، وفي ليلة الاثنين توفي - رحمه الله- ودفن بعد أن دفن معه غبار كل معاركه التي خاضها في سبيل الله، وكان يحتفظ بها طوال رحلته الجهادية الطويلة لأعدائه، وعمره يومئذ أربعة وستون عاماً([1])، وقد كُتب هذان البيتان من الشعر على قبره([2]):

آثـــــارهُ تُنبِيـــــكَ عَـــــنْ أَخْبَـــــارِهِ حَـــــتّى كَأَنّـــــكَ بالعَيـــــان تَـــــرَاهُ
تَـــــاللهِ لا يَـــــأتِي الزّمـــــانُ بِمْثِلِـــــه أبـــــداً ولا يحمـــــي الثّغُـــــورَ سِـــــواهُ

لقد كانت الجزالة والرجولة ثوبه الذي لم يخلعه إلى أن وصل إلى ربه، والحزم والحذر شعاره الذي لم يفارقه طول حياته، والنصب والسهر شأنه في يومه وليله، لا يفضل لذة على لذة تدبيره، وحلاوة نهيه وأمره([3]).

واستمر الحاجب المنصور يحكم دون منازع، يحقق الانتصار تلو الآخر على النصارى حتى أعطوا ولاءهم له، وقبل وفاته، عهد بمنصب الحجابة لابنه عبد الملك الذي تلقب بالمظفر بالله بعد وفاة أبيه ليلة الاثنين ٢٧ رمضان سنة ٣٩٢ هـ / سنة ١٠٠٢م ([4]) .

[1] الحميدي، جذوة المقتبس :٧٠.
[2] ابن الأبّار، الحلة السيراء: ١٥٦.
[3] المقري، نفح الطيب، المجلد الأول:٤٠٩.
[4] ابن الخطيب،لسان الدين، أعمال الأعلام في من بويع قبل الاحتلام من الملوك الأعلام ،الطبعة الثانية ، تحقيق ليفي برونفسال ، بيروت-لبنان ، دار المكشوف، ١٩٥٦ :٨٣.

لقد آثر الخليفة الناصر إضعاف العصبيّة العربية لحساب الصقالبة ([1]). بينما عمد المنصور بن أبي عامر كسابقيه من الأمراء الأمويين لإضعاف العصبييّة العربيّة ، وحتى يتسنى له ذلك لجأ إلى البربر، "وأذلّ قبائل الأندلس بإجازة البرابر، وأخمل بهم أولئك الأعلام الأكابر ، فإنه قاومهم بأضدادهم ، واستكثر من أعدادهم ، حتى تغلبوا على الجمهور وسلبوا عنهم الظهور"([2]) .

وباحتلال البربر مكان الصدارة في الدولة الأندلسية شيئاً فشيئاً لا سيّما عندما صاروا عماد الجيش، يضرب بهم في الداخل وفي مواجهة النصارى في الخارج ، بدأت القوى العربية- وهي عمود التوازن للدولة- يتخللها الضعف،وتدرك نوايا المنصور العامري.

ولم يمر تناوب الصدارة والتنافس بين العرب والبربر والصقالبة دون أن يترك أحقاده في القلوب ،وإن سعي المنصور لإضعاف العصبيّة العربيّة، وإيقاعه بصورة قاسية بخصومه السياسيين وأشياعهم،لن يمر أيضاً دون زيادة حجم الحقد والغلّ عليه، وعلى مرتكزات الحكم ومنتفعيه من البربروالصقالبة .

وعلى الرغم مما اتصف به المنصور من صفات وقدرات حققت للأندلس الأمن والنصر والمكاسب إلاّ أن حركة المعارضة السياسية في فترة الحجابة اشتدت وقويت،غيرأنَّ سياسة الاستبداد والقوة مكنت المنصور من القضاء على خصومه السياسيين والإطاحة بهم .ومن تلك المحاولات ما وصل إلى مسامع المنصور أنّ جماعة من الفقهاء والقضاة بقرطبة يبايعون سراً عبد الرحمن بن عبيد الله بن أمير المؤمنين الناصر،فقتل عبد الرحمن،وصلب عبد الملك بن منذر([3])،وبدّد شمل من اتهم ([4]).

و في عهد المظفر ظهرت محاولة جديدة للتخلص من الاستبداد العامري،وإحداث "انقلاب عسكري"يطيح بالخليفة هشام المؤيد ، وإسناد أمر الخلافة إلى هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر، بتدبير من وزير الدولة عيسى بن سعيد. إلا أن أنباء هذه المحاولة وصلت إلى المظفر قبل تنفيذها بوقت قصير،فباءت بالفشل ،ووئدت قبل تنفيذها،وقتل مدبروها([5]).

---

١ المقري، نفح الطيب، المجلد الأول:٤٠٦، ٤٠٥.
٢ ابن عذارى، البيان المغرب، الجزء الثاني: ٢٧٤. وانظر المقري، نفح الطيب، المجلد الأول:٤٠٥، ٤٠٦.
[3] من أشهر علماء المعتزلة في الأندلس ، وهو قاضٍ وابن منذر بن سعيد قاضي قضاة قرطبة .انظر: ابن حزم،طوق الحمامة:٦١.
[4] ابن حزم،طوق الحمامة:٦١.
[5] ابن عذارى، البيان المغرب، الجزء الثالث: ٣٠ وما بعدها.

وهذه الحادثة التي وقعت في عهد المنصور بن أبي عامر،أو تلك التي وقعت في عهد ابنه المظفر تشيران إلى أن فكرة الخلاص من القبضة الحديدية التي يمارسها العامريون مع خصومهم السياسيين ،كانت موجودة قبل"الانقلاب العسكري" الذي نفذه بنجاح محمد بن هشام بن عبد الجبار لاسترداد الحكم الأموي(٣٩٩هـ/ 1009م) .

وقد أخرست سياسة "القبضة الحديدية" السنة الشعراء عن النقد في العلن ، مما اضطرّ الشعراء إلى إخفاء أسمائهم، والتعبير عن تلك الأفكار المعارضة تحت ستار من الخوف والرهبة،ولذا تتداول الأشعار بالخفاء فلا يعرف قائلها،ولربما وردت على اسم الخليفة نفسه؛لتبيّن عجز الخليفة، وتسلط المنصور عليه،ومن هذه الأشعار([1]):

أَلَيْسَ مِنْ العَجَائِبِ أنَّ مِثْلي ... يَرَى مَا قَلَّ مُمْتَنِعاً عَليهِ

وتُمْلَكُ باسْمِهِ الدُّنْيا جَميعاً ... ومَا فِي ذاكَ شيءٌ في يَدَيْهِ

لقد رأى بعضهم المنصور العامري غاصبًا للسلطة من الخليفة الشرعي ، وما جرأته وطموحه فيما قام به من حجر ضد هشام المؤيد إلا مرحلة أولى للاستيلاء على الحكم من عائلة بني أمية ، وما قام به من حجب للخليفة وإحاطته به وتفرده بالقصر إلا خطوة نحو السيطرة المطلقة على الخلافة ، وهذا ما أراد تنفيذه عقبه شَنْجُول([2]).ولذلك أمعن المنصور في زيادة الخناق على خصومه السياسيين، وعلى الخليفة نفسه، "فحجر على هشام المؤيد،..وأخذ في قتل من يخشى منه من بني أمية خوفا أن يثور به، ويُظهر أنّه يفعل ذلك شفقة على المؤيد، حتى أفنى من يصلح منهم للولاية ،ثم فرق باقيهم في البلاد، وأدخلهم في زوايا الخمول"([3]).

و بدأت هذه الأفكار تتداول بين الناس، وتصدر على السنة الشعراء، وقد عبر إبراهيم بن إدريس([4]) عن هذا القلق الأموي وهذه الحيرة من أشياعهم- وهم الأكثرية- بقوله ([5]):

[1] ابن عذارى، البيان المغرب، الجزء الثاني:٢٨٠.
[2] عبد الرحمن بن محمد العامري،ولي الحجابة بعد وفاة أخيه المظفر ،أما لقب شَنْجُول اسم غلب عليه من قبل أمّه عبدة بنت الملك شانجة النصراني، كانت تدعوه به في صغره تذكّراً لأبيها، وبسبب أطماعه في الخلافة قامت الفتنة الكبرى في الأندلس،ولم تدم حجابته أكثر من أربعة أشهر حيث ثار عليه و قتله محمد بن هشام بن عبد الجبار الأموي.انظر سيرته: ابن عذارى ، البيان المغرب،الجز الثالث٣٨-٥٦ .
[3] المقري، نفح الطيب، المجلد الأول:٥٩١.
[4] إبراهيم بن إدريس العلوي الحسني، عاشر المنصور بن أبي عامر وعاش أيام الفتنة، وكان يحقد على المنصور لغدره بحسن بن قنون كبير عائلة الأدارسة الذين يصل نسبهم إلى الحسن بن علي رضي الله عنهما .أنظر ترجمته: الحميدي، جذوة المقتبس: ١٣٣ .
[5] ابن عذارى، البيان المغرب، الجزء الثاني:٢٨١.

فِيمـــا أرى عَجــبٌ لِمَـــنْ يَتَعَجـــــــبُ   جَلّـــتْ مُصــــيَبَتُنَا وَضَـــاقَ المَـــذْهَبُ
إنِّـــي لأكــذِّبُ مُقْلَتَــيَّ فِــي مَـــــا أرَى   حَتّـــى أقُــولَ غَلِطــتُ فِــي مَــا أحْسَــبُ

و لا يحاول الشاعر أن يخفى حقده على المنصور،فتراه يظهره في صورة قبيحة، وفي ما فيه من تنديد به وتحريض عليه:

أيكـــونُ حيَّـــاً مـــن أميّـــة وَاحـــدٌ   ويسُوسُ ضخمَ المُلكِ هذا الأحْدَبُ
تَمْشِـــي عَســـاكِرُهُمْ حَـــوَالَيْ هَـــوْدَجٍ   أعْـــوادُهُ فِـــيهنّ قِـــرْدٌ أشْـــهَبُ
أبَنـــي أميّـــة أيْـــنَ أقمـــارُ الـــدُّجَى   مِـــنْكُمْ ، وَمَـــا لِوجُوهِهِـــا تَتَغيّـــبُ ؟

و يستشعر الشاعر غياب هيبة الحكام الأمويين، لذلك تطاول عليهم من هو دونهم، بذكائه ودهائه، منتقياً لفظة الثعلب ذات الدلالة في الإرث العربي؛ لما تمثله صورة الثعلب من معاني المكر والخديعة، يقول ([1]):

غَابَـــتْ أســـودٌ مِـــنْكُم عَـــنْ غَابِهـــا   فَلِـــذاكَ حَـــازَ المُلْـــكَ هَـــذا الثعْلَـــبُ

و لم يزل أعداء المنصور بن أبي عامر يتربصون به الدوائر، ويهمسون الشعر هجاءً مقذعاً، ويهجون الدولة جميعا([2]):

اقْتَــــرَبَ الوعِـــدُ وحَـــانَ الهَـــلاكْ   وكُـــلُّ مَـــا تَحْـــذَرهُ قَـــدْ أتَـــاكْ
خَليفــــةٌ يَلْعَـــبُ فـــي مَكْـــــتَبٍ   وأمُّـــــه حُبْلَـــــى وقَـــــاضٍ ....([3])

يريد بذلك ما رميت به صبح البشكنسية أم الخليفة من ميل إلى المنصور.والهجاء يطال قاضي الخليفة محمد بن إسحاق بن السليم(٤). ويتألم بعضهم من تصورهم للأوضاع السيئة، فيصدح لسان لسان شعرهم بالألم لقسوة السجن وشدة التعذيب(٥)، وانظر إلى قول الشاعر(٦):

أوَّاهُ أوَّاهُ وكَـــــــــــــــــــــمْ ذا أرَى   أكْثِـــــرُ مـــــــنْ تـــذكار أوّاهِ
مَـــــالا مـــــريءٍ حَـــــوْلٌ ولا قُـــــوّةٌ   الحـــــَـــــولُ والـــــــقُوَةُ لله

---

[1] المقري، نفح الطيب،المجلد الأول:٥٩١
[2] المصدر نفسه:٦٠٢
[3] مكان النقط كلمة فاحشة تعرف من السياق.
[4] ابن الخطيب،أعمال الأعلام:٤٨ وكان ابن السليم،قاضي القضاة على عهد الحكم وصدراً من دولة ولده
[5] العاملي، ابن سماك ،الزهرات المنثورة،مدريد:مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية ٨١-٨٢ ،عدد ٢١،،دراسة وتحقيق وتقديم محمود علي مكي: ١٢
[6] المقري، نفح الطيب،المجلد الأول:٤١٨.

وقد لازم المنصور سياسة الحدة والعنف مع كل من يعترض طريقه في الوصول إلى سدة الحكم، بما فيهم أولئك الذين عبرهم في طريقه إلى الحجابة،فهذا الحاجب جعفر بن عثمان المصحفي كان سبباً في وصول المنصور إلى القصر يقربه، ويدنيه ويتآمر معه في إزاحة خصومه،لكن ما إن خلت الطريق للمنصور حتى ينكب المصحفي، ويزج به في السجن، فيستعطفه المصحفي،يقول([1]):

هَبْنِي أسَأتُ فَأيْنَ العفوُّ والكرمُ … إذْ قَادني نَحْوك الإذعانُ والنّدمُ

يا خَيْرَ مَنْ مُدّتْ الأيدي إليْه أمَا … تَرْثِي لِشَيْخٍ رَمَاهُ عِنْدكَ القلمُ

بَالَغتَ في السُخْطِ فَاصْفَحْ صَفحَ مقتدرٍ … إنّ المُلوكَ إذا مَا اسْتُرْحِمُوا رَحموا

هذا الاستعطاف لا يجد سبيله إلى تحريك عواطف الرحمة لدى المنصور،بل يزيده نقمة، و يتمثل له بأبيات من الشعر ([2]):

الآن يا جاهلاً زلّت بكَ القَدَمُ … تبغي التكرُّمَ لمّا فاتَكَ الكَرَمُ

أغْرَيْتَ بي مَلِكاً لولا تثبّتُه … ما جاز لي عنْدَهُ نطقٌ ولا كلمُ

فايأسْ مِنْ العَيش إذْ قَدْ صِرتَ … إنّ المُلوكَ إذا مَا اُسْتنقموا نَقَموا

نَفْسِي إذا سَخِطتْ ليْستْ براضيةٍ … ولو تشفّعَ فيك العُرْبُ والعَجَمُ

و ما كاد المظفر عبد الملك بن أبي عامر يقبض على زمام الأمور حتى واصل حكم الأندلس باسم الخليفة هشام المؤيد بالله على سيرة أبيه المنصور، فاحتفظ بالسلطة الفعليّة تاركا السلطة الروحية الاسمية للخليفة المحجور عليه([3])،و صرف همّه من جديد إلى تحقيق السيادة بالغزو المتواصل، والقبضة الحديدية في الداخل.

---

[1] المصدر نفسه:٤٠٨،٤٠٧. وهذه الأبيات كما أفاد ابن الأبّار متنازع في نسبتها، فمنهم من ينسبها للمصحفي،ومنهم من ينسبها لابن دراج،ومنهم من ينسبها للكاتب محمد بن حيون المعروف بابن البريدي كاتب ابراهيم بن أحمد بن الأغلب كما أورد محقق نفح الطيب.وأنظر :ابن الأبّار:الحلة السيراء:١٥٢

[2] المقري، نفح الطيب، المجلد الأول:٤٠٨.وانظر : ابن الأبّار ،الحلة السيراء:١٥٢،حيث ردّ الأبيات لعبد الملك بن إدريس الجزيري،رغم إشارته من عدم تيقنه مما ذهب إليه.فقال:"ويقال إنّ الأبيات للمنصور بن أبي عامر

[3] تاريخ ابن خلدون، المجلد الأول : ١٥٤٠.

إلا أن فترة حكمه لم تتعد سنوات سبعا ، وبعد وفاته سنة ٣٩٩ هـ/ ١٠٠٩م خلفه أخوه عبد الرحمن بن أبي عامر الملقب بشنجول وهو في الخامسة والعشرين من عمره ، هذا الأخير الذي لم يكن يتمتع بالصفات التي كان يتمتع بها أبوه وأخوه من قبل في حسن تدبير الأمور(١).

ولهذه الأسباب مجتمعة أرى أنّ نواة الانقسام الذي تم بعد الفتنة البربرية كانت موجودة في تكوين الدولة نفسها، ولئن استطاع الناصر أن يحقق للدولة شيئاً من النصر في الداخل والخارج، وأن ينعم ابنه الحكم بثمرات السلم، وينصرف إلى الاهتمام بالعلوم، إلاّ أنها ظلت عرضة للسقوط في أي لحظة.

أردت في هذا المبحث الربط بين جذور الفتنة: أسبابها ومقدماتها، حتى إذا ما انتقلنا إلى المبحث الثاني، تناولت فيه أحداث الفتنة، مما يسهل معه الربط بين المقدمة والأسباب، ثم النتائج، من خلال البيت الشعري بالدرجة الأولى ثم المصدر التاريخي ثانياً.

---
١ المقري، نفح الطيب، المجلد الأول:٤٢٧.

المبحث الثاني: أحداث الفتنة

جرى عبد الرحمن بن المنصور على سنة أبيه وأخيه في الحجر على الخليفة هشام المؤيد بالله، ولم يمض طويلاً على تولّيه الحجابة، حتى طلب من الخليفة أن يعطيه ألقابا سلطانية لم تكن لأبيه و لا لأخيه من قبل، فما كان من الخليفة المغلوب على أمره إلا أن أعطاه لقب المأمون، ثم ناصر الدولة، ولم يمض من تسلمه للحجابة شهر ونصف حتى أسند الخليفة إليه ولاية العهد من بعده([1]).

بعده([1]).

لقد كان لهذه الحادثة تأثيرها الحاد على مجرى الأحداث في الأندلس، فأهل قرطبة عدّوا ذلك أكبر محنة، إلى درجة أن عزّى بعضهم بعضا([2])، ولم تمر هذه الحادثة ، دون أن تثير حفيظة الأندلسيين؛ إذ إنّ رضوخ الفقهاء لرغبة عبد الرحمن الناصر شنجول في كتابة العهد أمر في غاية المعارضة والرفض، مما حدا بالناس إلى التعبير عن هذا الاستياء فكان للشعراء من ذلك نصيب. فهذا ابن أبي يزيد المصري ([3])، يقول ([4]):

إنَّ ابن ذَكْوان وابن بُرْدِ قَــــدْ نَاقَضَــــا الــــدينَ بَعْــــدَ عَمْـــدِ([5])
وَعَانَــــــدا الْحَــــــقَّ إِذْ أَقَامَــــــا حَفَيــــدَ "شَـــــنْجِهِ" وَلِـــــيَّ عَهْــــدِ

والشعر على ألسنة شعراء الحجابة العامرية يرى في حدث تولية عبد الرحمن بن المنصور العامري حدثاً جديراً بالتأريخ والإشادة، فتسارع الشعراء إلى تسجيله،ومن الشعر الذي قيل في هذه المناسبة قصيدة أنشدها قاسم بن محمد القرشي([6]). يقول([7]):

لَقَــدْ وَفَّــقَ اللهُ الإمــامَ الْمؤيّــدا وألهَمَــهُ للحَــقِّ فِيـكَ وَأرْشَــدا
فقلّــدكَ العَهْــدَ الــذي مــدَّ عَقْــدَه لــك اللهُ منــه فــي الرِقَــابِ وَأكَّــدا

---

[1] ابن عذارى، البيان المغرب، الجزء الثالث:٣٨

٢ ابن الأبّار، الحلة السيراء: ١٥٥ .

[3] هو أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد بن أبي يزيد الأزدي، مصري الأصل والنشأة، قدم قرطبة تاجراً وأقام فيها، واضطلع بالتدريس، فعظمت منزلته،واتسعت حلقته واتسعت، وتكاثر الطلاب عليه، وكان ابن حزم أحد طلابه.ترك قرطبة،عندما اقتحم البرابرة قرطبة،عائدا إلى مصر،توفي عام ٤١٠ هـ. انظر ترجمته: ابن بشكوال، الصلة،المجلد الأول:٣٦٤ .

٤ ابن الأبّار، الحلة السيراء: ١٥٥ .

[5] ابن ذَكْوان:هو أبو العباس أحمد بن عبد الله قاضي قضاة الأندلس،ولما قامت الفتنة نفي وأهله إلى المرية فوهران،ثم عاد فاعتزل الناس،وتوفي ٤١٣هـ. وقد كان في الطبقة الأولى ممن شهد كتاب تولية العهد لعبد الرحمن شنجول من الخليفة هشام المؤيد ابن عذارى، البيان المغرب، الجزء الثالث:٥٦ . وابن بُرْدِ:هو أحمد أبو حفص:وزير وكاتب وشاعر،وكان مقدما في عهد الدولة العامرية،توفي ٤١٨هـ . قام بإنشاء كتاب ولاية العهد من الخليفة هشام المؤيد لعبد الرحمن شنجول

[6] هو قاسم بن محمد القرشي المرواني المعروف بالشبانسي شاعر أديب في الدولة العامرية انظر ترجمته:الحميدي،الجذوة:٢٩٧.

[7] ابن الخطيب، أعمال الأعلام:٩٥.

ويصرح بحتمية الخلافة، ووصولها إليه، متجاهلاً سمع الخليفة:

تَقلّـــدْهُ وأبْشِـــرْ بالخِلافَـــةِ بَعْـــدَهُ وَذَوّقْ ذوي الغِـــلِّ الحُسَـــامَ المُهَنَّـــدا

ويسعى لإقناع الناس بما يتردد على السنة أعوان العامريين من أن قحطانيا تؤول الخلافة إليه كما حدث بذلك الرسول عليه الصلاة والسلام ، ويتابع القول:

فأنــتَ الــذي جــاءَتْ بِــهِ النُّــذُرُ التــي أتــى الأثــر المــرويُّ فِـــيهَا مُــرَدّدِا

وأنْــتَ أمِــينُ اللهِ مهــديُّ يَعْــرُبٍ بــن قَحْطَــانَ فِيهــا طِبْــتَ نَفْسَــاً ومَـــحْتِدا

وقد أورد أبو حفص بن برد في كتاب العهد بالخلافة باسم الخليفة هشام المؤيد لعبد الرحمن بن محمد بن أبي عامر الحديث الذي رواه عبد الله بن عمرو بن العاص وأبو هريرة أن النبي عليه الصلاة والسلام قال:"لا تقوم الساعة حتى يخرج رجل من قحطان يسوق الناس بعصاه"([1]).

ومن الشعر الذي قيل في هذه المناسبة قصيدة مولى بني مروان كاتب الرسائل، فهو يسوق الأبيات التالية وكأنه وزير إعلام ، يتحدث عن مسوغات إسناد ولاية العهد لعبد الرحمن بن أبي عامر ،وعلى لسان حال الخليفة المؤيد ،يقول([2]):

أمســى يفــتّشُ قوْمَــهُ وعَشِــيرَه شُــحّاً عليهــا والحمــيمَ الألصَـــقَا([3])
ورجــا بــأن يُلفــي إذا مــا فتــشوا فــي عَبْــدِ شَــمْسٍ للخلافــة مَعْلَـــقَا
فــرآهم مُتَخَلِّفِــينَ عــن العُـــلا لا يصــلحون لأن يسُوسُــوا جَرْدَقَــا([4])
فرمــى إلــى المــأمون أمــرَ جَمِــيعِهِمِ إذْ لــمْ يَــزَلْ حَــدباً عليهــا مُشْــفِقَا

ويميل أبو منصور زيادة الله الطبنيّ([5]) إلى المبالغة في النفاق السياسي بهذه المناسبة، ويمدح ولي العهد الجديد بالتقوى والورع، خلاف السيرة التي اشتهر بها عبد الرحمن شنجول ، مما يؤكد فرضيّة المدح الزائف، فهو لا يعبر عن حقيقة ماثلة، ولا يصور الخليفة نفسه بهذه الصفات المبنية على حكمة تمتع بها هشام المستضعف.يقول([6]):

مَلِــكٌ تَــرى نُــورَ الهــدى بِجَبِــينهِ مُتَبلِّجَــاً وَسَــنى التَّقــى مُتألِّقَـــا

زَانَ المَغَــارِبَ فــي ولايــةِ عَهْــدِهِ بــالبِرِّ والتَّقْــوى فَشَــاقَ الْمَشْــرِقَا

---

[1] المقري، نفح الطيب، المجلد الأول:٤٢٥.
[2] ابن الخطيب، أعمال الإعلام:٩٦.
[3] هكذا وردت في الأصل،وهو مكسور،ولعلّ الصواب: أمسى يفتّشُ قوْمةً وعشيرةً ليستقيم الوزن
[4] جَرْدَقَ: رغيف الخبز،معرب من الفارسية،ابن منظور لسان العرب.
[5] أديب وشاعر مكثر ، من شعراء الدولة العامرية. أنظر ترجمته: الحميدي،جذوة المقتبس:١٩٤
[6] ابن الخطيب، أعمال الأعلام:٩٥.

لَــوْ أنَّ مَكَّـــةَ تسَـــتَطِيعُ زِيَـــــارَةً   لأتَـــتْ إلَيْـــهِ مَـــودّةً وَتَشوُّقـــــــــا

ومن هنا بدأت فصول الفتنة القرطبية التي أسقطت العامريين وأبعدتهم عن الحكم، وأدخلت الأندلس في دوامة من الأحداث الدامية، واشرأبّت الميول الانفصالية من جديد .

لقد كانت البداية عندما خرج عبد الرحمن بن المنصور إلى الثغور الشمالية غازياً في جمادى الأولى(٣٩٩هـ/ 1009م) عندما وصلت إلى قرطبة أخبار عبور عبد الرحمن شنجول وجيوشه أراضي العدو وبدء حربه معهم، قام أموي يدعى محمد بن هشام بن عبد الجبار، تتبعه العامة في قرطبة، بالثورة على الخليفة هشام المؤيد بالله فخلعه، ونصّب نفسه خليفة بعد أن تلقب بالمهدي، وهو لقب لم يلبسه مروانيّ قبله، وتم ذلك في جمادى الآخرة سنة(٣٩٩ هـ/ 1009 م)([1]).

وفي هذه الأثناء وعندما علم عبد الرحمن بن المنصور بما حدث في قرطبة، رجع يطوي المسافات، إلا أن جنوده انفضوا من حوله شيئاً فشيئاً، وعندما اقترب من قرطبة أرسل إليه المهدي من قتله، واحتز رأسه،وحمله إليه، وكان ذلك في اليوم الثالث من رجب سنة(٣٩٩ هـ / ١٠٠٩م)، وبمقتل شنجول انتهت الدولة العامرية التي حكمت الأندلس فترة تزيد على ثلاثين سنة([2]).

لقد جاءت الفتنة وقد كانت الدولة في أوج قوتها وأزهى عصورها، وبلغت قوة العرب في الأندلس الذروة؛ إذ إنّ عهد الخليفة الناصر وابنه الحكم، ثم عهد الحاجب المنصور قد خلق صورة كاملة لعظمة الدولة وهيبتها.

حين ذاك كان الشعراء في عصر الحاجب المنصور بن أبي عامر وابنه المظفر، يجدون البيئة الخصبة للشعر،الحاكم المهيب المقدر للشعر والأدب وأهله ،وصورة الفارس القادر على تحقيق النصر تلو النصر على القوات المسيحية الطامحة في الشمال،فنكّل بها وأفزعها ،وأرغمها على الاستكانة والدعة.

وجاءت الفتنة على حين غرة من الشعراء ،وتسللت إلى عقولهم وأكبادهم ،غير مصدقين لطول أمدها،آملين منها الرحيل المسرع ،ولذلك التف عدد منهم إلى المهدي الحاكم الجديد ، وقد أعلن ثورته وأخذ بثأره من عبد الرحمن بن محمد العامري؛ لقتل المظفر العامري أباه، ووسم نفسه بالخليفة.

---

١ ابن الخطيب، أعمال الأعلام:١١١

٢ ابن عذارى، البيان المغرب، الجزء الثالث:٧٢.

ويواكب الشعر نجاح ثورة المهدي محمد هشام بن عبد الجبار ،ولا يرى ابن دراج في انقضاء الدولة العامرية التي سجل فيها أبدع قصائده مدحاً في المنصور بن أبي عامر وولده عبد الملك الملقب بالمظفر،ما يمنعه عن مدح هذا الثائر؛ لمقتل والده هشام على يد عبد الملك بن المنصور لاتهامه بالتدبير على دولته([1])،فهذا ابن دراج يهنّئه بنجاح ثورته قائلاً([2]) :

قُـلْ للخِلافَـةِ قَـدْ بَلغْـتِ مُـــــنَاكِ ورأيْـــتِ مـــا قَـــرّتْ بِـــهِ عَيْنَـــــــاكِ
مَهْـــديٌّ أمـــةِ أحْمَـــد وكريـــــــمُها وحَليمُهـــا يـــأوي إلـــى مَـــــــأواكِ
وسَـــــليلُ نَفْـــسِ أمامِهَـــا وشَهيدِهـــا قَمَرَيْـــك فـــي الـــدنيا ومـــا قمـــــراكِ
هـــذا تَعَجّـــلَ مِـــنْ كَرَامـــةِ رَبِّـــــــهِ فـــي الخُلْـــدِ مثـــوى جـــلَّ عـــنْ مَثْـــواكِ
ودَعَـــوْتِ :يـــا ثاراتـــه فَمُحَمّـــــــدٌ بالســــــيّفِ أولَ ســــــامعٍ لبْـــــــــــاكِ

ويرى الشاعر أنّ المهدي لم يحصل على الخلافة مصادفة ،أو أنّ القدر ساقها إليه دون عناء ، بل يشير إلى تطلع المهدي إليها ،ورغبته في الحصول عليها بعزيمة وشكيمة ، معرضاً بشنجول واصفاً إيّاه بالداء:

وَلكَـمْ شَـجَاهُ مِنْـكِ فـي جُـنْحِ الـدُّجَى إعـــوالُ مَحْـــزونٍ وزَفْـــرَةُ بَـــاكِ
حتَّـى تلافـى مـا دَهَـاكِ بِعَزْمَـــةٍ لَـــمْ يُعْيِهـــا الـــداءُ الـــذي أعْيَـــاكِ

بدايةً فرح القرطبيون كثيراً بهذه الثورة وما أحدثته من تغييرات([3])، بل وساهموا في نهب القصور، وسبي الجواري مع الثوار، وإلى هذا الحد كان الوضع سيستقر، لولا أن محمد بن هشام المهدي قام بإهانة البربر الذين انضموا إليه بعد أن انفضوا عن عبد الرحمن بن المنصور، ففضّل عليهم العامة والغوغاء واللصوص والمساجين الذين أخرجهم من السجون، فتمادوا في النهب والسبي إلى منازل البربر، فهتكوا حرماتهم واستباحوا أموالهم على أنهم المسئولون عن تغلب العامريين عليهم([4]).

وأدى هذا الوضع بالبربر إلى التكتل للدفاع عن أنفسهم، فالتفوا حول أحد الأمويين،وهو هشام ابن سليمان بن الناصر تلقب بالرشيد، ثمّ قاموا معه بثورة على الخليفة الجديد المهدي، لكن المهدي استطاع القضاء عليها،وتمكن من قتل الرشيد([5]).

[1] ابن الخطيب ،أعلام الأعلام:١٠٩
[2] ديوان ابن دراج : ٥١،٥٠
[3] ابن عذارى، البيان المغرب، الجزء الثالث:٧٤.
٤ تاريخ ابن خلدون، المجلد الأول: ١٥٤٢.
٥ الحميدي ،جذوة المقتبس :٢٢.

عاد البربر مرة أخرى إلى التجمع، فالتفوا في شوال من سنة (399 هـ/ سنة ١٠٠٩م) حول أموي آخر هو سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر، و بايعوه بالخلافة ،ولقبوه بالمستعين بالله.وللقيام بجولة جديدة مع المهدي استعانوا هذه المرة بالملك القشتالي شَانْجُه بن غَرْسِيَة، والذي لم يتردد بدوره في مساعدتهم؛ إذ تلك فرصته ليقتصّ من المسلمين ([1]).وعلى إثر ذلك توجه البربر والنصارى لقتال الأندلسيين ، فخرج لهم جيش محمد بن هشام المهدي ، فدارت بين الفريقين معركة" قُنْتِيش "([2]) التي انهزم فيها المهدي هزيمة كبيرة،وقتل من الأندلسيين "ما يزيد على عشرين الفا ،وهلك من خيار الناس وأئمة المساجد وسدنتها ومؤذنيها عالم" ([3])،و دخل المستعين قصر قرطبة في السابع من ربيع الأول سنة (٤٠٠ هـ/ ١٠١٠م)([4])، فبايعه الناس بالخلافة، ولقب بالظافر بحول الله.

ويصف ابن حيان فداحة خسائر الأندلسيين بهذه المعركة([5]):-" ووضع البرابرة والنصارى السيوف عليهم؛ فقتل في هذه الوقعة عالم، وأبادوا أمة....ومال النصارى يومئذ على المنهزمين، فقتلوا منهم في صعيد واحد ثلاثة الآف رجل ونيّف.....وأصيب في تلك الوقعة من المؤدبين خاصة ستّون ونيّف، أعريت سقائفهم في غداة واحدة منهم،وتعطل صبيانهم لعدمهم،وأصيب فيها زربوط الطنبوري ....وهلك في تلك الوقعة أخلاط من الناس ..و من كل طبقة أخذت وقعة قنتيش حتى من أهل الباطل ، فإنها ألصقت بالصميم في قتل قنبوط الملهي، وزربوط المغني ونمطهما". ويروي ابن دراج مجريات المعارك ويحدد مواقعها ([6]):

واسْتَوْدَعُوا جَنْبَي "شَرَنْبةَ وَقْعَةً	هَدَّ الجِبَالِ الرَاسياتِ وَئِيدُها
وشِعَابُ "قُنْتِيشٍ" وقَدْ حَشَرَتْ لَهُمْ	أَمَمٌ بُغَاةٌ لا يُكَتُّ عَدِيدُهَا
فَكَأَنَّمَا مَرِضَتْ قُلُوبُهُمُ لَهُمْ	غِلاً فَجَاؤُا بالرِمَاحِ تَعُودُهَا
تَرَكُوا بها ظَهْرَ الصَّعِيدِ وقَدْ غَدَا	بَطْنَاً وأَجْسَادُ الغُوَاةِ صَعِيدُهَا

ويجنح الشعراء بولاء سياسي طارئ تدفعه الحاجة والمنفعة ،فيتخندق الشعراء بمدحهم بلسان الحزب الذي يتزعم زمام السلطة ،وتكون له الغلبة، ، فلمّا استوى الأمر بقرطبة لسليمان ،"تعرض

[1] تاريخ ابن خلدون ، المجلد الأول : ١٥٤١
[2] قُنْتِيش:هو المكان الذي دارت فيه المعركة الشديدة التي تحمل هذا الاسم، ويقع بالقرب من قرطبة: ابن بسام، الذخيرة في محاسن الجزيرة، القسم الأول، المجلد الأول:٤٣
٣ ابن عذارى، البيان المغرب، الجزء الثالث:٩٦.
[4] ابن الخطيب، أعمال الأعمال:١١٤.
٥ ابن بسام، الذخيرة في محاسن الجزيرة، القسم الأول، المجلد الأول:٤٣،٤٤
[6] ديوان ابن دراج:٦٣

لمدحه من كان ثوى بقرطبة يومئذ من بقية الشعراء العامريين رجاء في ثمد نواله ، فصاغوا في مديحه أشعارا حسنة استذموا فيها إلى الدين والمروءة"([1]).

ورؤية الشعر القائم على مدح السلطة تختلف تماماً عن الشعر الموجه للعامة، وغايته مختلفتان، فهذا ابن دراج انكفأ عن المهدي المغلوب ،ونطق بلسان المستعين وحزبه البربري يصور مشاهد القتال في تلك المعارك التي خاضوها مع الحزب الأندلسي الذي تزعمه المهدي،فبالأمس يهنئ الخلافة بالمهدي، ويصفه بحامي الدين المنافح عن بيضته ، وهو اليوم يصوره بقعيد الشرك منتصر به ؛ليلفت الأنظار إلى الصورة المقابلة من الإيمان التي تتمثل بممدوحه الجديد، حتى يتراءى للسامع أنّ المعركة الواقعة بين المسلمين والكفار ،لا بين فريقين مسلمين متنازعين على السلطة، يقول([2]) :

هَنِيئْاً لهذا الدَّهْرِ رَوْحٌ وَرَيْحَانُ ... وللدّينِ والدّنيا أمانٌ وإيمَانُ

بأنَّ قعيدَ الشِّركِ قَدْ ثُلَّ عَرْشُهُ ... وأنَّ أميرَ المُؤمِنين سُلَيْمانُ

ويشيد الشاعر بدور البربر في نصر المستعين . يقول:

بِكُلِّ زَنَاتِيّ كَأنَّ حُسَامَهُ ... وَهَامَةَ مَنْ لاقاه نَارٌ وقُرْبَانُ

وأبْيَضَ صِنْهَاجٍ كَأنَّ سِنَانَهُ ... شِهَابٌ إذَا أهْوى لِقِرْنٍ وَشَيْطَانُ

و قضية الصراع القائم بين الإيمان والكفر هي محور القصيدة ؛لذلك يبرزها ابن دراج من خلال مجموعة من المقابلات. يقول([3]):

ولَوْلاَكَ والبِيضُ التي نَهَدُوا بِهَا ... لَمَا قَامَ للإسْلامِ فِي الأرْضِ سُلْطَانُ

ولاسْتَبْدَلَتْ قَرْعَ النَواقِيس بالضُّحى ... مَنَارٌ وقَامَتْ فِي المَحَارِيبِ صُلْبَانُ

وفي خضم هذه الأحداث الدامية يستشعر ابن دراج أهميّة نعمة الأمن التي غدت مفقودة،لذا يحرص على تذكير المستعين بها، ويمتدحه بصفتي الصفح والعفو، وهما سبيل تلك النعمة ، يقول:

وَرَدَّ جِمَاحُ الغيِّ مِن غَرْبِ شَأوِهِ ... وبُرِّدَ قَلْبٌ بالحفيظَةِ حَرَّانُ

وقد أمِنَ التَّثريبَ إخوةُ يُوسُفٍ ... وأدْرَكَهُمْ لله عفوٌ وغُفْرانُ([4])

---

[1] ابن بسام، الذخيرة في محاسن الجزيرة، القسم الأول، المجلد الأول:٦٧

[2] ديوان ابن دراج : ٥٤.

[3] المصدر نفسه : ٥٨.

[4] إشارة إلى عفو سيدنا يوسف عليه السلام عن أخوانه:الآية٩٢ من سورة يوسف * قَالَ لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ

فهنا يشير إلى عفو وصفح سيدنا يوسف عليه السلام – عن أخوانه مع ظلمهم له ومقدرته عليهم، فأراد المشابهة بين صفح النبي يوسف والمستعين، ويدعو للوحدة بين صفوف القوم؛ لرابطة الإسلام الجامعة بينهم:

وأَعْقَبَ طُولُ الْحَربِ أَبْنَاءَ " قَيْلَةٍ"([1]) زَكَاةً وَرُحْمَاً فيه أَمْنٌ وإيمَانُ

قام في هذه الأثناء المهدي بالفرار إلى طليطلة، واستعان بحاكم برشلونة النصراني ريموند بوريل الثالث وأخيه أرمنجول (أرمنقد)،" فأحكم له واضح العقد مع الفرنج، على أن يخرج لهم عن مدينة سالم، التي دفن فيها المنصور وهو قافل من إحدى غزواته، بعد أن استشهد فيها متأثرا بجراح أصابته. كما شمل الاتفاق تقديم النفقة والمال للقوات النصرانية مقابل مشاركتهم في القتال ضد المستعين ([2]).

استعد كل فريق لهذا اللقاء، فكانت المواجهة في منتصف شوال من سنة (٤٠٠هـ/ ١٠١٠م)، في معركة عقبة البقر([3])، فكان النصر في هذه المعركة حليف المهدي ومن معه من النصارى، فحقق المهدي النصر، ودخل قرطبة ليعلن تجديد خلافته الثانية([4])، على الرغم من مقتل حليفه الكونت "أَرْمَقند" قائد القوات النصرانية المساندة له، وقد صرح ابن دراج- في معرض مدح المستعين وجنده البربر- بمقتل"أَرْمَقند" وحشده ،رغم ما كانوا عليه من عدة وعتاد ([5]):

وكتائبُ الإفْرَنْجِ إذْ كَادَتْكَ في أشْيَاعِها واللهُ عَنْكَ يَكيدُها
بِسَوابحٍ في ُلجِ بَحْرِ سَوَابِغٍ فَاضَتْ عَلى الأرْضِ الفَضَاءِ مُدُودُهَا
ولقد أَضَافُوا نسرَها وغُرَابَها وقِرَاهُما طاغوتُها وعَمِيدُها
شلْوٌ "الأرمنقودهَا" حُشِرَتْ به للزِّحفِ ثمَّ إلى الجَحِيمِ حُشُودُهَا

تناسى ابن دراج أن ما فعله المهدي من الاستعانة بالنصارى هو ما فعله المستعين قبله في معركة قنتيش، وبذلك رجع المهدي إلى منصب الخلافة، بعد أن انسحب البربر إلى الجنوب حيث الجزيرة الخضراء، بغية تدبير أمرهم، وانتظار المدد من إخوانهم في العدوة المغربية([6]).

يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ * .
[1] أبناء قيلة هما الأوس والخزرج ،وقيلة بنت كاهل هي أمهم التي يلتقي نسبهما فيها .
[2] ابن الخطيب، أعمال الأعلام:١١٤
[3] عقبة البقر هو اسم موضع يقع بالقرب من قرطبة جرت فيه المعركة الثانية بين حزب المهدي وحزب سليمان المستعين(٤٠٠هـ/١٠١٠م). الذهبيى،محمد بن أحمد،سير أعلام النبلاء،مؤسسة الرسالة،الجزء السابع عشر:٢٨٤ .
[4] تاريخ ابن خلدون ، المجلد الأول:١٥٤٢.
[5] ديوان ابن دراج: ٦٤ .
٦ المقري،نفح الطيب،المجلد الأول:٤٢٨ و انظر تاريخ ابن خلدون ، المجلد الأول :١٥٤٢ .

وقرر المهدي بعد دخول قرطبة مباشرة مطاردة البربر قبل تنظيم صفوفهم، فجمع الأموال، وحشد كل قادر على حمل السلاح، إضافة إلى النصارى الذين كانوا معه، فاجتمع له المقاتلون ،وتوجهوا نحو الجزيرة الخضراء، فكان اللقاء عند وادي آرُه الواقع على مقربة من مدينة مَرْبَلَّة يوم الخميس السادس من ذي القعدة سنة (٤٠٠ هـ/ ١٠١٠م)، وكان الانتصار للبربر بقيادة زعيمهم سليمان المستعين بالله ، على الحزب الأندلسي ([1])، بعد أن قتلوا من خصومهم الأندلسيين الآلاف،ومن حلفائهم الفرنجة أكثر من ثلاثة آلاف جندي([2]).

عاد المهدي إلى العاصمة قرطبة حيث قام بتحصينها، إلا أن البربر حاصروها مدة طويلة وتمكنوا في النهاية من دخولها، وبهذا عاد سليمان المستعين للمرة الثانية ليشغل منصب الخلافة سنة ٤٠٣هـ([3])، ويشير الشاعر إلى الخندق الذي ضربه الأندلسيون حولهم لحماية قرطبة من البربر:

ويـــومَ اقتحـــامِ الحَفَـــرِ أيْقنْـــتَ أنّهُـــمْ   يُريـــدُون أنْ تعـــزّ ولـــو هَانـــُـــــوا

لقد نظر أهل قرطبة إلى نتائج ثورة المهدي والثائر عليه سليمان المستعين، فوجدوا أمامهم صورة مخالفة لما ألفوه من أمراء بني أميَة ،بل جلبت إليهم أحداث الفتنة حكاما مغمورين ليس أهلا لها كالمهدي والمستعين وغيرهم([4])،بل كانوا سبباً في عدم توقف عجلة الفتنة ،حتى سار بها النوى إلى أن افتضّت عن مصائب لا مصيبة ، فقد اتصف المهدي بصفات دنيئة جعلت الناس ينفرون منه، ويتشاءمون من خلافته، وكان فتكه ومجونه ([5])، سبباً في قدحه،وفيه يقول بعضهم([6]):

قَـــدْ قَـــامَ مَهْـــدِيُّنَا ولكِـــنْ   بِمِلّـــــــةِ الفُسْـــــــقِ والمُجُـــــــونِ
وشــــاركَ النَّـــاسَ فـــي حَـــريمٍ   لـــــــولاه مـــــــا زالَ بالمَصُـــــــونِ
مَـــنْ كَـــان مـــن قَبْـــلُ ذا جَمّـــاً   فـــــاليومَ قَـــــدْ صَـــــارَ ذا قُـــــرُونِ

---

[1] ابن الخطيب، أعمال الأعمال:١١٣.
[2] المصدر نفسه:١١٥
٣ المقري،نفح الطيب،المجلد الأول:٤٢٩ .
[4] حيث توالى على الحُكم خلال تسع سنوات ثلاثة من بني حمود ، هم الناصر والقاسم والمعتلي ، وثلاثة من بني أمية ، هم المرتضى والمستظهر والمُسْتَكْفي .
[5] المقري، نفح الطيب، المجلد الأول:٥٩٠.
[6] المصدر نفسه:٤٢٦.

وظهر من فسقه واختلال عقله أمر لا يظهر إلاّ من المتهتكين السفلة، فكانت هذه الصفات من جملة أسباب القيام عليه، وإشعال الفتنة لديه، ولم يزل على ما اتصف به من الفسق والسكر والتلهي حتى تطارحته ألسنة الناس بالتشنيع عليه،يقول بعضهم فيه ([1]):-

أميــرُ النّــاسِ سُــخْنةُ كُــلِّ عــينِ   يبيـــتُ الليـــلَ بَـــيْن مُخنّثَـــيْنِ
يجمَّـــشُ ذا ويلِـــثمُ خـــدَّ هـــذا   ويســـكرُ كـــلَّ يـــومٍ سَـــكْرَتَيْنِ
لَقَـــدْ وَلّـــوا خِلافَـــتَهُمْ سَـــفِيهاً   ضَـــعِيفَ ٱلعَقْـــلِ شَـــيْناً غَيـــر زَيْـــنِ

وأدرك النّاس حجم الكارثة التي جاء بها المهديّ، حتّى غدا نذير شؤم على البلاد والعباد، يقول فيه أحدهم ([2]):-

أشْـــأمُ خَلْـــقٍ علـــى العبَـــادِ   والنَـــاسِ مِـــنْ حَاضِـــرٍ وبَـــادِ
أبـــو الوليـــد الـــذي اقْشَـــعَرَّتْ   لِنَحْسِـــــهِ شَـــــعْرَةُ الـــــبِلادِ
كَـــانَ عَلـــى قَوْمِـــهِ جَميعَـــاً   مَـــزَارَ عَـــادٍ لِقَـــومِ عَـــادِ

وبمقتل المهدي بويع سليمان بن الحكم الملقب بالمستعين، وملك قرطبة ثانية، واستمرت خلافته ست سنين وعشرة أشهر ،كانت كلها كما وصفها ابن حيّان([3]):"شداداً نكدات، صعاباً مشئومات،كريهات المبدأ والفاتحة، قبيحة المنتهى والخاتمة، لم يعدم فيها حيف، ولا فورق فيها خوف؛ ولا تمّ سرور، ولا فقد محذور،مع تغير السيرة،وخرق الهيبة، واشتعال الفتنة،واعتلاء المعصية، وظعن الأمن،وحلول المخافة".

وقد زاد من اضطراب الأوضاع في الأندلس - لاسيما قُرْطُبَة - اقتحام البربر لها ونشر الدمار بها ، فقد أطلق البربر أيديهم في قرطبة في عهد المستعين، إفساداً وإذلالاً للمغلوبين، وتعرضت أحياء قُرْطُبَة للاجتياح والنهب والتدميردون حساب، ودفعت قرطبة ثمن مقاومتها أنهارا من الدماء، وقتل الكثير من أهلها ، ودخلت البلاد بعدها في سلسلة من الأحداث ، واضطربت الأوضاع ، الأمر الذي جعل الأندلسيين يكنّون للمستعين والبربر كراهية شديدة تشيع على ألسنتهم ، حتى غدا اسم سليمان يثير فضول الأندلسيين،وفيه يجري أحد الشعراء مقارنة بين سليمان هذا الذي عاث في

[1] ابن عذارى، البيان المغرب، الجزء الثالث:٨٠.
[2] ابن عذارى، البيان المغرب، الجزء الثالث:٨٠.
[3] ابن بسام، الذخيرة في محاسن الجزيرة، القسم الأول، المجلد الأول:٣٦.

قرطبة فساداً بسيوف البربر، وسيدنا سليمان النبي -عليه السلام - معتمداًعلى تشابه الأسماء، يقول :([1])

لا رحِـــــــــمَ اللهُ سُــــــــلَيْمَانَكُم فإنَّــــــــهُ ضِــــــــدّ سُــــــــلَيْمَانِ
ذَاكَ بِـــــــهِ غُلّــــــتْ شَــــــيَاطِينُهَا وَحَــــــلَّ هـــــذا كُـــــلّ شَــــيْطانِ
فباســـمه سَـــاحَتْ علـــى أرْضِـــنَا لِهُلْـــــكِ سُــــــكّانٍ و أوْطَـــــانِ

فهـو يشـير إلـى قصـة النبـي سليمان –عليـه السـلام – فـي القـرآن الكـريم "والشـياطين كُـلَّ بَنّـاءٍ وغَوّاصٍ*وآخرين مُقَرَّنين في الأَصْفَاد"([2]).

وعلى الرغم من هذه الأحداث الدامية فإنَّ شعر المدح- الذي أشرت إلى مرافقته المنفعة- ينقل لنا هنا صورة مغايرة لواقع الأحداث، فالمستعين سبب الفرح وأيّامه أيام عيد،وأمن وأمـان ،أطاعـه العصـاة وسالمه الأشداء على ما يريد. يقول ابن دراج ([3]):

شَـــهِدَتْ لـــكَ الأَعْيَـــادُ أنّـــكَ عِيـــدُها بِـــكَ حـــنَّ مُوحِشُـــهَا وآبَ بَعِيـــدُهَا
وأضَـــاءَ مُظلِمُهَـــا وأفْـــرَخَ رَوْعُهَـــا وَأطَـــاعَ عَاصِـــيهَا وَلانَ شَـــدِيدُهَا

ويشيد الشاعر بدور البربر في معارك المستعين، فلهم جزل الصفات:

فِـــي قُبَّـــةِ المُلْـــكِ الـــذي "صِـــنْهَاجَةٌ" و"زِنَاتَـــــةٌ" أَطْنَابُهَـــــا وعَمُودُهَـــــا
وسُــــــرَاتُهَا ودُعَاتُهَـــــا ورُعَاتُهـــــا وَبُنَاتُهَـــــا وحُمَاتُهَـــــا وأسُـــــودُهَا

وعهد الخلافة عهد باركته العناية الربانية فهي سبب التآلف:

يَـــدُ رَبِّهِـــمْ فِيهـــا عَلـــى أيْـــدِيهِمُ والكـــــاتِبُونَ الحَـــــافِظونَ شُـــــهُودُهَا
أوفَـــوا بِهـــا فَوَفَـــتْ بألفَـــةِ شَـــمْلِهِمْ فِـــــي دَوْلَـــــةٍ مُســـــتقَبلٍ تَأيِيـــــدُهَا

وحاز المستعين الخلافة بالجهاد وتحت قرع السيوف بعزيمة صادقة :

هِـــي دَعْـــوَةٌ بِسِـــيوفِهِمْ تَثْبِيتُهَـــا فِـــــي بَيَعَـــــةٍ أيْمَـــــانُهُمْ تَوكِيـــــدُهَا

[1] المقري، نفح الطيب، المجلد الأول: ٤٢٩.
[2] سورة ص آية ٣٧-٣٨.
[3] ديوان ابن دراج: ٦٠

ويستشعر سليمان المستعين ثقل البربر عليه، وعجزه عن السيطرة عليهم، وهم الذين دفعوا به إلى قبة الخلافة، وأمسكوا بزمامها ، ويستشعر في الوقت ذاته بنفرة القرطبيين عنه، بل حقدهم عليه، فقد كرهه أهل قرطبة ومقتوه ، وكان هو يشعر بنقمتهم عليه، فكان كثيرا ما يتمثل ببيتين من الشعر،فكان بهما في هذا الموطن أحق من قائلهما([1]) :

إذَا مَــا رَأونِــي طَالِعــاً مِــنْ ثَنيَّــةٍ ... يَقُولُــون : مَــنْ هَــذا ؟ وَقَــدْ عَرَفُــونِي

يَقُولُــون لِــي : أهْــلاً وَسَــهْلاً وَمَرْحَبَــاً ... وَلَــوْ ظَفِــروا بِــي سَــاعَةً قَتَلُــونِي

فأضحى يتنفس كراهيّة القرطبيين، ويزفر ببغض البربر. وهو على حاله هذه يقف بين المطرقة والسندان، فلم يستطع أن يكبت مشاعره وقد ملأت عليه وجدانه ، وهو محاط بغربان البربر،فأنشد قائلاً في مجلس من مجالسه([2]):

حَلَفْــتُ بِمَــنْ صَــلّى وَصَــامَ وكبّــرا ... لأغْمــدها فــيمن طَغَــى وَتَجَبَّــرَا

وأبْصِــرُ ديــنَ اللهِ تحْيَــا رُسُــومُه ... فَبَــدَّلَ مــا قَــدْ لاَحَ مِنْهَــا وغَيَّــرا

فــوا عَجَبَــاً مِــنْ عَبْشَــميّ مُمَلّــكٍ ... بِــرَغمِ العَــوالي والمَعَــالِي تَبَرْبَــرَا

فَلَــوْ أنَّ أمْــري بالخيــارِ نَبَــذْتُهُم ... وحَــاكَمْتُهُم للســيّفِ حُكْمَــاً مُحَــرّرَاً

فإمَّــا حَيَــاةٌ تُسْــتَلذّ بِفَقْــدِ هِــم ... وإمَّــا حِمَــامٌ لا نَــرَى فِيــهِ مَــا زَرَى

وإلى هذه الأبيات يرد المقري سبب زوال دولة المستعين بقوله:"وكان من أعظم الأسباب في فساد دولة المستعين أنه قال هذه الأبيات مستريحاً بها إلى خواصه"([3])؛لأن نواياه غدت مكشوفة للبربر،فانقلبوا عنه إلى علي بن حمود ،وآزروه عليه، وأنهوا بذلك ملكه.

ومن بين القواد الذين كان المستعين بالله يعول عليهم في قيادة الفرق البربرية، الأخوان علي والقاسم ابنا حمود، اللذان ينحدران من نسب الأدارسة العلويين، وإكراماً لهما على ما قدماه من مجهود في قتال المهدي ولى عليا سَبْتَة وطَنْجَة، وولى القاسم الجزيرة الخضراء.

هذان الأخوان استغلا مكانتهما وقوتهما بالبربر،واستغلا أيضا تعكر صفو العلاقة بين قادة البربر والمستعين، وقاما بالخروج على إمامهما سليمان المستعين بالله ، حيث نادى علي بن حمود

---

[1] ابن الأبّار: الحلة السيراء: ١٧٩.وصاحب البيتين هو جميل بثينة: ديوان جميل بن عبد الله بن معمر بن ظبيان؛ جمع وتحقيق حسين نصار،دار مصر للطباعة:٢٠٩

[2] المقري، نفح الطيب، المجلد الأول:٤٢٩.

[3] المصدر نفسه:٤٢٩.

أنّه الخليفة الشرعي، وأن هشاما المؤيد بالله صيّر له الأمر من بعده عندما أحس بأن سليمان سيقتله، فطلب منه أن ينقذه من أسر سليمان المستعين([1]).

جمع علي بن حمود مؤيديه وأنصاره وتوجه بهم إلى العاصمة قرطبة، حيث خرج لهم سليمان المستعين وجيشه، فدارت بينهما معركة طاحنة انتهت بهزيمة المستعين بالله ،وأسره وقتله، وعلى أثر ذلك دخل علي بن حمود العاصمة قرطبة في الثاني والعشرين من شهر محرم سنة (٤٠٧ هـ/ ١٠١٦م)،ثم بويع بالخلافة متخذاً لقب الناصر لدين الله([2]).

والشعر يواكب تلك الأحداث ولا يحجب لسانه عنها ، فينطق على لسان المدح والحمد للخارج على المستعين سنة أربع وأربعمائة للهجرة ، يقول ابن دراج في علي بن حمود([3]):

لَعَلّكِ يا شَمْسُ عِندَ الأصيلِ   شَجَيْتِ لِشَجِو الغَرِيبِ الذّلِيلِ
فَكُونِي شَفِيعي إلى ابن الشّفيعِ   وكُونِي رَسُولي إلى ابن الرَّسُولِ

و يواصل في نشر الألفاظ الموحية للمفردات الشيعية، يقول:

إلى الهَاشِميّ إلى الطالبيِّ   إلى الفَاطِميّ العَطُوفِ الوَصُولِ
إلى ابن الوَصِيِّ إلى ابن النَبِيِّ   إلى ابْنِ الذَّبِيحِ إلى ابْنِ الخَلِيلِ

ويؤكد عمق الوصل بين عترة النبي- عليه الصلاة والسلام – وممدوحه:

ومَا زَالَ مِنْ آلهِ حَافِظٌ   مَعَالِمهَا حِفْظَ بَرٍّ وصُولِ
بِأنفُسِ مَجْدٍ سِرَاعٍ إلَيْهَا   وأيْدٍ عليْهَا شُهُودٍ عُدُولِ

ويسترعي انتباه المستمع إلى النسب الهاشمي لعلي بن حمود ، وما يتصل به نسبه إلى هاشم بن عبد مناف في الجاهلية، ولا شك أنَ الربط بين صفة الكرم المندوبة في أصول الممدوح ، لتقرب الصورة إلى ذهن الممدوح بقيمة الكرم والعطاء . يقول :

فَسُمِّيَ جَدكَ "عَمْرُو الكِرَامِ"   بِهَشْمِ الثَرِيدِ زَمَانَ المُحُولِ ([4])

ويبّرر خلافة ابن حمود لقيامها على الدعوة العلوية :

فأَنْتُمْ هُدَاةُ حَيَاةٍ وَمَوْتٍ   وأنْتُمْ أئمّةُ فِعْلٍ وقِيلِ

---

[1] المصدر نفسه: ٤٣١.
[2] ابن بسام، الذخيرة في محاسن الجزيرة، القسم الأول، المجلد الأول:٩٧
[3] ديوان ابن دراج :٧٥.
[4] يشير الشاعر هنا إلى هاشم بن عبد مناف واسمه (عمرو) وقول ابن الزبعري فيه:

عمرو العلا هشم الثريد لقومه   ورجال مكة مسنتون عجاف

وسَادَاتُ مَنْ حَلَّ جَنّاتِ عَدْنٍ ... جَمِيعِ شَبَابِهِمُ والْكُهُولِ
وَأنْتُمْ خَلائِفُ دُنْيَا وَدِينٍ ... بِحُكْمِ الكِتَابِ وَحُكْمِ العُقُولِ

ويسوق تلك المعاني ابن الحناط ([١]) إذ يقول([٢]) :

أمّتْ أمِيرَ المُؤمنين مَواحِلاً ... فَسَقَى صَدَاهَا غَيْثُهُ الشَؤْبُوبُ
الْمُعْتلي بِاللهِ وَالمَلِكُ الذِي ... تَاجُ الفَخَارِ بِرَأسِهِ مَعْصُوبُ
إنْ كَانَ عَدُّوا حُبَّ آلِ مُحَمّدٍ ... ذَنْبَاً فَإنّي لَسْتُ مِنْهُ أتُوبُ

وكان ابن شهيد([٣])حاضراً في هذا الحدث السياسي المهم بقوله([٤]) :

فريق العِدَا مِنْ حَدِّ عّزْمِكَ يَفْرَقُ ... وبالدّهْرِ مِمّا خَافَ بَطْشَكَ أوْلَقُ([٥])
عَجِبْتُ لِمَنْ يَعْتَدُّ دُونَكَ جُنَّةً ... وَسَهْمُكَ سَعْدٌ والقَضَاءُ مُفوِّقُ

ومن قصيدة أخرى يمدح ابن الحناط علي بن حمود،يقول([٦])

راحَتْ تَذكّرُ بالنّسِيمِ الرَّاحا ... وطّفاءُ تَكسِرُ للجنُوحِ جَنَاحَا
أخْفَى مسالِكَهَا الظَلامُ فَأوْقَدَتْ ... مِنْ بَرْقِهَا كَي تَهتَدِي مِصْبَاحَا
وكأنَّ صَوتَ الرّعدِ خَلفَ سَحَابِهَا ... حَادٍ إذا وَنَتِ السّحاَئِبُ صَاحَا([٧])
جَادَتْ عَلَى التلعاتِ فَاكْتَسَتْ الرُّبَى ... حُلَلاً أقَامَ لَهَا الرَّبيعُ وِشَاحَا
رَوْضٌ يُحَاكِي الفَاطِمِيَّ شَمَائِلاً ... طِيْبَاً ومُزْنٌ قَدْ حَكَاهُ سَمَاحَا
أعَلِيُّ إنْ تَعْلُ المُلوكَ فَإنَّهُم ... بُهْمٌ([٨])جُعِلْتَ أغَرَّهَا الْوَضَاحَا

---

[١] محمد بن سليمان الرعيني المعروف بابن الحناط ، أديب وشاعر عاش في فترة الحجابة والفتنة اتصل بالأمراء والملوك ومدحهم توفي قريبا من (٤٣٠) هـ أنظر: الحميدي،جذوة المقتبس :٥١.، و ابن بسام، الذخيرة في محاسن الجزيرة، القسم الأول، المجلد الأول:٤٣٧

[٢] ابن بسام، الذخيرة في محاسن الجزيرة، القسم الأول، المجلد الأول:٤٤٩.

[٣] هو أحمد بن عبد الملك ابن شهيد ، شاعر وأديب مشهور، من أسرة عريقة اشتهرت بالسياسة وبالقرب من الدولة العامرية، أدرك أحداث الفتنة وتقلباتها (٣٨٢-٤٢٦)هـ. أنظر: الحموي، ياقوت، شهاب الدين، أبو عبد الله، معجم الأدباء. الطبعة الثالثة: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع،١٩٨٠‘ المجلد الثاني:٢٢٠ .

[٤] ديوان ابن شهيد جمع وتحقيق شارلز بلات،الطبعة الأولى،دار المكشوف،بيروت،لبنان،١٩٦٣: ١٠١.

[٥] أولق:إسراعك بالشيء في أثر الشيء، كعدو في أثر عدو،وكلام في أثر كلام، ابن منظور،لسان العرب(ولق)

[٦] ابن بسام، الذخيرة في محاسن الجزيرة، القسم الأول، المجلد الأول:٤٤٥.

[٧] ونت: ضعيفة الهبوب،والونا:الضعف والفتور والكلال: ابن منظور،لسان العرب (وني).

[٨] بُهْمٌ: جمع بُهْمة: السوادُ،و الشجاع، و الفارس الذي لا يُدْرَى من أَين يُؤتى له من شدَّة بأْسِه. ابن منظور،لسان العرب (بهم).

لَمَـــا طَلَعَـــتَ لَهَـــا بِكُّـــلِ ثَنِيّـــةٍ أَنْسَـــيْتَهَا المَنْصُـــورَ والسّـــفّاحَا(1)

وفي إطار هذه المعاني ظل الشعر المؤيّد للعلويين- حقيقة أو تملّقا– يتردد في هذه المعاني،استناداً لدعوى سياسية أو عقدية تميّز بها الشعراء الذين وقفوا على أعتاب الحموديين ، يقول عبادة في علي بن حمود(2) :

أطَاعَتْـــكَ القُلـــوبُ ومـــن عَصـــيٌّ وحِـــزْبُ اللهِ حِزْبُـــكَ يَـــا عَلـــيُّ

أبَـــى لَـــكَ أنْ تُهَـــاضَ عُـــلاكَ عَهْـــدٌ هشـــــاميٌّ وجَـــــدٌّ هاشـــــميُّ

ومَـــا سُـــميّتَ باســـمِ أبيـــكَ إلا لِيحيـــا بالسّـــمَيّ لـــهُ السَّـــميُّ

فـــإنْ قَـــالَ الفَخُـــورُ أبـــي فُـــلانٌ فَحَسْـــبُكَ أنْ تَقَـــولَ أبـــي النّبـــيُّ

ويؤكد عبادة بن ماء السماء معاني النصر الرباني لعلي بن حمود على الرغم من جميع المكائد، إذ تكفل الله بالذود عنه وحمايته،ويسوق هذه المعاني من خلال أسئلة استفهامية، الغرض البلاغي منها هو الإقرار.وهذه المعاني تتوافق مع السياق العام لتلك المعاني، التي تتكرر كثيراً في مدح العلويين من آل حمود. يقول عبادة بن ماء السماء(3):

وهَـلْ ضَـرَّكَ البَـاغِي بِسَـهْمِ مَكِيـدةٍ وأنْـتَ بِـوَاقِي عِصْـمَةِ اللهِ دَارِعُ

وأيُّ يَـدٍ تَنْـوِي قِرَاعَـكَ بَعْـدَمَا رَأيْنَـا يَـدَ الجبَّـارِ عَنْـكَ تُقَـارِعُ ؟

و يشير إلى المعتقد الشيعي بولاية الفقيه،يقول(4):

صَـلّى عَلَيْـك اللهُ يـا ابـنَ رَسُـولِهِ ووَلِيَّـه المُخْـتصّ بعـد خَلِيلِـهِ

ويلجأ الشاعر إلى تأكيد معانيه من قول الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه(5)، يقول(6):

وَزَعَ الإلـــهُ بِبَأسِـــهِ وعِقَابِـــهِ مَـا لَـمْ يَـزَعْ بـالنصِّ مِـنْ تَنْزِيلِـهِ

هـذا علـيٌّ نَاصِـرُ الـدّينِ الـذي نَظَمَـتْ لَـهُ غُـرَرُ السّـنا بِحُجُولِـهِ

ولمّا استولى علي بن حمود على الخلافة بقرطبة ، فرّ من قرطبة العديد من الأمويين(1). وكان

1 يشير إلى الخليفتين العباسيين أبي جعفر المنصور وأبي العباس السفاح.

2 ابن بسام، الذخيرة في محاسن الجزيرة، القسم الأول، المجلد الأول: ٤٧٨.

3 ابن بسام، الذخيرة في محاسن الجزيرة، القسم الأول، المجلد الأول:٤٧٦.

4 المصدر نفسه: ٤٧٦.

5"إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقران".أنظر النمري،عمر بن شبه،تاريخ المدينة،تحقيق فهيم محمد شلتوت،جدة،١٣٩٩هـ،الجزء الثالث:٩٨٨

6 ابن بسام، الذخيرة في محاسن الجزيرة، القسم الأول، المجلد الأول:٤٧٧.

وكان ممن فرّ المرتضى([2]) الذي توجه إلى شرقي الأندلس ، فأقبل عليه بعض المخالفين لابن حمود، وعلى رأسهم الفتيان العامريّون([3]) يقودهم خيران ([4])، وبايعوه ونصبوه مرشحا جديدا للخلافة سنة سبع وأربعمائة([5])، وكان ممن مدحه ابن دراج، يقول فيه([6]) :

جِهادُكَ حُكْمُ اللهِ مَنْ ذَا يَرُدُّهُ   وعَزْمُكَ أَمْرُ اللهِ مَنْ ذَا يَصُدّهُ
وطَائِرُكَ اليُمْنُ الّذِي أَنْتَ يُمْنُهُ   وطَالِعُكَ السَّعْدُ الّذِي أَنْتَ سَعْدُهُ

ويشير إلى البيعة التي أخذت للمرتضى ، فيقول:

وبَيْعَةُ رِضْوان رَعَى اللهُ حَقّهَا   لِمَنْ بَيْعَةُ الرُّضْوانِ إذ غَابَ جَدُّهُ
فَأَصْبَحَ فِي رَأسِ الرّيَاسَةِ تَاجُه   وَنُظّمَ في جِيْدِ الخِلاَفَةِ عِقْدُهُ

وسار المرتضى لحرب البربر في قرطبة يصحبه خيران ومنذر، كما صحبه حلفاؤه من الفرنجة، وقصدوا غرناطة ؛ ليبدأوا بحرب ذلك الفريق من البربر المساند لعلي بن حمود. قال ابن دراج، ينوّه بالمرتضى و حلفائه :

ولا غَابَ مَنْ وَافَاكَ مِنْ أَرْضِ   بِغَابٍ مِن الخَطِّيِّ تَزْأَرُ أَسْدُهُ
كَتَائِبُ لو يُرْمَى بِها الدَّهْرُ قَبْلَنَا   لزُلّزِلَ ذُو القَرْنَيْنِ مِنْهَا وَسَدُّهُ
كَأَنَّ فَضَاءَ الأَرْضِ أَلّبِسَ منهُمُ   لَبُوسَاً مِنْ المَاذِيِّ قُدِّرَ سَرْدُهُ([7])

وفي صورة معبرة عن كراهية الأندلسيين للبربر، يقول المرتضى([8]):

قَدْ بَلَغَ البَرْبَرُ فِيْنَا بِنَا   ما أفْسَدَ الأَحْوالَ والنّظمَا
كَالسّهَمِ للطائِرِ لولا الذي   فِيهِ من الرّيشِ لِما أَصْمَى
قُومُوا بِنَا فِي شَأنِهِم قَوْمَةً   تُزِيلُ عَنّا العَارَ والرَّغْمَا
إمّا بِها نَمْلكُ، أو لا نَرى   ماَ يَرْجِعُ الّطّرْفُ بِهِ أَعْمَى

---

[1] المصدر نفسه:٤٥٢.

[2] عبد الرحمن بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر، خرج مناديا لنفسه بالخلافة ،قتل عقب موقعة غرناطة ٤٠٧هـ.انظر : الحميدي،جذوة المقتبس :٣٤.

[3] ابن عذارى، البيان المغرب، الجزء الثالث:١٢٥.

[4] خيران صاحب المرية، مولى صقلبي، من علية فتيان المنصور بن أبي عامر الذين خدموا في دولته، حتى إذا ما ضعفت وتمزق شملها قفز على حكم (المرية) وظل يحكمها قرابة أربعة عشر عامًا ،توفي ٤١٩ هـ.ولما دخل سليمان المستعين قرطبة ، فر منها ،ثم كان ممن أعانوا علي بن حمود ضد المستعين، إلا انه حين دخل قرطبة معه كان يطمع في أن يجد هشاما المؤيد حيا ،فلما لم يجده استراب منه، وفر من قرطبة، واشترك مع منذر بن يحيى في تدبير الأمر لعبد الرحمن المرتضى ولكنه عاد فغدر بالمرتضى ودبر قتله بعد هزيمة الحلف الأندلسي على أعتاب غرناطة أمام الحزب البربري سنة (٤٠٩هـ/١٠١٩).انظر: ابن عذارى ،الجزء الثالث:١٢١، ١٢٢.

[5] ابن عذارى، البيان المغرب، الجزء الثالث:١٢١.

[6] ديوان ابن دراج : ٨١.

[7] الماذي: الدرع اللينة، ابن منظور،لسان العرب (مَذْي)

[8] المقري،نفح الطيب،المجلد الأول:٤٣٠

التقى الفريقان على مشارف غرناطة ،وانتهت المعركة بخسارة فادحة للحزب الأندلسي الذي يرأسه المرتضى ؛ بسبب خيانة أعوانه : خيران الصقلبي ومنذر التجيبي ([1]).

وكان لهذه الخسارة نتائج وخيمة على الأندلسيين، يقول ابن حيان : " وحل بهذه الوقيعة على جماعة الأندلس مصيبة أنست ما قبلها ، ولم يجتمع لهم جمع بعدها، وفرّوا بإدبار وباءوا بالصغار"([2])،كما انجلت عن مقتل المرتضى على يد أعوانه، بعد أن حاول أن ينزوي عن الأنظار الأنظار بعد انجلاء المعركة ([3]). وفي هذه المناسبة مدح ابن الحناط القاسم بن حمود ([4])،وعرضّ ([4])،وعرضّ بخيران العامري، يقول ([5]) :

لَـكَ الخيـرُ خيـرانٌ مَضَـى لِسَـبِيلِه ... وأصْـبحَ مُلـكُ اللهِ فِـي ابـنِ رَسُـولِهِ
وفُـرّقَ جَمْـعُ الكُفْـرِ واجْتَمَـعَ الـوَرَى ... علـى ابـنِ حَبيـبِ اللهِ بَعـدَ خَليلِـهِ
وقَـامَ لـواءُ الجَمْـعِ فَـوقَ مُمنـعٍ ... مِـن النّصـرِ جبريـلٌ أمـامَ رَعِيلِـهِ

وابن الحناط يتراءى له الاقتتال بين هاتين الفئتين من المسلمين – تملّقا للممدوح – معركة بين الإيمان والكفر ، بين حزب الشيطان وحزب الله:

ولمَّـا دَعـا الشـيطانُ فـي الخَيْـلِ حِزْبَـهُ ... وأَقْبَـلَ حِـزْبُ اللهِ فَـوقَ خُيُولِـهِ

ويشير إلى دور البربر في المعركة تنظيماً وعدداً:

كَتَائِـبُ مِـنْ صـنهاجةٍ وزناتَـةٍ ... تَضـايَقُ فِـي عـرْضِ الفَضَـاءِ وَطُولِـهِ

وقد أشار هنا ابن الحنّاط إلى فرار كل من منذر وخيران من ميدان المعركة ،ويؤكد فرضية الخيانة التي اتهم بها خيران ومنذر،لذا استعمل كلمة غدر،يقول :

تَقَـدَّمَ خَيْـرانٌ إليهـا بِزَعْمِـهِ ... ليُـدركَ مَـا قَـدْ فَاتَـهُ مِـنْ ذُحُولِـهِ ([6])
فَلَمَّـا التَقَـى الجَمْعَـانِ عَـاوَدَ رَأيَـهُ ... فَخَلّـى لِـبَعَضِ الهَـوْلِ جُـلَّ فُضُـولِهِ
وَوَلّـى وأبْقَـى مُنْـذراً مِـنْ وَرَائِـهِ ... يُقِـيمُ لأهْـلِ الغَـدْرِ عُـذْرَ نُكُولِـهِ

---

[1] المنذر بن يحيى التجيبي بن ربيعة الكندي توفي ٤١٢هـ ،ترقى إلى القيادة في الثغر الأعلى (سرقسطة) في آخر الدولة العامرية ، ثم اشترك في الفتنة القرطبية ، وأيد سليمان المستعين في دولته الثانية (٤٠٣هـ/ ١٠١٣م) فأقره على سرقسطة، واشترك مع خيران العامري في تدبير الأمر لعبد الرحمن المرتضى ،انظر: ابن عذارى ،الجزء الثالث:١٢١، ١٢٢.

[2] ابن بسام، الذخيرة في محاسن الجزيرة، القسم الأول، المجلد الأول:٤٥٣

[3] المصدر نفسه:٤٥٣

[4] هو ثاني الخلفاء الحموديين بقرطبة، حلّ محلّ أخيه علي بعد مقتله في قرطبة،و.مات في سجن يحيى بن علي بن حمود ٤٣١هـ/ ١٠٤٠م، وكان ابن دراج مدح هذا الخليفة الحمودي، وناداه بابن نبينا، ورأى فيه خير منقذ للأمة من هذه الفتنة أنظر:ديوان ابن دراج :٦٢.

[5] ابن بسام، الذخيرة في محاسن الجزيرة، القسم الأول، المجلد الأول:٤٥٢.

[6] الذحول : الثأروالعداوة والحقد، ابن منظور،لسان العرب(ذَحَلَ) .

لكنّ هذا الانتصار الذي أحرزه البربر لم يكن له أثر في استتباب الأمن واستقرار الحكم بقرطبة لسببين: الأول يرتبط بعلي بن حمود نفسه، فقد انقلب وجه الود الذي كان يظهره للقرطبيين إلى الوجه الآخر، فرأوا وجهاً كالحاً مليئاً بالقسوة والعنف والتنكيل،وتحول عن التجمل الذي كان يظهره لأهل قرطبة، وأغرمهم ضروبا من المغارم، وعزم على إخلائها وإبادة أهلها ([1]).

وكان لسياسية علي بن حمود التسلطية ردة فعل متوقعة ، فانقلبت عليه النفوس، ودبر له ثلاثة من فتيانه الصقالبة - وكانوا من أنصار الأمويين - مؤامرة أودت بحياته في الحمام ، وكان ذلك سنة(٤٠٨هـ / ١٠١٨ م)([2]). ومدة خلافته لم تتجاوز العامين([3]).

والسبب الثاني يرتبط بتغير الظروف بعد مقتل علي بن حمود؛ ذلك لأنّ إخفاق الأندلسيين في المعركة السابقة ، وانكماشهم عن الدور السياسي مع زعمائهم المروانيين ، فسح المجال لصراع داخلي بين أفراد الأسرة الحمودية ([4]).

وبمقتل علي بن حمود، تولَى بعده أخوه القاسم بن حمود منصب الخلافة في قرطبة (٤٠٨ هـ / ١٠١٨م)، وتلقب بالمأمون ([5])؛ ولذا فإنّ الشعر الرسمي لم يتغير في اختيار معانيه وألفاظه وأسلوبه، لا سيما أن هنالك غربة واضحة بين الأدب العربي بالجملة، وهذين العربيين الذين تقمصا لسان البرابرة، وما الشعر عندهما يزيد على كونه ضرباً من الدعاية السياسية فحسب، فعلي والقاسم ليس لهما من العربية غير النسب، فقد كانت لغتهما العربية ركيكة ([6]).

بدأ القاسم بن حمود مع أهل قرطبة سياسة تقوم على اللين والمسالمة تأليفاً للقلوب، إلى أن هدأت الأوضاع واستقرت([7]). يقول عبادة بن ماء السماء في القاسم بن حمود ([8]):

مَا ضَيَّعَ اللهُ مُلْكَاً أنْتَ رَاعِيهِ ولا أبَاحَ ذِمَاراً أنْتَ حَامِيهِ

للهِ دَرُّكَ مِنْ مَولىً عَوَارِفُه لَمْ تُبْقِ فِي الأرْضِ إلاّ مَنْ يُوَالِيهِ

والقاسم تمده العناية الإلهية بالرأي الصواب والأمر الرشيد ، مما يجعله يصل إلى مبتغاه :

---

[1] ابن عذارى، البيان المغرب، الجزء الثالث:١٢١.
[2] المقري، نفح الطيب، المجلد الأول:٤٨٣.
[3] ابن عذارى، البيان المغرب، الجزء الثالث:١٢١.
[4] شيخة ،جمعة ،الفتن والحروب وأثرها في الشعر الأندلسي: ٢٥ .
[5] ابن بسام، الذخيرة في محاسن الجزيرة، القسم الأول، المجلد الأول:٤٣.
[6] ابن الخطيب، أعمال الأعمال:١٢١.
[7] ابن عذارى، البيان المغرب، الجزء الثالث:١٣٠.
[8] ابن بسام، الذخيرة في محاسن الجزيرة، القسم الأول، المجلد الأول:٤٧٤.

تَهديـه والنّـاسُ قَـدْ ضَـلّوا كَوَاكِـبُ مـن آرائِـهِ إلـى الغَـرضِ الأَقْصَـى فَتَحْمِيـهِ

لقد رسمت الفتنة صورة قاتمة للخلافة، حتى غدت الأيام لشدة كربها وسوء حال الناس بها كالليالي المظلمة، لكن شاعرنا متفائل بخليفته الجديد، ويصور ذلك بقوله:

كَانَـتْ خِلافَتُنَـا فِـي الغَـرْبِ مُظْلِمَـةً كَـأنَّ أَيَامَنَـا فيهَـا لَيَالِيـهِ

فالسياسة الجديدة التي ترتكز على الرفق هي الدواء الناجح في التخلص من داء الخلاف، وبحكمة الخليفة الجديد، ورفقه بالناس قد أثر فيهم، وأسر قلوبهم، فأذعنوا له إذعان العبيد، ويرى الشاعر أن هذه الوسيلة هي العلاج الأنجع لمعالجة هذا الداء العضال، الذي عجز الأطباء عن معالجته، يقول مصوراً ذلك:

سِيَاسَـةٌ أَبْـرَأتْ بـالرِّفقِ فِـي مَهَـلٍ دَاءَ الخِـلافِ وَقَـدْ أعْيَـا مُدَاوِيـهِ
وحِكْمَـةٌ خَضَـعَتْ هَـامُ المُلُـوكِ لَهَـا عِـزّاً فَـلا حُـرَّ مَوجُـودٌ بِوَادِيـهِ
مُؤيّـدٌ جَـاءَتِ الـدُّنيَا إلـى يَـدِهِ عَفْـواً وَلَبّتْـهُ مِـنْ قُـرْبٍ أَمَانِيـهِ
جَلّـتْ أيَادِيـهِ حَتّـى إنّ أَنْفُسَـنَا ومَـا مَلَكْنَـا جُـزْءٌ مِـنْ أيَادِيـهِ

ويرثي عبادة بن ماء السماء علي بن حمود ، يقول([1]) :

لـم يَثْـنِ عِـزَّ المُلْكِ عنـه منونـه فسمتْ لـه مـن حيثُ لـمْ يَـكُ يَحْـذرُ
خَتَلَتْـهُ سِـرّاً والقَبائـلُ دُرّعٌ تَحْمِيـه لَكِـنَّ المَنَايَـا جُسّـرُ([2])
ولَـو انّهَـا رَامَتْـه جَهْـراً لانْثَنَـتْ والبِـيضُ تُقْـرَعُ والقَنَـا يَتَكَسَّـر

ثم ينتقل إلى مدح القاسم بن حمود ،يقول :

مَـا غَـاب بَـدرُ الـتّمِ إلاّ رَيْثَمَـا جَلَـى الـدُّجَى عَنّـا الصّـبَاحُ الأَزْهَـرُ

إنْ يَهْـوِ مِـنْ أَفْـقِ الخِلافَـةِ نَيّـرٌ يَهْـدِي السـبيلَ فَقَـدْ تَـلاهُ نَيّـرُ
بالقاسِـمِ المَـأمُونِ أَفْـرَخَ رَوْعُنَـا فالقَسْـمُ وافٍ والنصّـيبُ مُـوفّرُ

استمر هذا الوضع في ظل حكم القاسم نحو أربع سنوات، إلى أن نازعه في الأمر ابن أخيه يحيى ابن علي بن حمود، طالباً الخلافة لنفسه على أنها كانت لأبيه من قبل، فشكل يحيى بن علي قوة

[1] ابن بسام، الذخيرة في محاسن الجزيرة، القسم الأول، المجلد الأول:٤٧٨،٤٧٩ .
[2] يشير إلى الطريقة التي قتل بها علي بن حمود على يد غلمانه الصقالبة في الحمام،أنظر المقري، نفح الطيب، المجلد الأول:٤٨٣.

كبيرة، وزحف بها على العاصمة قرطبة، ونتيجة لذلك فرّ القاسم منها بعد أن تخلى عنه معاونوه، فدخلها يحيى بن علي بن حمود في الثاني والعشرين من ربيع الآخر سنة ٤١٢ هـ /١٠٢١م، وبويع بالخلافة متخذاً لقب المعتلي([1])، وظلّ كل منهما يدعي الخلافة لنفسه.

لم يعمر هذا الوضع الشاذ طويلاً، حيث قام البربر في قرطبة بخلع يحيى بن علي في ذي القعدة سنة(٤١٣هـ/ ١٠٢٣م)، ودعوا عمه القاسم بن حمود من مدينة أشبيلية، فدخلها في الثامن عشر من ذي القعدة سنة (٤١٣هـ/ ١٠٢٣م)([2]).

وتمكن أهل قرطبة من هزم القاسم بن حمود و البربر الزاحفين للسيطرة مرة أخرى على قرطبة ، ثم اجتمع القرطبيون، واتفقوا على رد الأمر لبني أميّة ([3])، وبويع بالخلافة عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار المستظهر بالله في سنة(٤١٤هـ) ،وكانت خلافته سبعة وأربعين يوماً ([4])،فقد ثار عليه ابن عمه محمد بن عبد الرحمن بن عبيد الله بن الناصر المستكفى في طائفة من أراذل العوام ، وقتل المستظهر([5]).

هؤلاء الخلفاء كانوا في غاية الضعف، فخلافة المستظهر بالله وصفها ابن حيان بقوله :"وفي خلافته لم تنتشر له فيها طاعة، ولا التأمت عليه جماعة ، ولا تجاوزت دعوته قرطبة. وكان مقتله في غاية الاستخفاف، إذ ثارت عليه العامة ، فأختبأ في حمام القصر، وقد انطوى انطواء الحية في مكان حرج ، فأخرج في قميص مُسْودٍ بحال قبيحة، وفضح حريمه، وسبى أكثرهن الدائرة، حملوهنّ إلى منازلهم علانية ، وجرى عليهن ما لم يجر على حرم سلطان في مدة تلك الفتنة "([6]).

ويصير الأمر إلى محمد بن عبد الرحمن المستكفي، وقد استقل بأمر قرطبة ستة عشر شهراً وأياماً، ولم يكن بأحسن من سابقيه ؛إذ زاد في مشقة القرطبيين ، و وصف ابن حيّان الخليفة المستكفي بقوله ([7]): "لم يكن هذا المستكفي من هذا الأمر في وِرْدٍ ولا صَدْرٍ،إنما أرسله الله تعالى على أهل قرطبة محنةً وبليةً، إذ كان منذ عرف غُفلاً عُطْلاً مُنقطعاً إلى البطالة،مجبولاً على الجهالة، عاطلاً من كل خلة تدل على فضيلة. عضته الفتنة، فأملق حتى استجاز طلب الصدقة ".

---

[1] ابن عذارى، البيان المغرب،الجزء الثالث: ١٣٢.
[2] ابن عذارى، البيان المغرب، الجزء الثالث: ١٣٣.
[3] المقري، نفح الطيب، المجلد الأول:٤٣٦.
[4] ابن الأبّار، الحلة السيراء: ١٧٩.
[5] المصدر نفسه: ١٧٩.
[6] ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، القسم الأول، المجلد الأول:٥٤.
[7] المصدر نفسه: ٤٣٤.

وفي سنة (٤١٤هـ) تداولت الخلافة بين ثلاثة حكام ، يقول ابن حيان([1]):" وكان افتتح هذه السنة المؤرخة القاسم بن حمود بخلافته،واختتمها هذا المستكفي . وكان بينهما عبد الرحمن المستظهر القتيل، فتصرمت تلك السنة النكدة عن ثلاثة خلفاء "، إلى أن خلع المستظهر، ورجع الأمر إلى يحيى بن علي الحسني ([2])،ثم آلت الأمور إلى القاسم الذي لم يطل بقاؤه هذه المرة في قرطبة كثيراً، وغادرها في بداية سنة(٤١٦ هـ/ ١٠٢٦م) متجها إلى مالقة، حيث كلف وزيره وكاتبه أحمد بن موسى ومعه دوناس بن أبي روح بتسيير الأمور فيها ([3])،إلا أن أهل قرطبة سرعان ما ثاروا عليهما في ربيع الأول سنة(٤١٧هـ/١٠٢٧م) ، فأنهوا بذلك حكم الحموديين لبلاد الأندلس([4]).

وبايع أهل قرطبة هشام بن محمد أخا المرتضى سنة (٤١٨هـ/١٠٢٨م) ، وتلقب بالمعتد([5])،وظل مترددا في الثغر ثلاثة أعوام([6]) ،ثم حكم المعتد قرطبة سنتين بعد مجيئه إليها، لم تكن أفضل من حكم سابقيه، فكثرت الاضطرابات ولا سيّما بسبب تصرفات وزيره حكم بن سعيد القزاز الذي استأثر بالسلطة، وضيق على أهل قرطبة، فلم يصبروا عليه طويلا كما تعودوا، فقتلوه وطافوا برأسه في المدينة، سنة (٤٢٢هـ)، وكان ذلك بقيادة أمية بن عبد الرحمن العراقي ([7]).

وعمت الفوضى العاصمة، ودخلت العامة قصر الخليفة الذي اضطر إلى الخروج منه مع ولده ونسائه ملتجئاً إلى المسجد الجامع، وعند ذلك اجتمع رأي أهل قرطبة على خلع المعتد، وإبطال رسم الخلافة نهائياً فأعلن الوزير أبو الحزم جهور بن محمد بن جهورانتهاء رسم الخلافة جملة لعدم وجود من يستحقها، وجعل الأمر شورى بين الناس،وحدث ذلك سنة(422هـ/١٠٣٢م)([8]).

---

[1] المصدر نفسه:٤٣٤

[2] الحميدي، جذوة المقتبس :٢٤ .

[3] ابن عذارى، البيان المغرب، الجزء الثالث: ١٤٣.

[4] تاريخ ابن خلدون، المجلد الأول:١٥٤٤

[5] أبو بكر هشام بن محمد ، أخو عبد الرحمن بن محمد الملقب بالمرتضى الخارج على علي بن حمود (٤١٨هـ)دخل قرطبة(٤٢٠هـ) وأزيح عن الخلافة (٤٢٢ هـ)، ليموت مغموراً في مدينة أندلسية في الشمال الشرقي ، ابن عذارى، البيان المغرب، الجزء الثالث:١٤٥.

[6] المقري،نفح الطيب،المجلد الأول:٤٣٨

[7] ابن عذارى، البيان المغرب، الجزء الثالث: ١٥٠.

٨ المقري، نفح الطيب، المجلد الأول:٤٣٨.

الفصل الثاني: الفتنة وآثارها

المبحث الأول:- التباكي على قرطبة و الخلافة.

المبحث الثاني: الغربة والاغتراب عند الشعراء.

آثار الفتنة

يتضح لنا من خلال العرض الموجز السابق أنّ الفترة الممتدة من سنة (٣٩٩ ـ ٤٢٢هـ)كانت فترة قلاقل واضطرابات ،إذ توالى على حكم قرطبة عشرة أمراء في أربع عشرة فترة حكم. وأسفرت هذه الأحداث عن نتائج وخيمة على جميع المستويات السياسيّة والاجتماعيّة والإنسانيّة، وعلى الحياة العلميّة والأدبيّة في الأندلس، إذ تم تدمير قرطبة وضاحيتيها الزهراء والزاهرة، ونهبت خيراتها وثرواتها. كما تم إنهاء الخلافة وعصبة الجماعة الإسلامية في الأندلس ،وتفرقت الدولة الموحدة إلى دويلات ضعيفة ، لم تتمكن من الصمود طويلا أمام التوحد المسيحي الاسباني ، وكانت إيذانا بخروج العرب من الأندلس، ونقلتهم من حالة المهيمن الفاتح إلى المستكين المدافع خلال مدة استمرت أكثر من ثلاثة قرون .

واستعان المتصارعون على كرسي الخلافة بالنصارى، لمناصرة أحدهم على الآخر متخذين شعار الغاية تبرر الوسيلة،مما كلف الأندلس تسليم عدد من الحصون والقلاع الاستراتيجية إلى الإسبان ،كانت فيما بعد منطلقاً لتلك القوات على الديار الأندلسية.

وقتل الآف القرطبيين وشرّد مثلهم عن قرطبة إلى مدن أندلسية أو إلى مدن أخرى خارج الأندلس، فضربت البنية الاجتماعية لكثرة القتل والسبي والاضطهاد العنيف الذي مارسه الأقوياء على المغلوبين أثناء الفتنة في المجتمع القرطبي. وقد ترتب على ذلك من المفاسد والآلام ما لا مجال للخوض فيه، ولاشك في أنّ أهل اللغة والأدب والفقه كان لهم نصيب وافر من هذه المحنة. ومن هؤلاء ابن حزم([1]) الذي عاش مرحلة قاسية من مراحل تلك الفتن، ولننظر في هذا النص الطويل نسبيا،وهو يطلعنا فيه على هذه الفتنة المبيرة، يقول ([2]):"...ثم شغلنا بعد قيام أمير المؤمنين هشام المؤيد بالنكبات ، وباعتداء أرباب دولته ، وامتحنا بالاعتقال والترغيب ، والإرغام الفادح والاستتار ، وأرزمت الفتنة ، وألقت باعها ، وعمت الناس ، وخصتنا إلى أن توفي أبي الوزير رحمه الله ، ونحن في هذه الأحوال ، عام اثنين وأربعمائة للهجرة/ (١٠١٢م)،وقد اتصلت بنا تلك

[1] علي بين سعيد بن حزم بن غالب ، أبو محمد أصله من الفرس ، وجده الأقصى في الإسلام اسمه يزيد مولى ليزيد بن أبي سفيان حافظ عالم بعلوم الحديث والفقه وله فيها مؤلفات (٣٨٤ -٤٥٠) هـ. انظر ترجمته ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة القسم الأول، المجلد الأول: ١٦٧.

[2] ابن حزم، طوق الحمامة، الطبعة الثانية، تحقيق الطاهر أحمد مكي،كورنيش النيل- القاهرة: دار المعارف،١١١٩، ١٩٧٥:.١٣٥،١٣٦

الحال بعده ، إلى أن كانت عندنا جنازة لبعض أهلنا، فرأيتها ([1])وقد ارتفعت الواعية([2]) قائمة بين المأتم وسط الناس ، في جملة البواكي والنوادب ، فلقد أثارت وجدا دفيناً، وحركت ساكناً ، وذكرتني عهداً قديماً ، وحباً تليداً، ودهراً ماضياً ، وزماناً عافياً ، وشهوراً خوالي ، وأخباراً بوالي ، ودهوراً نوافي ، وأياما قد ذهبت ، وآثارا قد دثرت ، وجددت أحزاني ، وهيجت بلابلي عليّ فكنت في ذلك النهار مصاباً من وجوه ، وما كنت نسيت ، ولكن زاد الشجى، وتوقدت اللوعة ، وتأكد الحزن وتضاعف الأسف ، واستجلب الوجد ما كان منه كامناً فلباه مجيباً ، فقلت قطعة منها :

يُبَكّي لمْيتٍ مَاتَ وهوَ مكرم ... وللّحيُّ أولى بالدمُوعِ الذوارفِ

فيا عَجَباً من آسفٍ لامرئ ثوى ... وما هُوَ للمَقْتولِ ظَلْمَاً بآسفِ

ثم ضرب الدهر ضربانه ، وأجلينا عن منازلنا ، وتغلب علينا جند البربر، فخرجت عن قرطبة أول المحرم سنة أربع وأربعمائة (١٠١٣م)، وغابت عن بصري بعد تلك الرؤية الواحدة ستة أعوام وأكثر،ثم دخلت قرطبة في شوال سنة تسع وأربعمائة للهجرة/ (١٠١٩م)".

وهذا النص يرسم صورة واقعية لعالم وأديب عاش في الفترة ما بين(٣٨٤هـ) إلى ما بعد انقضاء الفتنة(٤٥٠ هـ)، وهي فترة عامرة بالأحداث السياسية، حيث شهدت نهاية سيطرة الدولة العامرية، واندلاع النزاعات العرقية والطائفية ، ثم عصر الفتنة،وسقوط الخلافة الأُمَوية ، وقيام دول الطوائف ، وتفاقم الخطر النصراني ،وجميعها أحداث أثرت بلا شك في خبرته التاريخية،وفي تكوينه النفسي والفكري، وتركت أثاراً واضحة في ثنايا أعماله ؛ حيث رصد بدقة مرحلة الفتن والاضطرابات المتتالية في الأندلس، فصور الوضع العام صورة تغنينا عن المشاهدة ،ويسهل علينا إدراك مرارة تلك المرحلة التاريخية، و ما أضفته هذه الأحداث من إثراء في شخصيّته وفي شخصية أدباء وعلماء آخرين معاصرين له.

كما أثرت أحداث الفتنة في النهضة العلمية الأدبية في الأندلس بشكل كبير، إذ إنَ سيوف القتل عمدت إلى رقاب كثير من العلماء والمؤدبين، فقضوا أثناء الأحداث، كما أنَ سهام الخوف طرحت بهم خارج قرطبة، بل وخارج الأندلس هربا من القتل والاضطهاد . قال ابن حيّان يصف وقعة قنتيش، وأثرها في العلماء والأدباء([3]): "وأصيب في تلك الوقعة من المؤدبين خاصة نيف على ستين أعريت سقائفهم في غداة واحدة منهم، وتعطل صبيانهم لعدمهم". وممن قتل في أحداث

[1] جارية تعلق بها ابن حزم أيام صباه.
[2] الواعية:الصارخة،الصراخ على الميت ونَعْيه: ابن منظور،لسان العرب (وعى)
[3] ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، القسم الأول، المجلد الأول: ٤٤.

تلك الفتنة من العلماء المشهورين ابن الفرضي صاحب كتاب" تاريخ العلماء والرواة بالأندلس" قال محمد ابن حزم([1]): "أخبرني من رآه بين القتلى يومئذ وهو في رمق يقول : لا يكلم أحد في سبيل الله- والله أعلم بمن يكلم في سبيله- إلاّ جاء يوم القيامة، وجرحه يثعب([2]) دماً، اللون لون الدم والريح ريح المسك ". ومن العلماء الذين نالهم القتل محمد بن عيسى بن زوبع على يد ابن حمود، وكان محمد هذا فقيهاً عالماً محدّثاً([3]).

كما أن الفتنة دفعت بكثير من العلماء والأدباء والشعراء للفرار من قرطبة إلى وجهات متعددة، مما أفرغها من أهم خصائصها، وهو النشاط الفكري والأدبي والعلمي .إذ كانت تشع نور العلم والأدب على الأندلس جميعا . وكان ممن فرّ من الأندلس إلى غيرها، الأديب الفقيه عبد الرحمن بن محمد الأديب ، سكن قرطبة إلى أن وقعت الفتنة، فخرج من الأندلس ومات بمصر([4]). كما خرج صاعد بن الحسين البغدادي اللغوي في الفتنة، وقصد صقلية، فمات بها قريباً من سنة (٤١٠هـ)([5])،فضلاً عن رحيل كثير من سكانها إلى المدن الأخرى ،فابن حيّان يصف مدينة بلنسية، وكيف التجأ الناس إليها،وكيف تكاثر الناس فيها أثناء الفتنة ،يقول([6]):"استوطنها جملة من جالية قرطبة القلقة الاستقرار،فألقوا بها عصا التسيار" .

ولنا أن نتصور واقع المكتبات في ظل الخراب والدمار اللذين أثّرا في كل شيء في المدينة التي تعرضت للهدم والحرق. فمن المتوقع أن نُهب بعض هذه الكتب، وبيع بعضها الآخر، وأُتلف قسم كبير منها. يروي حفيد عبد الرحمن بن فطيس المحدث والعالم عن مكتبة جدّه أثناء الفتنة([7]) :"إنّ أهل قرطبة اجتمعوا لبيع كتب جدّه هذا مدة عام كامل في مسجده في الفتنة في الغلاء، وإنّه اجتمع فيها من الثمن أربعون ألف دينار". إلاّ أن بيع هذه الكتب أثمرت نتائجه في الفترة اللاحقة لها ،فكانت من أسباب تسهيل انتشار العلوم في عهد ملوك الطوائف . وقد أشار إحسان عباس لذلك بقوله :"ومن الضار النافع أن تكون الفتنة سبباً في بيع الكتب التي كانت في قرطبة ولا سيّما ما كان منها في مكتبة الحكم" ([8]).

---

[1] المصدر نفسه، القسم الأول، المجلد الثاني:١٣٠
[2] يثعب:ينزف بغزارة: ابن منظور،لسان العرب (ثَعَبَ)
[3] ابن بشكول ،الصلة ،المجلد الثالث: ٥
[4] ابن بشكول ،الصلة وصلة الصلة ،المجلد الأول:٣٦٤.
[5] المصدر نفسه : ٢٦٤. وانظر الحميدي ،جذوة المقتبس :٢١٤.
[6] ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، القسم الثالث،المجلد الخامس:١٧ .
[7] ابن بشكول ،الصلة وصلة الصلة ،المجلد الأول: ٣٣٠ .
[8] عباس ،إحسان ،تاريخ الأدب الأندلسي ،عصر سيادة قرطبة:١٧٧.

و من نتائج الفتنة على الناحية الأدبية إضعاف عملية التدوين والتأليف، وزهد أهل الأندلس في تدوين تراثهم في تلك الفترة الزمنية، ذلك لأنّ الظروف التي عصفت بقرطبة عصفت بعلمائها وأدبائها ، وأسقطت الدافعية للبحث والعلم، والإشادة بمراتب زعمائهم([1])،و فقد جرّاء ذلك كثير من الأشعار والمؤلفات أثناء الفتنة، تلك التي كانت من الممكن أن تعطينا صورة أوضح عن جوانب الحياة المختلفة في الأندلس.

و تعددت آثار الفتنة وتلونت بألوان عدة، و ظهرت شعراً على ألسنة الشعراء بدافع وقع الفتنة.ومن هذه الآثار الأثر النفسي، حيث خفايا النفس كالحب والخوف والطمع والرغبة والأثر الاجتماعي ،فالصورة القائمة في النسيج الاجتماعي اختلت باختلال موازين ذلك المجتمع بسبب الفتنة والأحداث العاصفة ؛ فظهرت صور التفجّع والحسرة والألم، و لا يخفى على المبصر ما يحلّ بالنازح الفار عن وطنه مصدر آمنه من آلام .

و الأثر السياسي كان حاضراً من خلال النتائج السياسية التي عبر عنها شعراء تلك الفترة من منظورهم للخلافة وشرعيتها وانخراطهم بالمكائد والخلافات السياسية.

وأمّا الأثر العمراني فقد كان من أبرز آثار الفتنة في الشعر، وأكثرها حدة فيه،وهنا تناولت بالتحليل نظم الشعر حول ما أصاب قرطبة من تخريب ودمار، فأصبحت قرطبة بحلتها الجديدة سبباً في البكاء والعويل والرثاء ، فلا بد-هنا- من الوقوف عند ظاهرتين شعريتين، للفتنة الدعامة الكبرى في حفزهما إلى حيز الوجود هما : بكاء قرطبة والخلافة،والشعور بالغربة والاغتراب .

ومن خلال تناول هاتين الظاهرتين، يمكن استجلاء آثار الفتنة باعتبارهما الفناء الرّحب الذي حوى آثار الفتنة جميعها وطواها بين جناحيه، وكانت القصيدة الشعرية مجسدة للنفس الأندلسية التي زفرت بآثار تلك الفتنة ،وعبرت عنها،و يمكننا أن نستعرض آثار الفتنة من خلال المبحثين التاليين مدعمين بالشواهد الشعرية:

- بكاء قرطبة و الخلافة.

- الغربة والاغتراب عند الشعراء.

---

[1] ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ،القسم الأول، المجلد الأول: ٤٦.

المبحث الأول: بكاء قرطبة والخلافة.

لقد كانت قرطبة من أبهى مدن العالم وأكثرها عمارة ،ولذلك نالت إعجاب أوروبا واستحقت تلك المحبة التي لصقت بقلوب ساكنيها ، وقد ورد في الفصل الأول من هذه الرسالة ما يشير إلى مكانتها في الأندلس والعالم آنذاك ، وما بلغته من العمران والتمدن .

وما أن جاءت الفتنة حتى تسلطت على ذلك العمران يد الهدم والعبث ، وحولت المدينة الوادعة العامرة إلى مدينة مضطربة خربة .وكان من أهم أسباب سلب محاسن قرطبة عَيْث البربر بها في دخولهم مع سليمان المستعين حين استولى على قرطبة في دولته التي افتُتحت بالقهر وسفك الدماء([1]).

و يصف لنا ابن حزم بكلمات تظهر عظيم الأسى والحزن ما أصاب منازلهم ببلاط مغيث ، في الجانب الغربي من قرطبة ، بعد أن أخبره أحدهم عن تبدل أحوالها وما أصابها من الخراب بوقع الفتنة، يقول ([2]): " رأى دورنا ،وقد أمّحت رسومها،وطمست أعلامها ،وخفيت معاهدها ،وغيرها البلى ،وصارت صحارى مجدبة بعد العمران، وفيافي موحشة بعد الأنس ، وخرائب منقطعة بعد الحسن، وشعابا مفزعة بعد الأمن ". فأورث هذا التحول في أحوال قرطبة الحسرة والألم في قلبه ،وكان مدعاة بكائه.

وهذه الصورة المؤلمة التي آلت إليها قرطبة تفيض على قلب أبنائها مشاعر الحزن والألم، وهم يذكرون قرطبة الجميلة وأهليهم ومنازلهم ،وتتمثل لهم كل معاني السحر والجمال فيها . وابن حزم حاله كحالهم إلا أنه يشير إلى إقصائه عن قرطبة قسراً،يقول ([3]):

سلامٌ على دارٍ رَحَلْنا وغُودِرَتْ ... خلاءً من الأهلين مُوحِشَةً قَفْرَا
تَرَاهَا كَأنْ لَم تَغْنَ بالأمْسِ بَلْقَعاً ... ولا عَمَرَتْ مِنْ أهْلِهَا قَبْلَنَا دَهْرَا

ويمضي ابن حزم في تحليل مشاعر الألم والحسرة التي انتابته على فراق قرطبة. وقد ساعده على ذلك توظيفه لكثير من الأساليب الإنشائية كالنداء والاستفهام الإنكاري والأمر والنهي

---

[1] المقري، نفح الطيب، المجلد الأول:٤٨٢.
[2] ابن حزم، طوق الحمامة: ١١٦، ١١٥.
[3] ابن الخطيب،أعمال الأعمال:١٠٦-١٠٨،ووردت في الملحق من رسائل ابن حزم، الطبعة الأولى،تحقيق إحسان عباس،،المؤسسة العربية للدراسات والنشر،بيروت،لبنان،١٩٨٠ ،الجزء الأول:٣١٢،و أوردها محقق طوق الحمامة:١١٦

والتقريع...الخ، كما تراوح أسلوب القصيدة بين الإخبار والطلب، مما منحها حيوية وإقناعا وتأثيرا، كما أن هذه الأساليب كلها تكشف عن توتر الشاعر وعن مشاعر الاغتراب في نفسه،يقول:

فَيَا دَارُ لَمْ يُقفِركِ مِنَّا اخْتِيارُنَا ... ولَو أنَّنَا نَسْطيعُ كُنْتِ لَنَا قَبْرَا

ويَا مُجْتَلَى تِلكَ البَسَاتين حَفَّهَا ... رِياضٌ قَواريرٌ غَدَتْ بَعْدَنَا غَبْرَا

ويا دَهْرُ بَلِّغ سَاكِنِيهَا تَحيَّتِي ... ولَو سَكِنوا المَرْوَيْن أو جَاوَزُوا النَّهْرَا

لئِنْ كَانَ أَظْمَانَا فَقَد طَالَمَا سَقَى ... وإنْ سَاءَنَا فِيهَا فَقَدْ طَالَمَا سَرَّا

وأيَّتُهَا الدارُ الحَبِيبةُ لا يُرمْ ... رُبوعَكِ جَونُ المُزْنِ يَهْمَي بِهَا القَطْرَا

ولم تزل قرطبة في الزيادة منذ الفتح الإسلامي إلى سنة (٤٠٠هـ) فانحطت ، واستولى عليها الخراب بكثرة الفتن ، وتغيرت معالم ذلك العمران، ومحيت آثار تلك القرى والبلدان على يد البربر، بل وحتى القرطبيين أنفسهم([1]) ، وهنا ابن حزم يشير إلى تبدل الحال، يقول:

كَأنَّك لَمْ يسكنك غِيدٌ أوانِسٌ ... وصِيدٌ رجالٌ أشْبهُوا الأنجمَ الزَّهْرَا

وتتعرض أحياء قُرْطُبَة إلى الاجتياح والتدمير والنهب الذي حدث بلا حساب، وهو ما كان له أبلغ الأثر في نفوس القرطبيين، الأمر الذي جعلهم يكنون الكراهية الشديدة لكل من ساهم في تدمير قرطبة ، وقد تتبع ابن حَيَّان تلك الأحداث في تفصيل دقيق ، ونلمح في كتاباته التاريخية شيوع روح النقد لديه ،و يصف ذلك الشخص الذي اختص بهدم القصور،وتخريب العمران بأسوأ الصفات وأحطها. فهذا الرجل وجد من هذه الطامة باب رزق ،"فصار تاجراً شهير السمعة يقصده الناس ليشتروا منه أشياء جليلة القدر،رفيعة القيمة ، بأبخس الأسعار([2]).

لقد أدرك الشعراء حجم الكارثة التي وقعت بقرطبة ،فهي محنة من أشد المحن التي عصفت بالأندلس، وكانت إيذانا بالخراب وبالسقوط ، ولذلك كثر بكاء قرطبة،وندبتها ألسنتهم .

وفي تاريخ قرطبة،و في عصر ابن شهيد بالتحديد،كانت تلك المدينة التي أحب الشعراء طبيعتها ونعيمها ، ولهوها ، كما أحبّوا الرخاء ورغد العيش فيها، ترزح تحت سعير الحروب والفتن المتوالية التي عصفت بأمنها فبددته، وضربت بطبيعة جمالها الفطري صفحاً عن مظاهر الحياة إلى الدمار والفناء ، فكان من نتاج تعلق ابن شهيد بها أن تركت في نفسه مواقف انفعالية

[1] المقري، نفح الطيب، المجلد الأول:٥٤١،٥٤٢ .

[2] ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، القسم الأول، المجلد الثاني:٦٠٠.

مؤثرة، فحَزِنَ أشد الحزن لفقدها ، وبكى رمز فخرها الضائع ، بكاء الفاجع اليائس من تغير الحياة،و تبدل النعيم بأسباب الدمار، ومظاهر الخراب ، فلم يملك ابن شهيد تجاه ذلك الحال إلا السخط البالغ،والبغض العميق لتلك الفتنة الجائرة،وأحداثها الناقمة والذي حمله في نفسه ، ثم ضمنه نظمه ، فجاءت معاني صوره تعكس جانباً من مكنوناته النفسية،فرثى مدينته بحزن بالغ ، وهو فتاها المدلل ، إذ شهد مأساة قرطبة وما زال في إبان شبابه ، يقول وهي أبيات تحمل مشاعر اليأس والضجر ، حضرت عاطفته في مفرداتها وعباراتها ومعانيها التي انتثرت ، تذكر مجدها الغابر، وما حصل لها من خراب الجنان والديار، وموت العلماء والرجال.

وعمد شعراء الأندلس إلى استيحاء الصورة الطللية ، على الرغم من انتفاء مسسببات وجود الصورة الطللية في الشعر؛لبعدها عن البيئة الأندلسية،إلا أن الأندلسيين قد درجوا على الإفادة منها في تصوير محنتهم، للدلالة على الخراب والفجيعة،يقول ابن شهيد([1]) :

مَا فِي الطّلُولِ مِن الأحِبَّةِ مُخْبِرٌ ... فَمَنْ الذي عَن حَالِهَا نَسْتَخْبِرُ
لا تَسألنَّ سِوى الفِراقِ فَإنَّهُ ... يُنْبِيكَ عَنهُم أنْجَدُوا أمْ أغْوَرُوا
أسَفِي على دارٍ عَهِدْتُ ربوعَها ... وظباؤُها بفنائِها تتبَختَرُ
أيّامَ كانَتْ كَفُّ كُلِّ سَلامَةٍ ... تسمو إلَيْها بالسّلامِ وتَبْدُرُ
نَفْسِي على آلائِها وصَفَائِها ... وبَهائِها وسَنائِها تَتَحَسَّرُ

و تشارك الطبيعة الإنسان في البكاء على قرطبة، ولعل الصورة المألوفة في الشعر العربي تتكرر هنا، فالطائر ينوح على الديار من كل جانب، ثم يتحول بكاء هذا الطائر إلى العويل، والشاعر يعكس خواطره على الطير، و يشاركه انفعالاته وأحاسيسه الحزينة الشاكية الباكية ، ومن هذه الأشعار هذه الأبيات التي خُطّت على جدران مدينة الزهراء المتداعية ، يقول أحدهم([2]):

دِيَارٌ بِأكْنَافِ المَلاعِبِ تَلْمَعُ ... وما إنْ بِها مِنْ سَاكِنٍ وهْيَ بَلْقَعُ([3])
يَنُوحُ عَلَيْهَا الطيرُ مِن كُلِّ جَانِبٍ ... فَيَصْمُتُ أحْيَانَاً وحِيناً يُرَجِّعُ
فَخَاطَبْتُ مِنْها طَائِراً مُتَغَرّدَا ... لَه شَجَنٌ فِي القَلْبِ وهو مُرَوَّعُ
فَقُلْتُ: عَلى مَاذا تَنُوحُ وتَشْتَكِي ... فَقَالَ عَلى دَهْرٍ مَضَى لَيْسَ يَرجِعُ

---

[1] ديوان ابن شهيد :٦٤.
[2] المقري، نفح الطيب، المجلد الأول:٥٢٣
[3] بَلْقَعُ: خالية من أهلها،ابن منظور،لسان العرب(بلقع).

وبكاء الدولة العامرية بكاء لقرطبة ، فالدولة العامرية أحاطت قرطبة بالرعاية والأمن والاستقرار ، وعهدهم حين مضى مضت قرطبة للهلاك . ولذا يستثمر السميسر رثاء العامريين وقرطبة ليوجه رسالته الزهدية ،يقول([١]):

أَصَـابَ الزَّمَـانُ بَنِـي عَـامَر ... وكَـانَ الزَّمَـانُ بِهِـمْ يَفْخَـرُ
فَعَـادَ نَهَـارُهُمُ مُظْلِمَـاً ... ولَـيلُهُمُ بَعْـدُ لا يُقْمِـرُ
وأيَّـامُهُمْ بَعْـدُ لا تَزْدَهِـي ... وصُـبْحُهُمُ ظَـلَّ لا يُسْـفِرُ

ومنها يقول :

فـأينَ السَّـرِيرُ وأيـنَ السُّـرورُ ... وأيـنَ القُصُـورُ التـي عَمَّـرُوا؟
فَـلا تَعْجَـبَنَّ بِمَـا قَـدْ تَـرَى ... فَـلا خَيْـرَ فِـي كُـلِّ مَـا تُبْصِـرُ

والسميسر يرى ما أصاب قرطبة مدعاة للعبرة والعظة ، ولا تكون العبرة - في الغالب- إلا في شأن عظيم ، يقول([٢]):

وقَفْـتُ بـالزَّهْرَاء مُسْـتَعْبِرَاً ... مُعْتَبِـراً أنْـدُبُ أشْـتَاتَا
فَقُلْـتُ : يَـا زَهْـرَا ألا فَـارْجِعِي ... قَالَـتْ : وهَـلْ يَرْجِـعُ مَـنْ مَاتَـا
فَلَـمْ أَزَلْ أبْكِـي و أبْكِـي بِهَـا ... هَيْهَـاتَ يُغْنِـي الّـدمْعُ هَيْهَاتَـا
كَأنَّمَـا آثَـارُ مَـنْ قَـدْ مَضَـى ... نَـوَادبٌ يَنْـدُبنَ أَمْواتَـا

ويعتمد الشعراء في التعبير عن المأساة التي ألمت بقرطبة من خلال إبراز صورتين متقابلتين لقرطبة، أولاهما صورة حاضر قرطبة المؤلم القاسي ، وما ارتبط به من وقائع القتل والتدمير والألم ،وما ترتب على تلك الأحداث من أسى عميق. والثانية صورة قرطبة قبل الفتنة ، وما اتصفت به من بهجة للنفس من خلال رسم صور الجمال الكلي لقرطبة عمراناً وبناءً وأمناً وأماناً ونصراً وسلاماً و وداعةً ووصالاً، وهي في الأغلب أيام أنس وصفاء .ومن خلال هاتين الصورتين المتقابلتين يبرز مدى التفجع والحسرة اللتين ملأتا قلوب الشعراء،ومن هؤلاء ابن زيدون،إذ تعصف الأحداث به فيسجن ، ثم يفر من سجنه في بطليوس وقد أظله عيد الفطر، فيذكر أيام لهوه في قرطبة. يقول([٣]) :

خَليلَـيّ ، لا فِطْـرٌ يَسُـرّ وَلا أضْـحَى ... فَمَـا حَـالُ مـنْ أَمْسَـى مَشُـوقاً كَمَـا أَضْـحَى ؟
لَـئِنْ شَـاقَنِي شَـرْقُ العُقَـابِ فَلَـم أزَلْ ... أخُـصُ بِمَمحُـوضِ الهَـوى ذلـك السَـفْحَا
ومَـا انْفَـكّ جُـوفّي الرَّصَـافَةِ مُشْـعِرِي ... دوَاعِـيَ ذِكْـرَى تُعقِـبُ الأَسَـفَ البَرْحَـا

---
[١] ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، القسم الأول، المجلد الثاني:٨٩٠.
[٢] المقري، نفح الطيب، المجلد الأول:٥٢٧.
[٣] ديوان ابن زيدون. تحقيق كرم البستاني، بيروت: دار صادر:٢١.

ولعل ترديد أسماء الأماكن يعبر عن مدى تعلق الشاعر بالأماكن واشتياقه إليها ، يقول :

ألا هَـلْ إلـى الزَّهْـراء أوْبَـةُ نَـازِحٍ تَقضَّـى تَنَائِيهَـا مَدَامِعُـه نَزْحَـا ([1])

وفي هذه القصيدة يردد ابن زيدون أسماء الأماكن التي ارتبطت بالدولة الأموية ،ويتناول الفتح بن خاقان تحليل البعد المكاني للقصيدة ، يقول([2]):"وهذه معاهد بني أمية قطعوا بها ليالي وأياما ، وظلت فيها الحوادث عنهم نياما ... فصاروا أحاديث وأنباء ، ولم يتزودوا منها إلا حنوطا وكباء، وغدت تلك المعاهدة تصافحها أيدي الغير، وتناوحها نعبات الطير، وراحت بعد الزينة سدى ، وأمست مسرحا للبوم وملعبا للصدى ،يسمع للجن بها عزيف ، ويصرع فيها البطل الباسل".وكلما زاد البعد والنوى بابن زيدون زاد شوقه ،يقول([3]):

زَمَـانَ رِيـاضُ العَـيْشِ خُضْـرٌ نَواضِـرٌ تَـرِفٌ وَأمْـوَاهُ السُّـرورِ جِمَـامُ ([4])
فَـإنْ بَـانَ مِنّـي عَهْـدُهَا فَبِلَوْعَـةٍ يَشُـبُّ لَهَـا بَـيْنَ الضُّـلوعِ ضِـرَامُ
تَـذَكّرْتُ أيْـامِي بِهَـا ، فَتَبَـادَرَتْ دُمُـوعٌ كَمَـا خَـانَ الفَرِيـدَ نِظَـامُ

ويأخذ البكاء على أيام قرطبة لوناً من البكاء على الشباب المنصرم فيصبحان وجهين لعملة واحدة ، بعدما ذهب المشيب بشبابه ،وذهبت الفتن بقرطبة ،يقول عبادة بن ماء السماء ([5]) :

سَـقَى اللهُ أيَّـامِي بقُرْطَبَـة المُنَـى سُـرُوراً كَـرِيّ المُنْتَشِـي مِـنْ شَـرَابِهِ
وكَمْ مُزِجتْ لِي الرّاحُ بالرِّيقِ من يَدِيْ أغَـرَّ يُرِينـي الحُسْـنَ مِـلءَ ثِيَابِـهِ

وامتزج بكاء قرطبة برثاء أهلها ، كما تم رثاء الضواحي القريبة من قرطبة المسماة بالمنيات ، ويروى المقري أبيات محمد بن أحمد بن جعفر المصحفي ، حفيد المصحفي وزير الحكم المستنصر قالها أثنا مروره بالمنية المصحفية ([6]) :

قِـفْ قَلِـيلاً بالمَصْـحَفِيّة وانْـدُبْ مُقْلَـةً أصْـبَحَتْ بَـلا إنْسـان
واسـألَنْهَا عـن جعفـر وسَـطَاه ونَـدَاه فـي سَـالفِ الأزْمَـان

و يقف أبو عبد الله بن الحناط في هذه الأبيات على تلك الإطلال الموحشة التي خلت معاهدها من الأحباب قائلاً([7]):

لَـوْ كُنْـتَ تَعْلَـمُ مَـا بِالقَلْـبِ مِـنْ نَـارِ لَـمْ تُوقِـد النَّـار بالهِنْـديِّ والغَـارِ

---

[1] النزح : استنزاف ماء البئر حتى ينفذ:ابن منظور،لسان العرب(نَزَحَ) ، استعارة لاستنزاف الدموع .
[2] ابن خاقان،أبو نصر الفتح،محمد بن عبد الله القيسي،قلائد العقيان ومحاسن الأعيان،الطبعة الأولى،تحقيق حسين يوسف خريوش،مكتبة المنار للطباعة والنشر والتوزيع،الزرقاء،الأردن ١٩٨٩م:٢٢٣
[3] ديوان ابن زيدون :٧١.
[4] جمام،واحدها جم،من الماء معظمه وأكثره:ابن منظور،لسان العرب(الجَمَمُ والجَمُّ)
[5] ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، القسم الأول، المجلد الأول:٤٧٣.
[6] المقري، نفح الطيب، المجلد الأول:٤٧١.
[7] المصدر نفسه:٥٠٣.

يـا دَارعَلْـوَةَ قَـدْ هَيّجْـتِ لِـي شَـجَنَاً وزِدْتِنِــــي حُرَقــــاً حُيِّيــــتِ مِـــــنْ دَارِ
كَـمْ بِـتُّ فِيـكِ عَلـى اللـذّاتِ مُعْتَكِفَـاً واللَيْـــلُ مُـــدَّرِعٌ ثَوْبَـــاً مِـــنَ القَـــارِ
كَأَنَّــهُ رَاهِـبٌ فِـي المِسْـحِ مُلْتَحِـفٌ شَـــدَّ المُجِـــدُّ لَـــهُ وَسْـــطَاً بِزُنَّـــارِ

يقول أبو الحزم بن جهور، وقد وقف على قصور الأمويين التي تقوضت أبنيتها، وعوضت من أنيسها بالوحوش أفنيتها ([1]):

قُلْـتُ يَوْمَـاً لِـدَارِ قَـوْمٍ تَفَـانُوا أَيْـــنَ سُـــكَّانُكِ العِـــزَازُ عَلَيْنَـــا ؟
فَأَجَابَـــتْ :هُنَـــا أَقَـــامُوا قَلِـيلاً ثُـــمّ سَـــارُوا وَلَسْـــتُ أَعْلَـــمُ أَيْنَـــا

الخسارة التي تلقاها الأندلسيون عظيمة ،لأن تدمير قرطبة محنة كبيرة لها تأثير عنيف على وجدان المجتمع كله ، ولذا فإن الشاعر الباكي يخاطب غيره من الناس كي يشاركوه مصابه،قال بعض شعراء قرطبة([2]) :

ابْـــكِ عَلـــى قُرْطَبَـــةَ الـــزَّيْنِ فَقَـــــدْ دَهَتْهَـــــا نَظْـــــرَةُ العَـــــيْنِ
أَنْظَرَهَـــا الـــدَّهْرُ بِأَسْـــلافِهِ ثُــــمَّ تَقَاضَــــى جُمْلَـــةَ الـــدَّيْنِ

كانت الخلافة صلبة قوية ، يمسك الخليفة بزمامها الى أن وصلت إلى الخليفة المستضعف هشام بن الحكم سنة (٣٦٦هـ)، وهو لم يبلغ الحلم ، والى ذلك يشير ابن الخطيب :"ووقع الاتفاق على تعيين هشام للخلافة مع وجود الأعمام الكهول ، وبني الأعمام الفحول ، أسود الهياج وغيوث المحول ،وهشام يومئذ صبي صغير يناهز عشر سنين ،مع ضعف في الأصل ، وعدوٍ في الخَصْل ، والكل على علم ، من انه لم يبلغ الحِلْم"([3]).

غير أن تعهد المنصور بن أبي عامر بالخليفة حافظ على وحدة الدولة وهيبتها وزاد في استقرارها ، وظلت الأمور في حجابة ابنه المظفر في غاية السرور حتى جرت الفتنة في عهد عبد الرحمن شنجول الذي طمح في تحقيق الخلافة اسما وفعلا لشخصه ، إذ لم يقنع بما ملكه ذووه.

لقد قامت دعائم نظام الحكم على أساس متين ، بذل فيه الناصر الأموي والمنصور العامري سنين من الجهد الشاق والعمل الدؤوب على ما اتصف به العامري من التفرد في السلطة، ومسحة من الشدة، ولكنه ضمن الأمن والتعايش السلمي بين مختلف عناصر المجتمع([4]).

[1] المقري، نفح الطيب، المجلد الأول:٥٢٥.
[2] ابن عذارى ، البيان المغرب،الجزء الثالث:١١٠.
[3] ابن الخطيب ، أعمال الأعلام :٤٤
[4] شيخة،جمعة ، الفتن والحروب وأثرها في الشعر الأندلسي:٦٢

أدرك الأندلسيون - لكن بعد فوات الأوان – نعمة الأمن والاستقرار التي كفل نظام المنصور العامري تحقيقها،و حافظ على وحدة البلاد واستقرارها، إذ إنّ بقاء الخلافة تحت سيطرة العامريين ، حمت البلاد من التشرذم ، والخلافة من الزوال . وابن شهيد يتحسر مرارة على ذهاب الخلافة الموحدة ، فبذهابها ذهب السلام معها ، يقول([1]):

أيَّامَ كَانَ الأمْرُ فِيهَا واحِداً | لأمِيرِهَا وأمِيُر مَنْ يَتَأمَّرُ
أيَّامَ كَانَتْ كَفُّ كُلِّ سَلامَةٍ | تَسْمُو اِلَيْهَا بالسّلامِ وَتَبْدُرُ

جاءت الفتنة ، فتعددت مراكز القوى ، وهاجت الأطماع، وكثر المدعون، وقامت الحروب الطاعنة ، بدعوى سياسيّة ظاهرة ،ومصالح دنيئة خفية جرّت الويلات على الأندلس ، ولم تستقر الأمور، ولم تهدأ الحروب والثورات والانقلابات ربع قرن من الزمان . قال أبو محمد بن حزم([2]):"واجتمع عندنا في صقع الأندلس أربعة خلفاء كل واحد منهم يخطب له بالخلافة بالموضع الذي هو فيه؛وذلك فضيحة لم ير مثلها دلت على الإدبار المؤبد، أربعة خلفاء في مسافة ثلاثة أيام، في مثلها كلهم يدعى بأمير المؤمنين "([3]).

دأب الحكام الأمويون في الأندلس على إعلاء شأن الحكم، وتصوير ذلك في أعين محكوميهم، وتعمّق هذا الإحساس منذ إعلان الخلافة عام (٣١٦ هـ)، وكان من قواعد الحكم الرئيسة عند الأمويين إظهار الهيبة، ومراعاة أحوال الشرع في كل الأمور، وتعظيم العلماء ، فتمكن ناقوس الخلافة من قلوب الناس، فكانوا يظهرون للناس في الأحيان على أبهة الخلافة، وقانون لهم في ذلك معروف ، إلى أن كانت الفتنة فازدرت العيون ذلك الناموس واستخفت به، ولا أصدق وأدلّ على ذلك من تولي الخليفة المستظهر مدة حكم لم تتجاوز سبعة وأربعين يوماً من يوم بيعته إلى يوم خلعه([4]).

وقد كثرت الإشارات الدالة على النقد السياسي الذي شاع بين الشعراء، فالاستخفاف بمركز بالخليفة، وازدراء العامة له- وهو رأس نظام الحكم – غدا واقعا يجهر الناس به،فضلا عن احتقار الوزراء والحجاب والعمال ،ومن ذلك أن أبا الربيع القضاعي([5]) التقى بفائز بن المغيرة أحد

---

[1] ديوان ابن شهيد :٦٦
[2] ابن عذارى ، البيان المغرب،الجزء الثالث:٢٤٤.
[3] وهم خلف الحصري باشبيلية على أنه هشام المؤيد بعد وفاة هشام باثنين وعشرين عاما، ومحمد بن القاسم الحسني خليفة بالجزيرة ، ومحمد بن إدريس بمالقة ، وإدريس بن يحيى بسبتة، ابن عذارى ، المصدر نفسه:٢٤٤.
[4] الحميدي، جذوة المقتبس :٢٧
[5] هو سليمان بن أحمد القضاعي أديب وشاعر من رجالات الذخيرة ، أنظر ترجمته: ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، القسم الثالث،المجلد الأول : ٤٩٩

وزراء هشام بن محمد الناصري المعتدّ في مدينة طرطوشة ، وكانت تجمع بينهم صداقة ، فعرض فائز على أبي الربيع أن يلحق به إلى قرطبة على أمل أن يستوزر للمعتد، فيجيء الرد واضحاً ومعبراً عن مدى استخفاف الناس بأمر الخليفة والوزير معاً. يقول أبو الربيع([1]):

هَبْكَ كَمَا تَدَّعِي وَزِيراً ... وَزِيرُ مَنْ أَنْتَ يَا وَزِيرُ
واللهِ مَا للأَمِيرِ مَعنىً ... فَكَيْفَ مَنْ وَزَّرَ الأَمِيرُ

والممعن النظر في أحداث الفتنة يدرك صغار الخلفاء الذين أفرزتهم الفتنة ، وعدم أهليتهم للقيام بأعبائها ، فهذا هشام المعتد ، سعى أهل قرطبة إلى بيعته ، فيدخل قرطبة على مرأى واستقبال حافل من الناس، لكن هيئة دخوله قرطبة سرعت باحتقار القرطبيين له، وتصغير شأنه ؛ لمخالفته أبهة الخلافة التي عرف بها الأمويون([2]).

ويصور ابن حيان دخول الناس على الخليفة الجديد في مجلس الخلافة،يقول([3]):" وغدا الملأ عليه ، ووصلوا على مراتبهم إليه ، وهو بمجلس الخلافة ، فظهر منه ليومه عيٌّ في القول ، احتاج إلى عبارة بعض الأكابر عنه ، وأنشده من حضر من أدباء الوقت ، فلم يهزه شيء من ذلك لنبوّ طبعه ".

ويستعمل الخليفة الجديد أراذل الناس فيجعل الحائك حكم بن سعيد وزيره الأول، فيحتاج حكم إلى رجال يستعين بهم في تدبيره، فلا يجد إلا كل ماجن سفيه، أو سوقي رذل، فكانت أيامه قاسية مؤلمة. يصور ابن حيان تلك الفترة بقوله:" اعترت الأمة شدة مرت لهم أيام علي بن حمود، فساءت أحوالهم لهذه السياسة المذمومة والوزارة المسخوطة"([4]).ومع ذلك نجد ابن حزم يمتدح المعتد بمناسبة توليّه الخلافة،ويتأمل أن يعود المجد الأموي بواقعه القديم حيث يزهو ألقه وبريقه،فيتحسر على ذهابه،وحاضرمؤلم يثير شكواه وغضبه، يقول ابن حزم ([5]):

أَسَاعَةُ تَوْدِيْعِيكَ أَمْ سَاعَةُ الحَشْرِ ... ولَيْلَةُ بَيْنِي مِنْك أَمْ لَيْلَةُ النَشْرِ
وَهَجْرُكِ تَعْذِيبُ المُوحِّد يَنْقَضِي ... ويَرْجُو التَّلاقِي أَمْ عَذابُ ذَوِي الكفُرِ
سَقَى اللهُ أَيَّامَاً مَضَتْ ولَيَالِياً ... تُحَاكِي لَنَا النَّيلُوفَر الغَضَّ فِي النَشْرِ
فَأَوْرَاقُهُ الأَيَّامُ حُسْنَاً وَبَهْجَةً ... وأَوْسَطُه اللَّيْلُ المُقَصِّرُ لِلعُمْرِ
لَهَوْنَا بِهَا فِي غَمْرةٍ وَتَآلفٍ ... تَمُرُّ فَلا نَدْرِي وتَأْتِي فَلا نَدْرِي

---

[1] المصدر نفسه: ٥١٤ .
[2] ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، القسم الثالث،المجلد الأول: ٥١٥.
[3] المصدر نفسه: ٥١٦.
[4] ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، القسم الثالث، المجلد الأول: ٥٢٠.
[5] ابن حزم، طوق الحمامة:٩٧.

فَأَعْقَبَنَــا مِنْــهُ زَمَــانٌ كَأَنَّــــهُ ولا شّـــكَ حُسْـــنُ العَقْــدِ أعْقِــبَ بالغَــدْرِ

وفسر ابن بسام موقف ابن حزم على أساس ميل ابن حزم السياسي للأمويين،يقول ابن بسام([1])":وكان مما يزيد في شنآنه تشيُّعُه لأمراء بني أميّة،ماضيهم وباقيهم بالمشرق والأندلس،واعتقاده لصّحة إمامتهم،وانحرافه عمن سواهم من قريش،حتى نُسب إلى النّصْب لغيرهم".

و يوظف ابن حزم في قصيدته من الأساليب الإنشائية التي تظهر انفعالاته، ولهفته إلى الحرية، والقفول نحو أهله وعشيرته، كأسلوب الاستفهام، وأسلوب النداء، والندبة وغيرها، وقد خرجت عن معناها الظاهر إلى سياق التفجع والندبة، إضافة إلى المقابلات والمفارقات في تصوير لوعته، وما صار إليه حاله وهو مقيد ،فابن حزم يعقد مقارنة بين زمانين: الأول ذكرياته وأيامه في قرطبة وتبدو أكثر بهاء وجمالا، وزمان ثانٍ غادر بدل تلك الصورة الجميلة، إلا أن ابن حزم لم يفقد أمله بعد بعودة ذلك الماضي مرة ثانية ، وهنا الشاعر يربط بين ملك أميّة الذي زال آنذاك ، حين أنشأ هذه القصيدة ،وبين تغير صروف الدهر الذي لا بد معه الصبر والتجمل ، يقول :

فَـلا تَيْأَسِـي يَـا نَفْـسُ عَـلَّ زَمَانَنَـا يَعُـــودُ بِوَجْــــهٍ مُقْبِــــلٍ غَيْـــرِ مُــــدْبِرِ
كَمَـا صَـرَفَ الـرحمنُ مُلْـكَ أمَيَّـةٍ إلَــــيْهِم ولُــــوذِي بالتَّجَمُّـــلِ والصـــــبرِ

ويكتوي ابن حزم بناري البعد عن قرطبة ، ونار البعد عن حبيبه، فقد جاشت فيها مشاعره للحبيب النائي عنه، مما عمل على زيادة الهلع عنده شعوره بعدم العودة إلى قرطبة والالتقاء بمن يحبهم مجدداً، يقول([2]):

وذي عِلّـةٍ أعْيَـا الطبِيـبَ عِلاَجُهَـا سَــــتُورِدُنِي لا شّــــكَّ مَنْهــــلَ مَصْـــــرَعِي
رَضِـيتُ بِـأنْ أضـحِي قَتِيـلَ وِدَادِهِ كَجَــــارِعِ سِــــمٍّ فِــــي رَحِيــــقٍ مُشعشـــــع

وفي القصيدة شكوى موجعة مما آلت إليه حاله من ضعف ونحول، و حنين عارم إلى أهله، وقد يئس من تقلب الليالي عليه،يقول:

فَمَـا لِلَيَـالِي مَـا أقَـلّ حَياءَهَـا وأوْلَعَهَــــا بــــالنّفْسِ مِــــنَ كُــــلِّ مُولِــــع
كَـأنَّ زَمَـانِي عَبْشَـمِيٌ يَخَـالُنِي أعَنْــــتُ عَلــــى عُثْمَــــانَ أهْــــلَ التَشَــــيُّعِ

والقضية السياسية التاريخية ،من تنكر بعض الشيعة لعلي رضي الله عنه،يوظفها ابن حزم في التعبير عن معانيه،ويعبر عن فعل الزمان به من خلال قاموس المفردات التي يمكن تناولها لتوضيح فكرة جفاء الزمان له،فابن حزم يصور الأشياء بمنظوره الخاص، الذي تطغى عليه الذهنية،لأن الانفعال العاطفي لا يطغى على الأبيات بكاملها،فحدّ -هنا – من سطوة الخيال.

[1] ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، القسم الأول،المجلد الأول:١٦٩.
[2] ابن حزم، طوق الحمامة:١٠٨.وورد شطر البيت الأول في رسائل ابن حزم الأندلسي،الجزء الأول:٢١٨:
وبي عِلّةٍ أعْيَا الطبِيبَ عِلاَجُهَا

المبحث الثاني - الغربة والاغتراب.

إن معنى الغربة في المعاجم العربية يشير إلى أكثر من دلالة، أبرزها وضوحاً تلك التي ترتبط بالمكان والانتقال عنه، فالأزهري في تهذيب اللغة يشير إلى هذا المفهوم بقوله([1]):"الغَرْب الذهاب والتّنحيّ،ويقال أَغْربته وغَرَّبته إذا نَحيّته، والغَرْب أيضا هو التّنحيّ عن حد الوطن".

ويشير ابن منظور في لسان العرب إلى هذا المعنى بقوله([2]):"الغُربة والغَرب النوى والبُعد،ويقال أغربته وغرّبته إذا نحيّته وأبعدته،والتَّغرِيب النفيّ عن البلد"،فالغُربة هي البُعد والتّنحيّ.

ويورد ابن فارس معنى الغُرْبَة([3]): البعد عن الوطن.يقال:غَرُب الدار،ومنه غروب الشمس،كأنّه بعدها عن وجه الأرض،وشأو مُغْرِب،أي: بعيد.

والجوهري في(الصحاح)يقول([4]):" التغريب النفي عن البلاد،وغرُب بَعُد،وأُغْرُب عني أي تَباعَد".

وعند ابن سيدة ورد من معاني الغَرْب([5]):الذهاب والتّنحيّ عن الناس،وغَرَبَ يَغْرُبُ غَرْباً.

وهكذا نجد أنّ لفظتي الغربة أو الاغتراب في المعاجم العربية قد استخدمتا-على الغالب- بمعنى الغربة المكانية، وهي الابتعاد عن الوطن، فقد أخذت الدلالة المكانية هذه سمة بارزة في المعاجم العربية.

أمّا في الاصطلاح فإن معنى الغربة قد أخذ مدلوله من معاني اللغة التي وردت بها، فهي على الأعمّ الأغلب ترتبط بنوعين من الغربة([6]):الغربة المكانية:هي ذلك الإحساس الذي يشعر به الإنسان في بعده عن وطنه ،وما زال الحنين والشوق يعاوده من آن لآخر معبرا عن غربته في

---

[1] الأزهري،تهذيب اللغة،منصور محمد بن أحمد،الطبعة الأولى،تحقيق محمد عوض مرعب،دار احياء التراث العربي،بيروت،لبنان،٢٠٠١،مادة غرب.
[2] ابن منظور،لسان العرب،مادة غرب.
[3] ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام هارون،دار الجيل،بيروت،مادة غرب.
[4] الجوهري، الصحّاح، دار الكتاب العربي، القاهرة، مصر، ١٩٥٦ م، مادة غرب.
[5] الزبيدي،محمد مرتضى الحسيني، تاج العروس،تحقيق عبد الستار أحمد فراح،نشر وزارة الإرشاد والأنباء الكويتية،١٩٦٥، مادة غرب.
[6] انظر عن أنواع الغربة:أشرف علي دعدور،الغربة في الشعر الأندلسي عقب سقوط الخلافة،الطبعة الأولى،دار نهضة الشرق،القاهرة،مصر،٢٠٠٢: ٢٢،٢٣،٢٤.

عالمه الجديد، ورغبته الشديدة في العودة إلى معاهده ودياره التي حالت الظروف دون عودته. ونجد التعبير عن هذه الغربة المكانية في أشعار الذين رحلوا عن ديارهم أو أجبروا على الرحيل .

والغربة الزمانيّة،ويقصد بها تلك الحالة النفسية التي تصيب الإنسان داخل وطنه في مرحلة زمنية غير ملائمة له تجعله يشعر بالغربة بين أهله ومجتمعه، ويعبر عنها بغربة الذات .

وتحت هذين النوعين من الغربة ألوانٌ أخرى من الغربة، كالغربة الروحية القائمة على الزهد والتصوف، وهي إحساس الشاعر بغربته في هذا الوجود ،كحالة كثير من الزهّاد الذين يتحدثون عن غربتهم في هذه الدنيا، وآمالهم في العودة إلى عالمهم الأول عالم الروح أو الآخرة،فهذه الغربة الروحية هي نتاج لكل العوامل التي أنتجت الغربتين المكانية والزمانية معاً وإن كانت تأخذ بعداً دينياً يتصل بنفس الإنسان وروحه،فهي مرتبطة ارتباطاً أساسيا بالدين الذي يحكمها، ويحدد مسارها وتوجهاتها، والذي يعمق الشعور بأن هذه الحياة التي نحياها وهذه الأرض التي نعيش عليها ليست هي حياة الروح الخالدة، ولا هذه الدنيا باقية،لذلك فهو يعيش فيها كأنه غريب ([1])،وهنالك غربة اجتماعية عن الأصدقاء والأقرباء.

لقد عرف شعر الغربة والحنين سبيله إلى القصيدة العربية في وقت مبكر،فالشاعر الجاهلي هزّه الشوق والحنين إلى الديار والأحبّة ،فوقف وبكى الأطلال،حتى غدت ظاهرة الوقوف على الأطلال صورة نمطية في الشعر الجاهلي،إذ يترفق به صاحباه في السفر،ويدعوانه إلى التماسك ،والتجلد بالصبر على ما حز فؤاده من فرط الشوق والأسى، مما مهد السبيل لهذه الظاهرة الإنسانية في الشعر العربي في كافة عصوره التاريخيّة بصورة أجلى .

أما شعر الغربة في الأندلس، كانت معالمه فيه أوضح،وتناوله فيه أسهب،وذلك أن بواعث موضوع هذا الشعر كانت أقوى، و ظهوره أشدّ،إذ إنّ العوامل الأساسية التي تعد سبباً مهماً في ظهور شعر الغربة،تتمثل في الأوضاع السياسية والاجتماعية التي مرت بها الأندلس ،فالفتنة التي أصابت الأندلس عقب سقوط الخلافة الأموية،وما نتج عنها من صراع مرير بين عناصر المجتمع الأندلسي تعد من أهم العوامل الأساسية في ظهور شعر الغربة وتفاعله.

إنّ تدهور الأوضاع السياسية والاجتماعية التي مرت بها الأندلس جعلت حياة الأندلسيين مضطربة قلقة، لا ينعم فيها أحد بالاستقرار بما في ذلك الشعراء،إذ إنّ سقوط مدينة قرطبة وما

[1] أشرف علي دعدور،الغربة في الشعر الأندلسي عقب سقوط الخلافة:١٧٣ .

أصابها من خراب ودمار وجّه الشعراء في هذه المرحلة للتعبير عن آلام الغربة، والبوح بذلك الإحساس العميق بالضياع في مجتمع انهارت دعائمه وأركانه .

فشعراء الفتنة عانوا القلق،فانعزلوا عن الناس، فكانت عزلتهم تلك هروباً من واقع أليم لا يستطيعون التكيف معه، فلجأوا إلى الماضي والذكريات ، والوقوف على الإطلال، والحديث عن أشواقهم وحنينهم وقلقهم الذي ينتابهم في رحيلهم الدائم، فوصفوا أسفارهم، وما يواجهون من صعاب ومتاعب، وفي هذه الأثناء قد يسترعي انتباه الشاعر طائر مغرد أو أي مظهرمن مظاهر الطبيعة، فيصفه وصفا نفسياً مجسداً فيه ألمه وإحساسه بالغربة، مدعياً أن ذلك الطائر قد أصابه ما أصاب الشاعر، فيبحر في عالم الذكريات والأحلام فيتذكر موطنه وزمانه. يقول ابن شهيد[1]:

وقـُلتُ لصَدَّاح الحمامِ وقد بكَى ... على القَصْرِ إلْفاً والدُّمُوع تجُودُ

فهو يخاطب كل حزين مغترب عن وطنه،كل حزين استمع إلى هديل الحمام وأشجانه ، وأثار فيه الحنين،فالخطاب خاص أيضاً. هذه الأبيات تمثل لنا تفرد الذات القلقة،فهو هنا لا يخاطب جميع الناس،وإنما خصّ مجموعة تفردت بحزنها واغترابها،يقول:

ألا أيُّها البَاكِي عَلى مَن تـُحِبُّه ... كِلانَا مُعنَّى بالخلاءِ فريدُ
وهل أنت دانٍ من مُحبٍّ نأى به ... عن الإلفِ سُلطانٌ عليه شَدِيدُ ؟

يتذكر الشاعر تلك الأيام التي قضاها في السير وراء أهوائه وملذاتها. فقد اهتم بالغواني، ولم يكن يفزع من البعد والفراق،ولا يصغي لصوت غراب البين،فقد كان الدهر مشرقا له، ولكن ما لبث أن عاد الشاعر إلى رشده، واستفاق من ذكرياته وأحلامه، ورأى تلك المعاهد قد خلت من الأحباب، حتى علت نبرة القلق، و نعب غراب البين، وصدمته النكبات والفتن، وكأن تلك النكبات بمثابة الفارس الجيد الذي يصيب برمحه الصميم، فتلك الخطوب قد أتعبته وأصابته بسلاح التعب والخوف، ولكنه شخص داءه ، و يريد معالجة اغترابه النفسي، فيرى العلاج بدعوة نفسه إلى التجلد والصبر.

و حتى في قصيدة المدح، فإن الحالة النفسية المضطربة تظهر بين كلمات الشعراء وإيحاءاتها، فإذا ما تناولنا أبيات ابن الحناط في مدح القاسم بن حمود ، نجد أن المطيّ تسير بالشاعر إلى إمام الدين،و الشاعر هنا يمزج بين الطبيعة وحالته النفسية، تلك التي أذكاها ذكر الديار والآثار ، فبكى و شكى ليجعل ذلك سببا لذكر أهلها الظاعنين عنها . والبكاء هنا يبرز شدة الشوق، وفرط

---

[1] ديوان ابن شهيد :٤٣ .

الصبابة،ليميل القلوب ،ويجلب إليه الوجوه، ويستدعي الأسماع إليه،لأن الحديث عن لواعج نفس الشاعر تعبير عن وحدة الذات الإنسانية ، يقول([1]):

بكيـــتَ لَهَـــا شَـــجْوَاً وهُـــنَّ الحَمَـــائِمُ　　يَـــنُحْنَ بِـــلا دَمْـــعٍ ودَمْعُـــكَ سَـــاجِمُ([2])
ولَمَّـــا عَلَوْنَـــا الحـــزُن واعْتَسَـــفتْ بِنَـــا　　رُسُـــومَ الـــدّيارِ الـــيَعْمَلاتُ الرَّوَاسِـــمُ([3])
لَوَيْنَـــا بأعْنَـــاقِ المَطـــيّ إلـــى اللّـــوى　　وقَـــدْ عَلمّتْنَـــا اللّبْـــث تِلْـــكَ المَعَـــالِمُ

وكانت الفتنة سبباً للرحيل ،لذا هي سبب مباشر في رفد شعر الغربة،وكما كانت الفتنة سبباً للرحيل كان المقابلة بين الزمانين: القديم والحاضر في وصف المعاناة التي يعيشها الشاعر في غربته، صورة نراها في التعبير عن سقوط قرطبة التي كانت مركزاً للخلافة ،ومن أشهر المدن المزدهرة في العالم لفترة طويلة في العهد العربي في الأندلس.يقول:

لـئِنْ أَوْحَـشَ الرَّبـعُ الـذي كَـانَ آنِسَـاً　　وأقْـوَتْ مِـنْ الحَـيّ الرُّسُـومُ الطّواسِـمُ
فَكَـمْ لَيْلَـةٍ فِيـهِ وصَـلْتُ نَعِيمَهَـا　　بِـأُخْرَى وأَنْـفُ الهَجْـرِ بِالوَصْـلِ رَاغِـمُ

ويرجع ظهور الغربة عند الشعراء إلى ما كان يسود عهد الفتنة من عدوان وظلم على الناس وعدم تقدير الحكام والمجتمع للشعر والشعراء؛لانشغال الحكام أو لجهلم بما يملكه الشعراء من موهبة والشعر من تأثير،ولربما وصلت عدوى تجاهل الشعراء من الحكام إلى المجتمع ككل.

ويضاف إلى ذلك أن بعض الطبقات الاجتماعية البسيطة استغلت الأوضاع المتدهورة، وتسلقت حتى وصلت إلى مكانة ومنزلة اجتماعية لم يكن بمقدورها الوصول إليها في ظل الأعراف والأنماط الاجتماعية السائدة قبل وقوع الفتنة ،فوصل عددٌ منهم إلى مراتب ومناصب دون امتلاكهم مقومات تجعلهم جديرين بها ،فزاحموا الشعراء والمفكرين في مكانتهم الاجتماعية وأزاحوهم عنها، مما عمق لدى الشعراء الإحساس بالمأساة.

---

[1] ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، القسم الأول،المجلد الأول:٤٤٦.
[2] ساجم:الدمع الغزير:ابن منظور،لسان العرب(سَجَمَ)
[3] أعتسفت :العَسْف:السير بغير هداية،والأخذ على غير الطريق:المصدر نفسه(عَسَفَ) والراوسم : جمع الرَّسْم :الأثر الباقي من الديار بعد أن عفت.:المصدر نفسه(رسم)

ولقد أخذ التعبير عن هذا النوع من الغربة صوراً متعددة تبدأ بذم الزمان الذي عاش فيه هؤلاء الشعراء، فهم يتوجهون باللائمة عليه، ويلتمسون العذر لأنفسهم أن جاءوا في زمن ليس بزمانهم على نحو ما نجد في قول ابن الحناط([1]) :

وما عَن قَلىً فارقتُ تُرْبةَ أَرْضِكُمْ ولكنني أشفقتُ فيها من الدفَنِ

والواقف على لفظة الدفن في البيت الأخير، يدرك مدى العلاقة بين الموت وبين تجاهل الناس لشعره، مما يعمق صورة إحساس شعراء الفتنة بالغربة،فالشاعر يخشى الموت، ويخشى أن شعره الثمين لا يستمع إليه أحد،فيصبح الشاعر مغمورا كأنه ميت سرعان ما يتناساه الناس بعد فترة وجيزة.

وقد شكا ابن حزم من تحول الدهر والزمان عنه، وشكا من تحول أخلاق الناس، ومن مضايقة أهل زمانه وكيدهم له، وله في ذلك عدة قصائد، منها هذه القصيدة التي ظاهرها الافتخار، وباطنها أسى مرير، وحسرة مؤلمة؛لما قوبل به علمه وشعره من إنكار وجحود، يقول ([2]):

أنا الشّمسُ في جوِّ العلوم مُنيرةً ولكنَّ عيبي أن مَطلَعِيَ الغَربُ
وَلَو أنّني مِن جانبِ الشّرقِ طَالِعٌ لَجَدّ علَى ما ضَاعَ مِن ذكريَ النّهَبُ

إنّ حسرة ابن حزم تبدو واضحة في هذه القصيدة، حسرته على ضياع علمه وسط أناس لا يقدرونه حق قدره.إن أزمته مع أهل عصره، كونه يعيش بينهم، فلو كان بروزه من جهة المشرق العربي، لرأوا علمه وأدبه،وأدركوا مكانته،وكأنّي به يعقد مقارنة بين أهل الأندلس الذين- حسب ما يرى- غير مقدرين لمكانته التي يستحقها،وأهل المشرق العربي الذين أدركوا قيمته وعلمه وأدبه،فإن يرحل إلى العراق،فسيعرف الأندلسيون الندم والتأسف على فقد عالم وأديب وفقيه، يقول:

ولِي نَحوَ أكنَافِ العِراقِ صبابةٌ ولا غَروَ أن يَستَوحِشَ الكلِفُ الصَّبُّ
فإن يُنزِلِ الرّحمنُ رَحلِيَ بينَهم فحينئذٍ يَبدو التّأسُّفُ والكَربُ
فَكَم قائِلٍ ،أَغَفَلْتهُ وهو حاضِرٌ وأطلبُ ماعنهُ تَجيءُ بِهِ الكتبُ
هنالك يَدري أنّ للبعدِ قصَّة وأنّ كسَادَ العِلمِ آفتهُ القُربُ
فَوا عَجَبَاً من غاب عنهم تَشَوَّقُوا لهُ ودُنُوُّ المرءِ من دراهمْ ذَنبُ

---

[1] ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، القسم الأول،المجلد الأول:٤٥٠.
[2] ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، القسم الأول،المجلد الأول:١٧٣،والمراكشي،عبد الواحد، المعجب في تلخيص أخبار المغرب،الطبعة الأولى،تحقيق محمد زينهم محمد عزب،دار الفرجاني للنشر والتوزيع،م١٩٩٤ م:٥٢.

وابن حزم يؤكد شكواه من الزمان والمكان وأهلهما يقول:

وإنّ مكاناً ضَاقَ عنِّي لضيّقٌ   على أنّه فِيحٌ مذاهِبهُ سُهبُ[1]
وان رِجالاً ضيّعُوني لضُيَّعٌ   وانَّ زَمَاناً لم أنَل خَصْبَهُ سَغْبُ

ففي هذه القصيدة تتدفق المشاعر بشكل فياض يستشعره القارئ في أبياتها، ويستيقن من أن هذه الأبيات صادرة من صميم وجدانه وعاطفته ، ومعبرة عن مكنونه، مما حدّ من ثقل فلسفته وتجريده في شعره الذي اشتهر به،ويرى أن الظلم الذي لحق به لحق بالأنبياء، فكما أن النبيّ يوسف- عليه السلام- أُبعد عن أهله ووطنه، فكذلك ابن حزم، يقول[2]:

ولكن لي في يُوُسفٍ خيرَ أسْوةٍ   وليسَ على من بالنبيِّ ائتَسَى ذنبُ

لقد عانى ابن حزم الأمرين وهو من عائلة ذات مكانة عالية صحبت الخلفاء والوزراء،فالفتنة لم تبعده عن قرطبة، وأنهت ما كان يحظى به من مكانة اجتماعية عالية فحسب، بل دفعته نحو السجن أو الرحيل عن قرطبة، فعانى ما عانى من مرارة البعد والاغتراب، وعاني أيضاً غربة من نوع آخر غربة عن الأهل والأقرباء جعلته يوسع دائرة الصراع مع المجتمع ككل، بما في ذلك من يرتبط معهم في النسب والدم كابن عمه، وإلى ذلك يشير سعيد الأفغاني بقوله[3]:"ويظهر أن العداء الذي ابتلي به ابن حزم من ابن عمه، وكان حريّاً به أن يقف إلى جانبه في محنته ، ولكنه آثر أن يعين الزمان عليه بدلاً من أن يعينه على الزمان "،ولذلك قال ابن حزم[4]:

كَفانِي بذكرِ الناس لي ومآثري   ومَالَكَ فيهم يا ابن عمّي ذاكِرُ
عدوّي وأشياعي كثيرٌ كذاك من   غدا و هو نَفّاعُ المساعي وضائِرُ
وإنّي وإن آذيتني وعَقَقتنَي   لمُحتِملٌ ما جاءَني مِنكَ صَابرُ

وتثير حفيظة ابن حزم الأمراض الاجتماعية كالحسد والنميمة والفضول في تسقط الأخبار رذائل ، كما تثير مشاعر الغضب في نفسه، ، وقد أشار إلى ذلك في كثير من مؤلفاته وأورد الأمثال والحكم في ذلك، منها[5]: " أزهد الناس في عالم أهله"، ويأتي بقول عيسى عليه السلام: "لا يفقد

[1] فيحٌ: السعة والانتشار:ابن مظور،لسان العرب(فيح)
[2] ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، القسم الأول،المجلد الأول:١٧٤.
[3] ابن حزم الأندلسي، المفاضلة بين الصحابة ، تحقيق سعيد الأفغاني: ١٣٦ .
[4] المقري، نفح الطيب، المجلد الثاني:٨٠.
[5] رسائل ابن حزم الأندلسي، الجزء الثاني:١٧٧، والمقري، نفح الطيب، المجلد الثالث:١٦٦.

النبي حرمته إلا في بلده "كما تناول هذه المعاني في شعره، مما يدل على عمق تأثيرها في نفسه مانحا إيّاها قالب الحكمة والخبرة والتجربة،يقول([1]):

لا يَشمَتَنَّ حَاسِدِي إن نَكبةٌ عرضَت	فالدَّهـــرُ لَـــيسَ علـــى حـــالٍ بِمُتَّـــرَكِ
ذُو الفَضلِ كالتِّبْرِ طوْراً تَحتَ مَيقَعَةٍ	وتـــارةً فـــي ذُرَى تَـــاجٍ علـــى مَلِـــكِ

ولعل ما يُلمس من أشعاره السالفة، إنما كان نابعا من شدة تعلقه بوطنه وقومه حين خابت آماله فيما كان يرجوه منهما من تفهم وتقدير([2]).

و قد شكا من بعض الحساد والمناوئين من أهل عصره، وتحسر على افتقاد كثير من القيم كقيمة المحبة والوفاء والمودة بين الناس والعلم؛لأن ابن حزم نفسه عانى من هذه الأمراض الاجتماعية، فقد امتحن بالناس، وتسقطوا أخباره في فضول عجيب، قصد الإيقاع به لدى الحكام،يقول ابن حزم([3]): "نكبني خيران صاحب المرية، إذ نقل إليه : من لم يتق الله عز وجل من الباغين- وقد انتقم الله منهم- عني وعن محمد بن اسحاق صاحبي([4])، أنا نسعى في القيام بالدعوة الأموية، فاعتقلنا عنده شهرا ،ثم أخرجنا على جهة التغريب، فصرنا إلى حصن القصر".

فأصبحت حياة الفرد الأندلسي مضطربة قلقة لا ينعم فيها بالاستقرار،حيث ينتقل من مدينة إلى أخرى عله يحقق مراده، وتسكن روحه ، ولذا كثرت الأسفار كما نجد عند عدد من الشعراء مثل ابن دراج وابن حزم، فمن هنا ليس غريباً أن يتوجه الشعر في هذه المرحلة للتعبير عن آلام الرحلة والغربة، والإحساس العميق بالضياع.

وكثرة الترحل في ظل هذه الظروف ، تعمل على بعث الجراحات في القلب ،وإبقائه دائم الألم ، شديد الحزن، يقول ابن حزم عن نفسه([5]):

ولّـــى فَـــوَلّى جِميـــلُ الصَـــبْرِ يَتْبَعُـــهُ	وصَـــرَّحَ الـــدّمعُ مَـــا تُخْفِيـــهِ أضْـــلُعُهُ
جِسْـــمٌ مَلُـــولٌ وقَلْـــبٌ آلـــفٌ فـــإذا	حَـــلَّ الفِـــراقُ عَلَيْـــهِ فَهـــو مُوجِعُـــهُ

---

[1] ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، القسم الأول،المجلد الأول:١٧٤.

[2] الدقاق ، عمر،ملامح الشعر الأندلسي ،بيروت ، لبنان : دار الشروق ،١٩٧٤.:١٢٥.

[3] ابن حزم، طوق الحمامة: ١٤٥.

[4] هو أبو بكر محمد بن اسحاق المهلبي الإسحاقي الوزير من أهل الأدب والفضل ،أنظر: الحميدي ،جذوة المقتبس:٤٠

[5] ابن حزم ، طوق الحمامة : ١٠٢.

لقد دفعت الفتن والدسائس التي شاعت في الأندلس في تلك الفترة الشعراء نحو الاغتراب النفسي، إذ إن كل شخص في تلك الحقبة كان يسعى لتحقيق طموحه وأطماعه في جو مفعم بالقلق والخوف، فترك كل ذلك أثرا سيئاً في الحياة الاجتماعية، لذلك تجنب شعراء هذه الغربة الاختلاط بالناس، فهم يتوجسون منهم،وينفرون من لقائهم، لأنهم –حسب ما يعتقدون- يجدون الشر في مخالطة الناس أو بعض منهم، ولا يجنون إلا الندم في مصاحبتهم،كما أتاح لهم ذلك فرصة النسك والعبادة والتقرب إلى الله، وهو مالا يتحقق بوجودهم بين الناس، لا سيّما أن نظرتهم للإنسان نظرة لا تلمح فيه سوى الشر والغدر والخداع،فكثر تنقلهم، يقول عن نفسه:

لَـمْ تَسْتَقِـرَّ بِـهِ دَارٌ ولا وَطَـنٌ	ولا تَـدَفّأ مِنْـهُ قَـطّ مَضْـجِعُهُ
كَأنَما صِيغ مِن رهْو السحَابِ فما	تَـزَالُ رِيْـحٌ إلـى الآفـاقِ تَدْفَعـهُ
كأنَمـا هـو توحيـدُ تضـيقُ بـه	نفـسُ الكفـورِ فتـأبى حـين تُودَعـهُ
أو كوكـبٌ قـاطعٌ فـي الأفُـقِ مُنْتقـلٌ	فالسـيرُ يُغربُـه حينـاً ويُطلعُـهُ

ولعلّ ما وجده ابن حزم وجده غيره من الشعراء،فأثّر في حياتهم ولا سيمّا أبناء الطبقة الرائدة في المجتمع الأندلسي التي كانت تتمتع بنفوذ سياسي قبل الفتنة كابن شهيد، فقد كان من بيت جاه وسيادة، فضلاً عما تميّزت حياته بأسباب خاصة،عبر عن بعض منها في أشعاره ،فوصف مشاعره اتجاه الناس ،وأكثر الحديث عنها، و من ذلك قوله وقد أراد الخروج من قرطبة إلى مالقة حيث يحيى بن علي المعتلي ([1]):

أرَى أعْيُنـا تَرنـو إلـيّ كأنَمـا	تُسـاوِرُ منهـا جـانبيَّ أراقِـمُ
أدُورُ فـلا أعْتَـامُ غيـرَ مُحـاربٍ	وأسْـعَى فـلا ألقَـى امـرءًا لـي يُسـالِمُ
ويَجْلـبُ لـي فَهْمـي ضـروباً مـنْ الأذى	وأشْـقَى امـرئٍ فـي قَرْيَـةِ الجهْـلِ عـالِمُ
وأوجَـعُ مَظلـومٍ لقلـبٍ وذي حِجـيً	فتـىً عربـيٌّ تزْدريـهِ أعـاجِمُ
غَنيتُم عَلى ما تَزْعَمون عن الوَرى	لقـد سَـفِهَتْ تلـك الحُلـومُ الـزواعِمُ

وهذه المفردات التي يشع منها شعاع الاضطراب والقلق: كمحارب، ويسالم ، وأوجع مظلوم وغيرها تعبر عن ازدحام صورة الاغتراب النفسي لديه،كما تعبر عن افتقاره للاستقرار، و في هذا القصيدة، تتسم ألفاظها وعباراتها بالغضب والاستنكار، وقد عملت أساليب

[1] ديوان ابن شهيد : ١٣٨ .

النداء والأمر والتعجب وغيرها من الأساليب الإنشائية على إبراز هذا الجانب الانفعالي في نفسه اتجاه تلك الفئة من الناس،يقول:

وهل يُقْدمُ البازي على الطيرِ في الضُّحَى إذا زالَ عَــنْ ريــش ِالجنــاحِ القــوادِمُ
سَــلامٌ علــيكم لا تحيَّــةَ شَــاكِرٍ ولكــن شَــجَى تنســدُّ منــه الحَلاقِــمُ
ومــا قُرِعَــتْ سِــنِّي علــيكم نَدامَــةً وأوشِــكْ غَــداً أنْ يَقْــرَعَ السَّــنَّ نَــادِمُ

ثم يتوج هذا القلق باليأس من فئة من الناس:

عَلــيكمْ بِــداري فَاهــدِموها دَعائِمــا فَفــي الأرض بنّــاءون لــي وَدَعــائمُ

هذا الانتقال السريع هو أسلوب الالتفات، وهو أحد المعالم البارزة في لغة المغتربين يتفننون به لذكر موطنهم القديم وموقعهم الجديد الحاضر، وهو إلحاح نفسي يحمل قسوة الحاضر،فهو يخاطب كل مفجوع برحيل عزيز عليه ،ولم يفرح بقدومه،وكل من كذبته الأماني والأحلام، فالخطاب خاص بطائفة متفردة،وهي الطائفة المسرورة برحيله.

وهذه المعاناة النفسية التي وصفها الشاعر من خوف وقلق تصور اغترابه النفسي ،وحدة تأثير الأحداث على مواقفه التي لم تعد ثابتة ، ولذا استخدم التضاد في التعبير عن تلك المعاني، و أشار إلى قدرته على التحول وفق تحول الظروف ،فقد تحولت السيادة والقوة من اليد العربية إلى العمائم البربريّة، ،وإن هضم بنو أميّة قدره، عرف العلويون ذلك القدر،وإن كان هنالك من يضمر الشر له،فإن له من الأخوان الكثر الذين يغدقون عليه محبتهم. يقول:

لــئنْ أخرجَتْنــي عــنْكُمُ شَــرُّ عُصْــبَةٍ فَفــي الأرضِ إخــوانٌ علــي أكــارِمُ
وإن هشَــمَتْ حَقِّــي أَميــةُ عِنــدها فَهَاتِهــا علــى ظهــر المحَجَّــةِ هاشــمُ
ولا غْــرو مــن تلــك القلانِــسِ جَانِبــا إذا عَرَفــتْ حقِّــي هنــاك العَمَــائِمُ

ويعبر ابن شهيد عن حظه العاثر من خلال إسباغ الدموع على الوجنات، مما يدل على مدى إحساسه بالإحباط نتيجة الأحداث المستمرة أثناء الفتنة، يقول:

ولمــا فَشَــا بالــدَمْعِ مــن سِــرٍّ وجْــدنا إلــى كاشِــحينا مــا القلــوبُ كــواتِمُ
أَمرنــا بإمســاكِ الــدُّمُوع جفونَنــا ليَشْــجَى بمــا يطــوِي عَــذولٌ ولائِــمُ
فضــلّتْ دُمــوعُ العــيْنِ حَيْــرَى كأنَهــا خِــلال مآقينــا لآلٍ تَــوائِمُ
أَبَــى دَمْعُنــا يَجْــرِي مَخافــةَ شَــامِتٍ فَنَظّمــه بَــيْن المَحَــاجِر نَــاظَمُ
ورَاقَ الهَــوى منّــا عُيُــونٌ كَرِيمــةٌ تَبسَّــمْنَ حتــى مــا تَــرُوقُ المَبَاسِــمُ

ويعتقل ابن شهيد ويودع في السجن ويذهب ماله بوشاية الحاقدين عليه، فينشد قصيدته في السجن يستعطف الخليفة، يقول(1):

قَرِيبٌ بِمُحْتَلِّ الهَوَانِ مَجِيدُ يَجُودُ ويَشْكُو حُزْنَهُ فَيُجِيدُ
نَعَى ضَرَّه عِنْد الإمَامِ فَيَا لَه عَدُوٌّ لابناءِ الكِرَامِ حَسُودُ

ويحاول ابن شهيد أن يقلل من حدة قلقة واكتئابه الذي يسيطر عليه،ويسلي نفسه ويهدئ من روعها قائلا لها: إنه ليس أول شاعر يجتمع عليه الحساد والوشاة فيتآمرون عليه وإنما قد سبقه لذلك شعراء كثيرون ،ويبين أن تهمته هي تفرده بالشعر ونبوغه فيه على رقة طبعه وعلو ذكره، يقول :

ومَا ضَرَّه إلاَّ مُزَاحٌ ورِقةٌ ثَنَتْهُ سَفِيه الذِّكْرِ وهْو رَشِيدُ
جَنَى ما جَنَى في قُبَّةِ المَلْكِ غَيْرُهُ وطُوِّق مِنْه بالعَظِيمَةِ جِيْدُ
ومَا فِيَّ إلاَّ الشِّعْرِ أَثْبَتَهُ الهَوَى فَسَارَ بِه فِي العَالَمِين فَرِيدُ

ويفرق ابن شهيد بين نظم الشعر وبين مصداقية هذا الشعر فجمال الشعر في حسن المبالغة والتعبير عن المعاني ، كما أنها توضح رأي ابن شهيد في الشعر كضرورة نفسية،كما أنّ"شجن هذا الشاعر صاحب الآراء عن الشعر،وقيمة الشاعر مثل حق يبين ما اتصف به حكام البربر من جهل في الحقيقة، وادعاء للعلم مضحك"(2). يقول :

أفُوهُ بِمَا لَمْ آتِهِ مُتَعَرِّضَاً لحُسْنِ المَعَانِي تَارَةً فأزِيدُ

هذه الأوضاع وهذه الأسباب دفعت شاعرنا إلى الاغتراب النفسي والاغتراب عن وجوده في عالم لم يعد عالمه، إذ أصبح عالمه دنيا الذكريات والأحلام،أما الواقع الحي الذي يعيشه فكان واقعا قلقا مكتئباً، ولذلك تأهب ابن شهيد للموقف بكل شجاعة،فوقف بصورة أكثر وعيا ويقظة وتركيزا للواقع الصعب القلق الذي يتعايش معه من خلال تغير المواقف والعودة إلى ذكريات الماضي، فقد كان واعيا بالأفكار التي تجول في مخيلته ،وإن نظمه سبب في شقائه لعدم قدرة الناس على تفهّمه،فما هو متهم به سرّ سعادته بمحاسن النظم ، يقول :

فَإنْ طَالَ ذِكْرِي بالمُجُونِ فَإنَّنِي شَقِيٌّ بِمَنْظُومِ الكَلامِ سَعِيدُ

إن اضطراب الأوضاع السياسية جعلت من شخصية ابن شهيد الذي كان قبل الفتنة من فتيان القصر المدللين المقربين من ذوي الشأن شخصاً يقبع اليوم في السجن ، وحيداً ، يستشعر مرارته وقسوته ، مما يستثير عنده صورته الماضية بين أقرانه الفتيان، يقول :

1 ديوان ابن شهيد :٤١ .
2 ديوان ابن شهيد:٤٢

فَمَــنْ مُبْلِــغُ الفِتْيَــانِ أَنِّــي بَعْــدَهُم مُقِـــيمٌ بِـــدَارِ الظَّـــالِمِين وَحِيـــدُ
مُقِــيمٌ بِــدَارٍ سَــاكِنُوهَا مِــنْ الأَذَى قيـــامٌ عَلـــى جَمْـــرِ الحِمَـــامِ قُعُـــودُ

ويلتفت ابن شهيد إلى صدّاح الحمام، الذي شاركه في البكاء والدموع ويجد علامات تشابه بينهما فتأتي أبياته على نسق قصصي عماده حوار يسوقه على لسان حاله،يقول :

وقُلــتُ لِصَّــداحِ الحَمَــامِ وقَــدْ بَكَــى عَلـــى القَصْـــرِ إلفَـــاً والـــدُّمُوعُ تَجُـــودُ
وهَـلْ أنْـتَ دَانٍ مِـن مُحِـبٍّ نَـأى بِـه عَـــن الإلـــفِ سُـــلْطَانٌ عليـــهِ شَـــدِيدُ
فَصَــفّقَ مِــن رِيــشِ الجَنَــاحِين واقِفَــاً علـــى القُـــربِ حَتَّـــى مَـــا عَلَيْـــه مَزِيـــدُ
ومَـــا زَالَ يَبْكِينِـــي وأبْكِيـــهِ جَاهِـــداً وللْشَـــوقِ مِـــن دُونِ الظّلُـــوعِ وُقُـــودُ
إلـى أنْ أبْكِـى الجُدْرانِ مِن طُولِ شَجْوِنَا وأجْهَـــشَ بَـــابٌ جَانِبَـــاهُ حَدِيـــدُ

فالصورة معبرة، إذ امتزجت الطبيعة بعواطفه اليائسة ، وانفعالاته الحزينة من حال الفساد الضارب في الزمان وأهله. ثم ينتقل إلى الخليفة بعد تلك المقدمة التي تعبر عن حالته النفسية الباكية ،يقول :

أَطَاعَــتْ أَمِيــرَ المُــؤمِنينَ كَتَائِــبٌ تَصَـــرَّفُ فـــي الأَمْـــوالِ كَيْـــفَ يُرِيـــدُ
فللشَّــمْسِ عَنهَــا بالنهــارِ تَــأَخَّرٌ وللبَـــدْرِ عَنْهَـــا بـــالظّلامِ صُـــدودُ

إنه القلق من الحاضر والرغبة في استمرار الماضي بكل ما فيه ،ولذلك نراه في الأبيات التالية يصف رحيله ولكن هذا الوصف لم يكن تقليديا بل نشعر فيه بعمق التجربة، وقوة الحزن والأسى ،ومع انتقاله مادحاً ومستعطفاً فإنه يحمل نفسه المتعبة في ثنايا المدح، فصور الحياة بلاعب تقذفه وتجذبه بين النحس والسعادة :

ألا إنَّمَـــا الأَيَـــامُ تَلْعَـــبُ بـــالفَتَى نُحُـــوسٌ تَهَـــادَى تَـــارَةً وسُـــعُودُ

ويبين ذلك الجمال الحسي للطبيعة لمشاركتها الشاعر، إذ يمزج بين اضطرابه النفسي الناجم عن الحزن البالغ وضعف الأمل لديه بصورة حركية للطبيعة، قربت الصورة المعمقة لذلك اليأس والألم، يقول([1]):

سَـــهرتُ بهـــا أرْعَـــى النَّجُـــوم وأنجُمـــا طَوالِـــعَ للـــرَّاعِين غَيْـــرَ أَوافِـــلِ
وقَـــدْ فَغَـــرَتْ فاهَـــا بِهـــا كُـــلُّ زَهْـــرَةٍ إلـــى كُـــلِّ ضَـــرْعٍ لِلغَمَامَـــةِ حَافِـــلِ

[1] ديوان ابن شهيد الأندلسي :١٢٩

وَمَـــــرَّتْ جُيـــــوشُ المُـــــزنِ رَهـــــوْاً كَأَنَّهَـــــا   عَسَـــاكِرُ زِنْـــجٍ مُـــذْهَبَاتُ المَنَاصِـــلِ

وتَحْسَـــــــــبُ صَـــــــقْرَاً وَاقِعـــــــاً دَبَرَانَهَـــــــا   بعُـــشٍّ الّرَيَّـــا فَـــوقَ حُمْــرِ الَحَواصِــلِ

وبَـــــدْرُ الـــــدُّجى فِهـــــا غَـــــدِيرَاً وحَوْلَـــــهُ   نُجُـــومٌ كَطَلّعَـــاتِ الحَمَـــامِ النَّواهِـــل

كأَنَّ الدُّجى هَمّي ودَمْعِي نُجُومُـــــــــهُ   تَحَدَّرَ إِشْـفَاقَاً لدَهْـــــــــرِ الأَراذِلِ

وابن شهيد يدس خصومه له عند المستعين، فيرد عليهم بقصيدة تؤكد موهبته وقدراته الشعرية التي يقدح بها خصومه، يقول ([١]):

أَمَـــا عَلِمـــوا أَنِّـــي إلـــى العِلـــمِ طَـــامِحٌ   وأنّـــي الـــذي سَـــبْقاً عَلـــى عِرقِـــهِ يَجْـــرِي

ومَـــا كُـــلُّ مَـــنْ قَـــادَ الجِيـــادَ يَسُوسُـــهَا   ولا كُـــلُّ مَـــن أَجْـــرَى يُقَـــالُ لَـــهُ مُجْـــرِى([٢])

وانحصر موضوع الغربة في تذكر الوطن والتشوق إلى معاهده، وشكوى الغربة والابتعاد عن الأرض والأهل والخلان، والندم على الاغتراب، وتصوير الحسرات لفقدان البلد، والبعد عنه، وبث التجارب الذاتية للشعراء في ديار الغربة، وتصوير ملاعب الصبا وتذكر أيامهم وعهودهم السعيدة في ديارهم.وظل الشاعر الأندلسي يتمزق قلقاً وإحساساً بالغربة،وظلت شكواه عنيفةً،وحنينه متوقداً.

وذهب بعض شعرائهم إلى تقريع مجتمعهم، وتفضيل بيئات أخرى كالعراق والشام عليها؛ لأنها تقدر قيمة عظمائها وعلمائها، حتى ممن جاء من الشعراء بعد عهد الفتنة كأبي بكر ابن بقي([٣])يقول بقي([٣])يقول ([٤]):

أَقَمْـــتُ فـــيكم علـــى الإقتـــارِ والعَـــدَمِ   لـــو كنـــتُ حُـــرّاً أَبـــيَّ الـــنّفسِ لـــم أَقِـــمِ

---

[١] ديوان ابن شهيد : ٦٨.

[٢] البيت مشهور،وهو لعلي بن الجهم.أنظر البيت :ديوان علي بن الجهم،الطبعة الثانية،تحقيق خليل مرد بك،دار الأفاق الجديدة،بيروت،لبنان:١٤٦

[٣] أبو بكر ابن بقي، وشاح وشاعر أندلسي، ولد في طليطلة،واختلف مؤرخو الأدب في اسم أبيه، كما كان جوابا لايقر له قرار، ولم يتخذ مسكنا أو موطنا، وكان أول ظهور له في دولة المعتمد بن عباد. انظر ترجمته :ابن خلكان،وفيات الأعيان، المجلد السادس:٢٠٣،وانظر عدنان محمد آل طعمة ،موشحات ابن بقي الطليطلي وخصائصها الفنية،الجمهورية العراقية،وزارة الثقافة والفنون،سلسلة كتب التراث(٤٧)١٩٧٩م :٣٣ وما بعدها

[٤] المقري،نفح الطيب،المجلد الثالث:٤٤٨.

فــــلا حـــــديقتُكم يُجْنــــى لهــــا ثَمَـــرٌ   ولا ســــــــــماؤكُمُ تَنْهَـــــــلُّ بالـــــــــدِّيَمِ

ومن الشعراء الذين عانوا من الغربة الشاعر ابن زيدون فنسمعه يقول في غربته بأقصى شرق الأندلس([1]):

غَريــبٌ بأقصـــى الشــرقِ يَشــكُو للصَّــبا   تَحْملهـــا منــــه السَّـــلامَ إلـــى الغَـــرْبِ
ومَــا ضَــرّ أنْفــاسِ الصَّــبا فــي احْتِمَالهــا   ســلامٌ هَــوى يَهْدِيــه جِسْــمٌ إلــى القَلْــبِ

هكذا عبر الشعراء عن غربتهم ووحدتهم،فالانفعال العاطفي جامح،والأفكار العامة بينة واضحة، والألفاظ الموحية عن الغربة منتقاة ،مع اختلاف الشعراء في أساليبهم وعباراتهم.إلا أن الإحساس والشعور واحد،ولكن نلحظ وجود تفاوت في درجة الإحساس بالغربة والاغتراب.

[1] ديوان ابن زيدون:١٨ .

الفصل الثالث: أثر الفتنة في الشعراء

المبحث الأول: أثر الفتنة في الشعراء

المبحث الثاني:أثر الفتنة في شعر ابن شهيد وشعر ابن دراج .

المبحث الأول: أثر الفتنة في الشعراء

كشفت الفتنة عن جملة من النتائج الخطيرة على الوجود العربي في الأندلس، فهذه النتائج التي أسفرت عنها ، والأحداث التي تزامن وقوعها ما يقارب ربع قرن، وهي أحداث - بلا شك - أثرت في خبرة الشعراء، وتركت أثاراً واضحة في ثنايا أعمالهم، و في توجيه الشعر و وجهة الشعراء.

و لقد أوضحت كيف بدأت جذور الفتنة تنمو شيئا فشيئا، فظهرت سيقانها منذ أن استكثر الناصر من الصقالبة، وجاء المنصور بن أبي عامر فنماها ورعاها بالإكثار من البربر، حتى حلوا محل العرب، وتناوبوا على القيادة .

وسرعان ما أثمرت هذه الجذور بعد موت المنصور وابنه المظفر، غير أن ثمر هذا الغرس كان ضاراً غير نافع، صعب التخلص منه،لأنه سريع الانتشار، ولسرعته تطاولته النيران، وألهبته ريح العصبية، فمكنت له المكث وحدة التأثير، وأصاب في صميم الفرد والمجتمع والدولة.

وأحداث السياسة المتتابعة وتخبطها جعلت المواقف الإنسانية غير ثابتة لكثير من الناس، وبقدر تخبط المجتمع تبعا للمصالح والمواقف كان تخبط الشعراء.ولم تتركهم الفتنة حتى أصبحوا كالريشة يتخطفها الهواء حسب اتجاهه قوة وانحسارا، كما أصبحوا كسفينة في عرض البحر تتخطفها الريح من كل جانب، حائرين في مصيرهم تتنازعهم أهواؤهم ورغباتهم من جهة،والرهبة من جهة أخرى.

وفي فترة الفتنة لم تثبت مواقف معظم الشعراء، والمعادلة الرياضية الثابتة هنا المعادلة الطردية، فكلما قوي موقف الممدوح وسيطر على مقاليد القوى توثقت علاقة الشعراء به ،توددا ومدحاً وثناءً، فما أن يهزم أو يقتل حتى ينعطفوا عنه ازدراءً وسخطاً . يصور ابن حيّان حالة الشعراء عندما تسلم زمام السلطة سليمان بن الحكم الملقب بالمستعين، يقول ([1]) : "واغتنمته شعراء العامرية والدولة الأموية، وقد نسجت على أفواههم ومحاريبهم العناكب أيام الحرب والفتنة، واشتدت فاقتهم، وحمت طباعهم، وكانوا كالبزاة الفذَّة الجياع، انقضت لفرط الضرورة على الجرادة، فلم يبل صداهم، ولا سدّ خلتهم لاشتغاله بشأنه واشتداد حاجة سلطانه ".

ولعلّ الصورة المؤلمة التي أوردها ابن حيان لحال الشعراء تشير إلى عمق تأثير الفتنة في حياتهم وتفكيرهم وتكوينهم النفسي.

---

[1] ابن الخطيب، أعمال الأعلام:١٢٢.

ولمّا كان الشعر في أصله تعبيراً عن حالة شعورية أو لحظة تأمليّة مدفوعة بمقتضيات نفسية وفكرية، كان لتلك المؤثرات دورها في اتجاه الشعراء حسب المقتضيات النفسية والفكرية. و من هنا يمكن تعليل ميل الشعراء نحو اتجاهات مختلفة في حياتهم الفكرية والسلوكية ، وانعكاس تلك النظرة في شعرهم، وفي حفز ذوقهم في اتجاهات محددة ، أو لنقل بصورة أشمل في تشكيل ذوقهم الشعري، وعند تأثرهم بالمواقف والرغبات، والتكوين النفسي المرتبط بالصفات والطبائع والمعتقدات والأفكار والمؤثرات الخارجية.

مال عدد من الشعراء أثناء الفتنة إلى تعميق الهزل والطرافة في حياتهم، وظهر هذا التوجه في أشعارهم، فإن عدداً من الناس إذا ما رأوا قسوة الظروف وصعوبتها مالوا إلى مقابلة تلك الحالة بصورة هزلية.

ولا أدعي بأنَّ الفتنة غيّرت الطباع ، باعتبار الطرافة طبعاً إنسانياً ، إلا أنّ الفتنة وجدت مناخا خصبا لتعميق تلك السمات، وفي إحداث تأثير في السلوك. فالأديب الشاعر محمد بن مسعود([1]) يمثّل تلك الحالة،ويخاطب المستعين قائلاً ([2]):

هَلْ لَكَ يَا مَوْلاي في طُرْفَةٍ — تُنْسِيكَ حُسْناً طَرَفَ المُتحِفينْ ؟
لَيْسَ عَلَى مُرْسِلها نحوكُمْ — من حَرَجٍ إنْ راح صِفْرَ اليمينْ
قد أبدعَتْ أهزالُ أشعارِهِ — في العالمَ السّحْرَ الحلالَ المُبِينْ
لكنَها كاسدةٌ هَا هُنا — أكْسَدُ منها في قرى شُرِيُون ([3])
ليس على عاتِقِه عُقَدةٌ — إلاَ مِنَ البردِ لأجْلِ اليمين
وانتُتِفَتْ عَنْفَقَتِي بعدَ مَا — شِبْتُ وذا من حُرْفَةِ المُملقِين ([4])
وكنتُ ذا هَدْي وسَمْتٍ إلى — أن لَفّني موجُ الخَنَا والمُجونْ
ولا بَدَيعٌ لا ولا مُنْكَرٌ — أن يُفْسِدَ الدِّينَ صلاحُ البطون
فعلتُ في آخِر عُمْرِي كَمَا — تَفْعَلُ شَاةُ السوءِ بالحالبِينْ
وكان صَوْتِي قَبْلَ ذَا فتنةٌ — تَسْتَنْزلُ الطّيرَ بِحُسْنِ الرَنين

إنّ حالة الهروب من واقع مؤلم، كان المتنفس له عند عدد من الشعراء هو الميل إلى الهزل والطرفة، مما ساق الشعر إلى هذا الميل،فهي تبيّن أنّ الملوك انشغلوا بأمور الحكم والسياسة ،وأنّ الصلة كادت تنقطع بينهم وبين النّاس،فهي تقف عند هذه المشكلة،ترصد آثارها،لا في الناحية

---

[1] هو أبو عبد الله محمد بن مسعود، عرف ناثرا أكثر منه شاعرا، توفي ٤٣١هـ انظر: ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، القسم الأول،المجلد الأول:٥٤٩ ، و ابن بشكوال ، الصلة :١٦٣.

[2] ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، القسم الأول، المجلد الأول:٥٥٨.

[3] شُرِيُون:حصن من حصون بلنسية. أنظر: الحموي، ياقوت، شهاب الدين، أبو عبد الله، معجم البلدان. الطبعة الثانية: دار بيروت للطباعة والنشر، ١٩٨٤، الجزء الثالث:٣٨٦.

[4] عَنْفَقَتِي:العَنْفَقةُ:ما بين الشفة السفلى والذَّقن منه لخفّة شعرها: ابن منظور،لسان العرب(العَنْفَقُ)

النفسية وحدها،بل في تهيئة الظروف الإجتماعيّة والسياسيّة التي وجّهت الفكاهة هذه الوجهة، ولننظر في أبيات محمد بن مسعود يروي فيها قصة لص أخذه في طريق قرطبة ، يقول مخاطباً المستعين(١):

قَـيّضَ اللهُ لِـي مِـنَ ابنـا أَبِـي الـرّ ... يـــشِ غَلـــيظَ الفُـــؤادِ ذَا كِبْرِيــــاءِ
لَـمْ يَكُـنْ مِثلَـه مِـنَ أوْلادِ جـالُو ... تَ و لكـــنَّ مِـــنْ فِـــراخِ الزّنــــاء(٢)
قَـالَ لِـي قُرْطَبِـيٌّ انْـتَ تَحَيّـل ... تَ ورَاقَبْـــتَ غَفْلَـــةَ الرُقبـــاءِ ؟
مـا أنَـا – يـا فَـدَيتكم – قُرْطَبِـيٌّ ... قَـــالَ دَعْ ذَا فَلَـــيْسَ حِـــينَ انْتِمَـــاء
وقُـلِ الحَـقَّ والفَصَـاحَةَ خَـلّ ... لـــيس هَـــذَا بِمَوضِـــعِ الفُصَحــــاء
الشّـعِيرَ الشّـعِيرَ دَعْنِـي مِـنَ الشّـعْ ... رِ أنَـــا الآنَ أشْـــعَرُ الشّـــعَرَاء

ومنها يقول :

كُنْـتُ يَممـتُكم أرَجّـى حَيـاةً ... فِـــي اتّصـــالٍ بِكُـــم فَمُـــتُّ بِـــدَائِي
وَخَرَجْنَـا كَمَـا دَخَلْنَـا بِـلا شَـيْ ... ءٍ ولكـــنْ رَبِحْـــتُ صَـــفْعَ قَفَـــائِي
مُـدَّ فِـي ذا المكـانِ ذا الحَـرْفُ لَمَـا ... مَـــدَّهُ صَـــفْعُ ظَـــالِمٍ باعْتِـــدَاءٍ

وفي جانب الميل إلى الطرفة نرى أن ابن شهيد له منه نصيب، وما تناوله من معانٍ يكشف عن تمتعه بروح الفكاهة والتحرر والعبث البالغ حدَّ الإسراف ، على الرغم من قلة ما تطرق له من المعاني الشعرية في ديوانه ، كقوله يلهو(٣) :

أذّنَ الدِّيـكُ فَـثُـبْ أو ثـوِّبِ ... وانـــضَحِ القَلـــبَ بمَـــاءِ العِنـــبِ
وتـأمَّـلْ آيــةً مُـعـجـزةً ... مـــا قَـــرَأنَا مِثلَـــها فـــي الكُتُـــبِ
رَكَـعَ الإبْـرِيـقُ مِـنْ طَـاعَتِـهِ ... وبَـــكَى فَابْتَـــلَّ ثَـــوْبُ الأكْـــوبِ

ولقد دفعت الأحداث المتتابعة في قرطبة الشعراء إلى إحساس بالإحباط ،فانعدام الأمن ، وكثرة القتل، والاضطهاد السياسي، وتبدل الأحوال الاقتصادية من السعة إلى ضنك العيش، وقلة ذات اليد وغلاء السعر، وغيرها من الأسباب المندرجة تحت ظرف الفتنة ؛لذا لم يغب الحديث عن اللهو والشراب في قصائد الشعراء، الذين اتخذوا الإغراق في التلهي والشراب سبيلا للنجاة من أحداث الفتنة الشنعاء، يقول عبادة بن ماء السماء(٤):

اجْـلُ المُدامـةَ فَهـي خَيـرُ عَـرُوسِ ... تَجْلُـــو كُـــروبَ الـــنّفسِ بـــالتّنْفِيسِ
واسـتَغْنمِ اللـذّاتِ فِـي عَهْـدِ الصّـبا ... و أوانِـــهِ لا عِطْـــرَ بَعْـــدَ عَـــرُوسِ

---

(١) ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، القسم الأول،المجلد الأول:٥٥٩

(٢) فراخ الزّنا:كناية عن شدة المكر والكيد.

(٣) ديوان ابن شهيد الأندلسي ، تحقيق يعقوب زكي:٩٢

(٤) ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، القسم الأول، المجلد الأول:٤٧٢.

لذلك كان للفتنة تأثير على المجتمع، حكاما ومحكومين، شعراء وأدباء وأصحاب فكر وفقه،فالبيئة الشعرية المناسبة لحاجات الشعراء اختلت تماما ؛إذ انشغلت آذان الأمراء والخلفاء وقادة المجتمع عن سماع صوت الشعراء؛ لانشغالهم بما هو أعظم من منادمة الشعراء ومجالسة الأدباء ،و لم يجد عدد من الشعراء بدّاً من الخروج عن قرطبة، والبحث عن البيئة المنشودة للشعراء، و التي يتوافر فيها العطاء والأمن والحظوة والتقدير، وقد صرح الشعراء بذلك في مقدمات قصائد المديح ،فابن الحناط يقول([1]) :

تَفرغتُ مِنْ شُغْل العداوةِ والظّعْنِ وَصِرتُ إلى دارِ الإقامةِ والأمْنِ
أمقتولةُ الأجفانِ من دمعِ حُزنِها أفيقي فإني قدْ أَفَقتُ مِنَ الحُزنِ
فَللهِ سيري يومَ ودعتُ صُحبَتي زَماعاً ولمْ أقرَع على نَدَم سِّني([2])
رحَلتُ فَكَمْ مِنْ جؤذرٍ وغضنفرٍ يَروِّي الثرَى مِنْ فضْل أدمُعِهِ الهُتْنِ([3])

لقد بدلت الفتنة حياة الأدباء والشعراء من حالة الاستقرار إلى حالة الاضطراب فهم في الأمس يجلسون في مجلس العامريين، وقد كفاهم المنصور العامري حاجاتهم، وأكرمهم وأغدق عليهم ، ووجدوا البيئة المقدرة لمواهبهم وملكاتهم ، واليوم الحكام مشغولون بالصراعات والأحداث ،ولم يلتفتوا إليهم ،ولم يسدّوا حاجاتهم .

فهذا صاعد البغدادي([4])،أكرمه بالأمس المنصور بن أبي عامر، وجعله من ندمائه، ، ومدحه ولزمه ، وله معه مجالس تروى،فقد أراد المنصور بن أبي عامر اختباره، لدعوى الحاسدين عليه بالنَحِلة، فطلب منه أن يصف له بركة ماء داخل قصر المنصور، فقال بديهة قصيدة ، منها([5]) :

أبَا عَامرٍ هلْ غَيرُ جَدواكَ واكِفُ وهَلْ غَيرُ مَنْ عاداكَ في الأرضِ خَائِفُ
يسوق اليكَ الدهرُ كُلَّ عَجيبةٍ وأعجبُ ما يلقاهُ عِندَكَ واصِفُ

فاستحسن المنصور له يومئذ تلك البديهة، وكتب المنصور الأبيات بخط يده، ولفت نظر صاعد إلى جارية بجوارهم، تجذف بمجاذف ذهب، لم يرها صاعدٌ، فقال المنصور: أجدتَ إلاّ أنك لم تصف هذه الجارية ، فقال له صاعدٌ ([6]):

وأعجبُ منها غادةٌ في سفينةٍ مُكللّةٌ تصبو إليها المهايفُ ([1])

---

[1] ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، القسم الأول، المجلد الأول:٤٥٠.
[2] زَماع:السرعة والعجلة: ابن منظور،لسان العرب ،(زمع).
[3] الهُتْنِ : المطر العنيف الغزير، ابن منظور،لسان العرب،مادة هتن.
[4] صاعد البغدادي:هو صاعد بن الحسن بن عيسى الرَّبَعيُّ من أهل اللغة والأدب،دخل الأندلس واتصل بالمنصور بن أبي عامر فأكرمه وأفرط بالإحسان إليه انظر ترجمته : الحموي،ياقوت،معجم الأدباء :١١:٢٨١.
[5] ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، القسم الرابع، المجلد الأول: ١٨،١٩.
[6] المصدر نفسه: ١٩.

إذا رَاعها مَوْجٌ منَ الماءِ تتّقي	بِسُكّانِها ما أنذَرتْهُ العَواصِفُ
متى كانَتِ الحسناءُ ربَّانَ مَركبِ	تُصرَّفُ في يمُنى يَديها المَجاذِفُ
فلمْ ترَ عيني في البلادِ حديقةً	تُنَقِّلُها في الرَّاحتينِ المَناصِفُ
ولا غَرْوَ أنْ شاقَتْ معاليكَ رَوْضَةٌ	زَهَتْها أزاهيُر الرُّبى والزَخارِفُ

فأمر له المنصور بألف دينار ومئة ثوب ما بين غلائل وطيقان وعمائم وأجرى عليه المراتب من ذلك اليوم ثلاثين ديناراً، وألحقه في ديوان الندماء مع زيادة الله بن مضر الطُّبي، وابن العريف،وابن التياني، وغيرهم "([2]) .

والثابت أن المنصور العامري كان يصطحب معه شعراء الدولة العامرية في غزواته ، كما كان يجلس لهم في إقامته بقرطبة، ففي غزوته الثالثة عشرة لمدينة برشلونة سلك طريق البيرة إلى بسطة ، إلى تدمير ، فدخلها عنوة يوم الاثنين في النصف من صفر سنة أربع وسبعين وخمس وسبعين بعدها ([3])، وأثناء مروره بالبيرة على رأس جيشه توافر له من شعراء الدولة العامرية أربعون شاعراً " من الشعراء المرتزقين بديوانه من يذكر، فضلاً عن سائر الأصناف على ندارة هذا الصنف من الخدام، بالنسبة للبحر الزاخر من غيرهم"([4]).

هذا السخاء والتكريم اللذان وجدهما الشعراء قبل الفتنة قد انقطعا وتبدّلا بعد وقوع الفتنة.وللنظر إلى حال صاعد الذي يغرم بمائة مثقال أثناء الفتنة، فاستغاث الأمراء، ولم يلتفتوا إليه، ولم يسدّوا حاجته ، وكان ممن استغاثهم علي بن وداعة([5])يقول صاعد في ذلك([6]):

وإني عَائِذٌ بِكَ من هَنَات	نَحَتْنَ دَعَائِمي نَحتَ القِداحِ
فَكُرَّ عَلى ابن عَمِّكَ وانتشلْهُ	فَليسَ حمى ابن عمِّكَ بالمُبَاحِ

لكنه لم ينتفع به، فاستغاث الخليفة هشام المؤيد، ولم يحصل على مبتغاه ،وقد اضطربت الأحوال في قرطبة، وارتجت الفتنة، وضاع أمر صاعد بين غلاء سِعْرٍ ورُخْصِ شعر ، حتى اختل وعجز عن ستر ولده وأهله([7])، ثم لجأ إلى أبي زيد البكري صاحب شلطيش سنة(٤٠٣هـ)،ومنها ذهب إلى صقلية حيث تحسنت حاله قليلاً ، ثم عاد إلى قرطبة أيام المستعين مادحاً ، "فما أنجح معه ولا أفلح

---

[1] المهايفُ :جمع الْمِهياف وهو من اشتد عطشه،ولا يصبر عليه : ابن منظور،لسان العرب(هيف)
[2] ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، القسم الرابع، المجلد الأول: ١٩.
[3] ابن الخطيب ،الإحاطة في أخبار غرناطة ،المجلد الثاني:٦٠.
[4] المصدر نفسه:٦٠.
[5] أمير، فارس من الأبطال موصوف بالأدب البارع والشعر الرائع ، انظر ترجمته : الحميدي ، جذوة المقتبس: ٢٨٣
[6] ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، القسم الرابع، المجلد الأول: ٥٤.
[7] المصدر نفسه: ٥٥.

فَرَئمَه رئمان العلوق ([1])،ولم يَقْرِه قرضاً لاستحالته عن فعل الجميل جملة ، ثم عجل الانكفاء إلى صقلية ، ومات بها سنة عشر و أربعمائة "([2]).

ويمكن تعليل مدح عدد من الشعراء مثل ابن دراج القسطلي وعبادة بن ماء السماء وابن مقانا الأشبوني وغيرهم للعلويين وأمراء الشيعة من بني حمود في هذه الفترة الزمنية بدوافع انتهازية طارئة؛ بأنَّ هذه المدائح ارتبطت بالظرف السياسي المستجد الذي قذف بالحموديين إلى مركز الحكم ،وهذه المدائح أيضا لا تخرج عن كونها مدائح شعراء كلبهم الدهر، وعضتهم الحاجة، فاشتد عليهم الزمان وضاق بهم الحال، فأسرفوا في مديحهم طمعا في نوال ممدوحهم.

وقد مدحوا غير بني حمود بأوصاف تعارض هذه الأقوال، مما يدل على انتهازية لا عقديّة في مواقفهم، يقول ابن دارج عن سليمان بن الحكم الأموي([3]) :

سَـمِيُّ النَّبِـيِّ المُصْـطَفَى وابـن عَمِّـهِ   ووَارِثُ مَـا شَـادَتْ قُـرَيْشٌ وعَـدْنَانُ

ويقول في المرتضى آخر بني مروان ([4]):

لِمَـنْ بَيْعَـةُ الرِّضْـوَانِ إِذْ غَـابَ جَـدُّهُ   وَبَيْعَـةُ رِضْـوَانٍ رَعَـى اللهُ حَقَّهَـا

ويبدو أن عبادة كان في ضيق حياة وضنك عيش، ثم تميز بالحرص القاتل. يقول ابن شهيد : " إن عبادة مات في مالقة مغتما عندما ضاعت منه مائة مثقال"([5]).

وشكا ابن مقانا الأشبوني([6]) زمانه، ثم عاد زارعا بعد تطوافه على ملوك زمانه ومدح ملوك الجزيرة كلها([7]) . وكان ابن الحناط الضرير" سيء الظن بمعارفه شديد الحذر على نفسه فاسد التوهم في ذاته "([8])، وما بالغ في مدح بني حمود إلا لخوفه من أبي الحزم ابن جهور .يقول ابن عبد الملك المراكشي ([9]): " وكان ابن الحناط ممن خاف من أبي الحزم بن جهور بسبب ما شاع

---

[1] العلوق، هي الماشية التي ترأم بأنفها وتمنع درتها: ابن منظور،لسان العرب(عَلَقَ)
[2] ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، القسم الرابع، المجلد الأول: ٥٥
[3] من نونيته المشهورة، انظر ديوانه: ٥٤ – ٥٩.وانظر: ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة القسم الأول،المجلد الأول :٧٠ .
[4] ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة القسم الأول،المجلد الأول: ٨٢ .وانظر القصيدة في ديوانه:٨١ - ٨٦
[5] ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة القسم الأول،المجلد الأول : ٤٧٠ - ٤٧١ .
[6] عبد الرحمن أبو زيد ابن مقانا الأشبوني أديب شاعر أدرك المعتد بالله، وله فيه مدائح.أنظر: الحميدي ،جذوة المقتبس: ٢٤٧،و ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة،القسم الثاني،المجلد الثاني: ٧٨٦ .
[7] ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة القسم الثاني،المجلد الثاني: ٧٨٧ ، ٧٨٨، ٧٩٣ .
[8] انظر رواية ابن حيان عند ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، القسم الأول، المجلد الأول: ٤٣٨.
[9] المراكشي،محمد الأنصاري ،الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة،الطبعة الأولى،تحقيق احسان عباس،دار

عنه من هجائه إياه ، فلحق ببني حمود، وهاجر إليهم ،وأكثر من مديحهم ، وطار ذكره بالتشيع فيهم، والاختصاص بهم ".

ويلاحظ أن الشعراء الذين مدحوا علي بن حمود، أو القاسم بن حمود، أو إدريس بن يحيى من أمثال ابن دراج القسطلي، وعبادة بن ماء السماء، وابن الحناط، وابن مقانا كانوا يصفون ممدوحهم بابن الرسول([1])، كقول عبادة :

صَــلّى عَلَيْــكَ اللهُ يَــا ابــن رَسُــولِهِ   ووَليِّـــهِ المُخْـــتص بَعْـــدَ خَلِيلِـــهِ

و قول ابن دراج في خطابه لعلي بن حمود :

فَكُــونِي شَــفِيعي إلــى ابــن الشّــفيعِ   وكُــونِي رَسُــولي إلــى ابــن الرّسُــولِ

ومنها أيضا:

إلــى ابــن الَوصِــيِّ إلــى ابــن النَبِــيِّ   إلــى ابــن الــذّبِيحِ إلــى ابــن الخَلِــيلِ

أو يصفونهم بالهاشميين أو الطالبيين أو الفاطميين ، يقول ابن دراج :

إلـــى الهَاشِـــميّ إلـــى الطالبـــيِّ   إلــى الفَــاطِميّ العَطُــوفِ الوصــولِ

والمتتبع لأبيات القصيدة يجد أن الشاعر قد ساق معانيه، وانتقى ألفاظه ومفرداته التي تتناسب وأفكار التشيّع، فهو الشفيع ابن الشفيع، الهاشمي الطالبيّ الفاطمي ،وغيرها من الألفاظ ذات الدلالة. لقد استفاضت المعاني والعبارات لتنسجم مع تلك المعتقدات .

فالشعر هنا صدقت فيه المقولة "لكل مقام مقال"، فهو يدندن حسب ما يطرب له ممدوحه الذي يتغنى بمعاني الفكر الفاطمي حينئذ، وقد تسللت ريحه من شمال أفريقيا ، ويزفر به الحموديون.

و علّق ابن بسام على هذه القصيدة بقوله([2]):" والقصيدة من الهاشميات الغر، تذكرنا بقصائد دعبل بن علي الخزاعي ، والكميت الأسدي". وقد يجهرون بحبهم لآل محمد كصنيع ابن الحناط في قوله :

إنْ كَــانَ عَــدّوا حــب آل محمــد   ذَنْبــاً فــإنِي لَسْــتُ مِنْــه أتَــوبُ

أو قول ابن مقانا في نونيته المشهورة([3]):

يَــا بَنــي أحمــد يَــا خَيْــرَ الــوَرَى   لأبِــيكُم كَــانَ رِفْــدُ المُســلِمين

خُلِقُــوا مِــنْ مَــاء عَــدل وتُقَــى   وجَميــعُ النَّــاسِ مِــن مَــاءٍ وطِــينْ

الثقافة،بيروت،لبنان،١٩٧٣، ٦ : ٢٢٢ .

[1] تم تناول هذه الأبيات في الفصل الأول،المبحث الثاني، وتم توثيقها من مصادرها

[2] ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة القسم الأول، المجلد الأول: ٨٨.

[3] المصدر نفسه، القسم الثاني،المجلد الثاني: ٧٩٣

انْظِرُونُـــا نَقْتَــبَسْ مِـــنْ نُـــورِكُم إنَّـــه مِـــنْ نُـــورُ رَبِّ العَـــالَمِينْ

ونجد مصطلحات تشيّع واضحة عند ابن الحناط الكفيف مثل قوله بعلي بن حمود([1]) :

إمَـامُ وصَــيّ المُصْـطَفَى وابــن عَمّــهِ أبُـــوه فَـــتَمَّ الفَخْـــرُ بـــين أبٍ وابـــن

أو قوله عن يحيى الحمودي([2]) :

لَـــئِن كَـــانَ مِـــنْ قَبْلِـــه جَـــدّه عَلـــ ينَـــا الوَصِـــيُّ فَهَـــذَا الأمِـــينْ

ويذهب ابن بسام إلى القول بأن عبادة بن ماء السماء" كان يظهر التشيع في شعره "، ويستدل على ذلك بقول عبادة في يحيى بن حمود من قصيدة له يظهر تشيعه صراحةً و مذهبا،وما قامت به قبيلة قيس من موالاة لعلي بن أبي طالب ، ومحاربة بني أمية ، يقول([3]) :

فَهَـــا أنَـــا يَـــا ابـــن النُبُـــوَّة نَافِـــثٌ مِـنْ القَـولِ أَرْيَـاً غَيْـرَ مَـا يَنْفِـثُ الصِّـلُّ([4])

وعِنْـــدِي صَـــرِيحٌ فِـــي وَلائِـــكَ مُعْـــرِقٌ تَشِـــيُّعُه مَحْـــضٌ وبَيْعَتْـــهُ بَتْـــلُ

وَوَالـــى أَبِـــي قَـــيْسٌ أَبَـــاكَ عَلـــى العُـــلا فَخَـــيَّمَ فِـــي قَلْـــبِ ابـــن هنـــدٍ لَـــهُ غِـــلُّ([5])

فآراء عبادة هذا ومصطلحات ابن الحناط تلك تشابه ما مدح به الحموديين من قبل، واستمر عدد من الشعراء في التعبير عن معانيهم بألفاظ ذات دلالة كوصف القاسم بابن هاشم، وإمام الدين. يقول ابن الحناط ([6]):

سَـــقَى مَنْبِـــتَ اللّـــذّاتِ مِنْهـــا ابـــنُ هَاشِـــمٍ إذَا انْهَمَلـــتْ مِـــن راحَتَيْـــه الغَمَـــائِمُ

إمَـــامٌ أَقَـــامَ الـــدّينَ حَـــدُّ حُسَـــامِهِ طَرِيـــرَاً ومِنْـــهُ فِـــي يَـــدِ اللهِ قَـــائِمُ

ويُزْهِـــرُ فِـــي يُمْنَـــاهُ نُـــورٌ مِـــن الظّبَـــا لَـــهُ مِـــنْ رُؤوسِ الـــدَّارِعِينَ كَمَـــائِمُ

وكـان مـن نتـائج الفتنـة تأثيرهـا الحـاد علـى نفسـية الشـعراء ، فـامتلأت بالإحبـاط وعبّـت مـن بحـر المـرارة والإحسـاس بالضـياع ، فلـم تجـنح إلـى حـلٍّ سـليم يـداوي جراحاتهـا ، بـل أخـذ طـرفٌ مـنهم

---

[1] ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة القسم الأول، المجلد الأول: ٤٥١.
[2] المراكشي،محمد الأنصاري،الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة: ٦: ٢٢٣.
[3] ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة القسم الأول، المجلد الأول: ٤٧٨.
[4] الصِّلُّ: السيف القاطع،: ابن منظور،لسان العرب(صَلَل:صلَّ)
[5] يشير إلى موالاة قبيلة قيس لعلي بن أبي طالب ضد معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهم أجمعين .
[6] ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة القسم الأول، المجلد الأول: ٤٤٦.

بالإسراف في الإقبال على كأسه بنهم، وإفناء متاعبه في الملذات ، يقول عبادة بن ماء السماء معبراً عن ذلك صراحة ([1]):

فَهَلْ تـرى أحسَنَ مـن أكـؤسٍ ... يُقبّـل الثغـرُ عَلَيهْـا اليـدا ؟
يَقـولُ للسَاقِي أغثْـنِي بهـا ... وخُـذْ لُجَيْنـاً وأعـدْ عَسْـجَدا
أغـرِقَ فيهـا الهـمُّ لكـنْ طفـا ... حَبابُهـا مِـنْ فوقِهـا مُزْبـدا
كأنّمـا شَيّبـها شـاربٌ ... أمْسَـكَها فـي كَفِـهِ سَـرمدا

ويقول في قصيدة أخرى([2]) :

اشـرَبْ فَعَهْـدُ الشَـبَابِ مُغْتَـنَمُ ... وفُرصـةٌ فـي فواتِهـا نَـدَمُ
وعاطنيهـا بكـفٍّ ذي غَيَـدٍ ... ألحاظـهُ فـي النفـوسِ تَحْـتَكمُ
كَأنّهـا صـارمُ الأمـيرِ وقَـدْ ... خَضَّـب حدَّيْـهِ مـن عـداهُ دَمُ
واحْـذُ بِتِـذّكَارِهِ الكـؤوسَ فَمَـا ... يَلَـذّ نُقْـلاً سـوى ثَنَـاهُ فَـمُ

وكما أن المصائب والفتن لها تأثير سلبي على حياة الناس ، فإنّ لها أيضاً تأثيرها الإيجابي على حياتهم، ومن هنا ظهر هذا الجيل من أبناء قُرْطُبَة من أمثال ابن حَيَّان، وابن حَزْم، وابن شُهَيْد، ممن حاول كل منهم في ميدان علمه تقصى الحقيقة والبحث عن علاج لمحنة بلدهم .

ويرى محمود إسماعيل أن الأزمات " جديرة بأن تشحذ العقول الذكية ، وتنتج مفكرين مخلصين يصطبغ تفكيرهم بالمرارة،ويحاولون البحث عن علة ذلك الداء الذي عانى منه بلدهم،ومحاولة تكوين مشروع سياسي اقتصادي اجتماعي"([3]) ، وللفتنة أثر حاد في قادة المجتمع، من حيث تقييم أسبابها ونتائجها والتأثر بها. ولاشك بأنّ الفتنة صقلت تجاربهم الشخصية، وعملت على توجيه طباعهم وأذواقهم قوة وانكماشاً،فهذا ابن حزم يعبر عن خلاصة تجاربه،ونظراته في الدهر والزمان، وتأملاته في أخلاق الناس وفي الحياة والموت وما بعد الموت، ومنها هذه الأبيات من قصيدة يؤكد فيها على قيمة الدين وقيمة العرض... معتبرا ما دونهما من أمور الحياة يسير، لأنها لا تدوم فقال([4]):

صُنِ النَّفْسَ عَمَّا عَابَها وارفُض الهَوى ... فـإنَ الهَـوى مُفْتـاحُ بَـابِ المَهَالِـكِ
رَأيـتُ الهَـوى سَـهْلَ المَبـادِي لذيـذَهَا ... وعُقْبَـاهُ مُـرُّ الطّعـمِ ضَـنْكُ المَسالِك

[1] ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة القسم الأول، المجلد الأول: ٤٧٣.
[2] المصدر نفسه:٤٧٢.
[3] إسماعيل ،محمود:إشكالية المنهج في دراسة التاريخ: ١٦.
[4] ابن حزم، طوق الحمامة: ١٧١.

و لد ابن حزم سنة (٣٨٤هـ)([1])، ونشأ في ظلال النعيم وحياة القصور ، واستشعر مظاهر السعادة، وتربى في قصور الإمارة ، فشب على العزة والإباء ، وأحس بالعظمة والكبرياء.

و وجد أباه أبا عمر الوزير من أهل العلم والأدب والخبرة، وكان له في البلاغة يد قوية ([2])،فنشأ علي بن حزم في ظل هذه البيئة الغنية بعلوم اللغة والأدب والفقه،فكان حافظاً عالماً بعلوم الحديث وفقهه ، مستنبطاً للإحكام من الكتاب والسنة،يقول الحميدي في ترجمته "وكان له في الآداب والشعر نفس واسع وباع طويلة ، وما رأيت من يقول الشعر على البديهة أسرع منه"([3]) .

ثم فاجأته الفتنة وأخرجته من نعمته وثرائه ووطنه وغيرت مجرى حياته ، ويشير إحسان عباس إلى عمق تأثير الفتنة في حياة ابن حزم بقوله([4]) :"إنّ الناظر إلى حال ابن حزم في نشأته الأولى، وحاله بعد خراب قرطبة ، ليدهش لما أصاب خط حياته من انكسار ، غير انه لم يتخاذل للانقلاب ، فاستنقذ نفسه من إسار الماضي، وتجلد بقوة وهو ينظر إلى المجد الزائل ، وإذا ابن حزم الشاب المترف شخصية جديدة قوية جبارة ، تمزج القوة بالمرارة ، وإذا هو يولد من جديد ، ليفني خدماته المدهشة في خدمة مجتمعه بعد أن كان هشاً في عهد الشباب يعيش لنفسه".

ومن أكثر قصائده المعبرة عن تجاربه وخبراته هذه القصيدة التي أوردها الحميدي فيما يتعلق بالدهر وصراع الإنسان معه، والذي لا يذيقه سوى الندم والهم والحسرة بعد أن تذهب اللذات وتزول المتع ([5]):

هَـلِ الـدَهرُ إلا مَـا عَرَفنَـا وأدْرَكنَـا   فَجَائعُهـا تَبْقـى وَلـذَاتُهُا تَفْنـى([6])
إذا أمْكنـتْ مِنْـه مَسَـرةُ ساعَـةٍ   تَولّـتْ كمـرّ الطَـرْفِ واسـتخلفْتَ حُزْنـا
إلـى تَبِعـات فـي المَعـادِ وموْقِـف   نـود لديْـه أنَنـا لَـمْ نَكُـنْ كنـا

ثم ينتقل إلى تحليل الاضطرابات النفسية لكل من لا يستطيع التحكم في نوازعه وميوله، إمّا ضعفاً أو خوفاً من سلطة دنيوية، وكأنَّ ابن حزم يستبطن دواخله بين الحسد والطمع والرياء والنفاق والانسياق مع الشهوات،وكل هذه الأمراض النفسية قد أصبحت أمراضاً اجتماعية نتيجة تخلخل القيم أثناء الفتنة، ولعلّ ابن حزم قد أدرك خطورة هذه الإمراض وعواقبها، يقول :

---

[1] ابن بشكوال، الصلة، المجلد الثاني:٥٩
[2] الحميدي، جذوة المقتبس :١١٢
[3] المصدر نفسه:٢٧٧ .
[4] عباس، إحسان ، تاريخ الأدب الأندلسي ، عصر سيادة قرطبة:٢٤٠
[5] الحميدي، جذوة المقتبس :٢٧٨.
[6] ورد عجز البيت في الجذوة على هذا النحو: فجائعه تَبْقى وَلذَاتُهُ تَفْنى

حَصَلْنا علــى هَــمٍّ وإثْــمٍ وحسْـــــرَةٍ		وَفَـات الــذي كُنَــا نلــذّ بــه عَنَــــــا
حنــينٌ لمــا وَلَــى وشــغل بِمَــا أتــــــى		وَغــمّ لمــا يُرْجــى فعيْشُـكَ لا يَهنــــا
كَــأنّ الــذِي كُنَــا نُسَــرُّ بكونــــــه		إذا حققتــه الــنَفْسُ لَفْــظ بــلا مَعنـــى

وظلـت قيم الصـداقة والمحبـة عنـد الشـعراء هاجسـهم المفقـود فـي ظـل اخـتلال منظومـة القيم المجتمعية جراء الفتنة، فما انفكوا يبرزونها ويحفونها في أصعب المواقف الشخصية لهم.

وحرص ابن حزم على ما تمثله القيم كالصدق والصداقة والوفاء من منزلة وأهمية في المجتمع، وهو كثيرا ما يؤكد هذه القيم في مواطن عديدة من مؤلفاته، وفي طوق الحمامة ألمح إلى أنّ خلة الوفاء لازمته دائماً تجاه أصدقائه ومعارفه، وهو لا ينسى أبدا أقل ذمة تربطه بإنسان مهما كان.

ومن الشعر الذي تداول في معاني الصداقة والأخوة، ما جاوب به ابن حزم صديقه أبا عامر بن شهيد، فقد كتب إليه في أبيات مؤثرة جداً لمّا مرض مرضه الأخير يطلب من ابن حزم أن يقوم بتأبينه يوم وفاته، ويشيع ذكره، ويدعو له بالمغفرة والرحمة، وفي هذه القصيدة يذكره بصداقته والمودة التي تجمع بينهما قائلا ([1]):

فَمـنْ مُبلـغ عنـي ابـن حَـزْم وكـان لـي		يَـداً فـي مُلِمـاتي وعنْـد مضايِـــقـــي
عليْــك سَــلام اللهِ إنّــي مُفَــــارقٌ		وحَسْــبُكَ زاداً مــن حبيــبٍ مُفــارِقِ
فــلا تــنْسَ تَــأبيني إذَا مــا فَقَدْتنـــي		وتَــذكار أيّــامي وفَضْــلَ خلائِقِــي
فَلــى فِـي ادِّكَـارِي بَعْـد مـوتي راحَـــةٌ		فــلا تَمْنعونيهــا عُلالــة زاهِـــقِ

فأجابه ابن حزم ([2]):

أبَــا عَــامِرٍ نَاديْـتَ خِـلاً مصافيـــا		يُفْــدِيكَ مِــنْ دَهْــمِ الخُطُــوبِ الطّــوَارقِ
وآلمـتَ قَلْبَـا مُخْلِصَـا لَـك ممحضـا		بِــودِّكَ مَوصُــول العُــرَى والعَلائِـــقِ
فَقُربُك لِي أُنسٌ وبُعْدُك مُوحِشـــي		ولُقْياك مَسلاتِـــي وفَقْدُكَ شَائِقِـــي

إن بث الأفكار عماد شعر ابن حزم، فالعقل يسيطر على أكثر أدبه، وذلك بحكم تكوينه الفكري والعلمي ، فابن حزم كما نعته القاضي أبو القاسم صاعد بن أحمد " وأجمع أهل الأندلس قاطبة لعلوم الإسلام ، وأوسعهم معرفة ، مع توسعه في علم اللسان والبلاغة والشعر والسير والأخبار"([3])، يقول([4]):

---
[1] الحميدي، جذوة المقتبس :١١٨.
[2] المصدر نفسه:١١٨
[3] ابن بشكوال، الصلة، المجلد الثاني: ٥٨.
[4] ابن حزم، طوق الحمامة:١٢٦.

يقولُ لِيَ الطبيب بغير عِلمٍ ... تداوَ فأنتَ يا هَذا عليلُ
ودَائِي لَيْسَ يَدْرِيه سوائي ... وربٌّ قادرٌ مَلِكٌ جليلُ
أأكتمه ويكشفُهُ شهيقٌ ... يُلازمني وإطراقٌ طويلُ
ووجهٌ مشاهدات الحزنِ فيه ... وجسمٌ كالخيال ضَنٍ نحيلُ
وأثبتُ ما يكون الأمرُ يوماً ... بلا شكٍّ إذا صحَّ الدليلُ
فقلتُ له أبِنْ عنيٍّ قليلاً ... فلا واللهِ تعرفُ ما تقولُ
فقال أرى نُحولاً زاد جِدَا ... وعلّتُكَ التي تشكو ذُبولُ
فقلتُ له الذبولُ تِعلُّ منه ال ... جوارحُ وهي حُمَّى تَسْتَحيلُ
وما أشكو لعمرُ اللهِ حُمَّى ... وإنَّ الحرَّ في جسمي قليلُ
فقال أرى التفاتاً وارتقاباً ... وأفكاراً وصمتاً لا يزول
وأحسبُ أنّها السوداء فانظرْ ... لِنفسِكَ إنَها عَرَضٌ ثقيلُ
فقلتُ له كلامُك ذا محالٌ ... فما للدّمع من عَيْني يَسيلُ
فأطرقَ باهتاً مِمّا رآه ... ألاَ في مِثلِ ذا بُهتَ النبيلُ
فقلتُ له دوائي منه دائي ... ألاَ في مِثْلِ ذا ضَلّتْ عقولُ
وشاهدُ ما أقولُ يرى عياناً ... فُرُوعُ النبتِ إنْ عُكِسَتْ أصولُ
وتِرياقُ الأفاعي ليس شيٌّ ... سواهُ بِبِرْءِ ما لَدَغَتْ كَفيلُ

وهنا تنعكس ثقافة ابن حزم العقلية والدينية على أبيات القصيدة، فغلفها بإطار عقلي على الرغم من أن موضوعها عاطفي بحت، إذ صدرها تحت باب الضنى من طوق الحمامة.

فالحوار الذي ارتكز عليه في نشر الأبيات، واستخدام الأدلة المنطقية حدّ من سطو العاطفة على النص الشعري، مكتفياً بوصف الجانب الحسي الخارجي دون تغلغله إلى الجانب النفسي الداخلي، بحيث يتمكن من تصوير خلجات النفس وخفايا الوجدان.

المبحث الثاني: أثر الفتنة في شعر ابن شهيد و شعر ابن دراج

أولاً: أثر الفتنة في شعر ابن شهيد(٣٨٢-٤٢٦هـ/٩٩٢-١٠٣٥م)

ابن شهيد هو أبو عامر أحمد بن عبد الملك بن أحمد بن عبد الملك بن عمر بن محمد بن عيسى بن شهيد الأشجعي الأندلسي القرطبي ، وهو من ولد الوضاح بن رزاح الذي كان مع الضحاك بن قيس الفهري([1]) يوم مرج راهط ([2]).

وعبد الملك والده هو ثاني اثنين من هذه الأسرة سموا بـ (عبد الملك)،فقد كان شيخاً من شيوخ الوزراء في الدولة العامرية ،و أثيرا عند المنصور محمد بن أبي عامر ، ومن أهل الأدب ، ومن شعره([3]):

قَصَرتَ عن شأوي فَعَاَدْيتنـــــي أقصـــر فَلَـــيْسَ الجَهْـــلُ مِـــنْ شَـــاْنِي

إنْ كَـــانَ قَـــدْ أغْنَـــاكَ مَـــا تَحْتَـــوِي بُخْـــلاً فَـــإِنَّ الجُـــودَ أغْنَـــانِي

وأمّا جدّه عبد الملك بن عمر كان وزيراً للأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط ،ثمّ كان ابنه أحمد بن عبد الملك وزيراً لعبد الرحمن الناصر، وهو أول من عرف بذي الوزارتين في الأندلس([4])،وعرف أديبا شاعراً حادّ البديهة

ويورد الحميدي بيتين من شعره ، يرد بهما على منافسه في بلاط عبد الرحمن الناصر أبو محمد عبد الله بن محمد بن جهور ، الذي قال فيه – عندما زاره- وحجب عنه([5]):

أَتَيْنَـــاكَ لا عَـــنْ حَاجَـــةٍ عَرَضَـــتْ لنـــا إلَيْـــــكَ وَلاَ قَلْـــــبٍ إلَيْـــــكَ مَشُـــــوقِ

ولكنَّنَا زُرْنَا بِضَعْفِ عُقُولِنـــــَا حِمَـــــاراً تَـــــولّى برَّنـــــا بِعُقُـــــوقِ

فأجابه أحمد بن عبد الملك:

حَجَبْنَــاكَ لَمَّــا زُرْتَنَــا غَيْـرَ تَـائِقٍ بِقَلْــبِ عَــدُوّ فــي ثِيَــابِ صَــدِيقِ

---

[1] الحموي،ياقوت،معجم الأدباء:٢٢٠،٢٢١

[2] يوم المرج ، هي معركة حدثت بين الضحاك بن قيس الفهري الذي كان قائد لجيوش عبد الله بن الزبير ، وبين مروان بن الحكم وهي معركة حاسمة استعاد فيها بنو أمية ملكهم من جديد ، وهزم الضحاك ، انظر تاريخ الطبري ، تحقيق أبو الفضل إبراهيم ، الطبعة الثانية ، دار المعارف بمصر ١٩٧١م ، الجزء الخامس : ٥٣٥ ، ٥٣٨ .

[3] ابن الأبّار،الحلة السيراء:١٣٨

[4] المصدر نفسه:١٣٧ ،والمقري،نفح الطيب،المجلد الأول: ٣٨٠ .

[5] انظر هذه الواقعة : الحميدي ،جذوة المقتبس:١١٧.

ومَا كَانَ بَيْطارُ الشّآم بمَوْضِعٍ يُبَاشِرُ فِيه بِرَّنا بِخَلِيقِ

ولد أحمد بن شهيد في بيت أبيه في قرطبة سنة(٣٨٢هـ) أيام المنصور بن أبي عامر.وتوفي سنة(٤٢٦هـ)([1]).وكانت تجمع بين هذا البيت والحاجب المنصور صلات وثيقة،سمحت له أن يلهو بين يدي المنصور،وأن يحمل على أكتاف ابنه عبد الرحمن،وأن تعطف عليه زوج الحاجب،وهديه ما طاب من الهدايا،وينال التدليل والحنان،وأن ينشأ في حجر المنصور،ويربى في قصره،ويرضع ثدي كرائمه([2])،ويطعمه المنصور بيديه،ويقسم له تفاحة بين ثناياه،ويلقمه إيّاها.

هذه النشأة في بلاط الأمراء والوزراء، بما فيها من الترف البالغ، والنعمة الموفورة، كان لها أثر كبير في نشأة أبي عامر وتوجهه، فهو لم يعمل بشدة على تحصيل الدرس. ومن هنا لم يقبل على ما كان يقبل عليه معاصروه من حديث وتفسير وفقه ونحو،وغير ذلك من العلوم الدينية واللغوية، وإنما أقبل على ما يلائم ترفه وانطلاقه، ويناسب طبعه ومواهبه، أقبل على الأدب يتزود من قديمه وحديثه، ومن شعره ونثره([3]).

فتأثير العامل الوراثي وجد أرضيته في أحمد بن شهيد، فاستعداده الفطري أكسبه منذ نعومة أظفاره السير في شعاب الشعر، ونظم النثر، وإلى تلك الموهبة العفوية يشير ابن حيّان بقوله([4]):"يقود الكلام كما يريد من غير اقتناء للكتب والاعتناء بالطلب ،... وشعره حسن عند أهل النقد ، تصرف فيه تصرف المطبوعين، فلم يقصر عن غايتهم ".

ولقد كان لبيئته الارستقراطية أثر كبير في تحديد بعض صفات أدبه، فكان له من ثقافته الموروثة، ما جعله يتميز عن أصدقائه وشركائه في بعض أدبه([5])؛لأن بيئته الارستقراطية كان لها خصائصها الاجتماعية والثقافية التي سهلت عليه التفرغ،وأبعدته عن الانشغال بالكدّ والعمل.

ولمكانة أسرته ونبوغه في صغره لم يجد المنصور بن أبي عامر من أن يعقد له على الشرطة عقد تكريم،فرضيّ نفسه المتشوفة للقيادة،وميلها نحو وفرة المال، وهو لم يتجاوز عشر سنوات من عمره([1]).

---

[1] الحميدي، جذوة المقتبس :١٢٠
[2] ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، القسم الأول، المجلد الأول: ١٩٤
[3] هيكل، أحمد ، الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة دار المعارف ،١١١٩ كورنيش النيل ،القاهرة،مصر ١٩٧٩ :٣٦٩ .
[4] ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، القسم الأول، المجلد الأول: ١٩٣
[5] مقدمة ديوان ابن شهيد جمع وتحقيق يعقوب زكي: ١٢.

نشأ ابن شهيد في ظل النعيم وحياة القصور، واستشعر مظاهر السعادة،وتربى في قصور الإمارة، فشب على العزة والإباء، وأحسّ بالعظمة والكبرياء،وفي هذا الجو المفعم بالمحبة والمودة، يظلله النعيم،وكثرة المال، وتوفر الجاه والسلطة، وحبّ الترف والبذخ ، والتعلق بالمال وحب إنفاقه"([2]).

وأفدح نازلة نزلت به ،وأشد ضرر لحقه في صباه،أن والده تنسك ،وحمله على شظف العيش، وهو من رَفِل في الترف والبذخ الفاحش زمناً ، واعتاد اللهو، والخيلاء في الملبس والمأكل([3]).

وما إن صار في سن الشباب حتى تجلت مظاهر تلك التربية الناعمة التي أثرت في بناء شخصيته ، وفي طبيعة تكوينه النفسي والفكري والاجتماعي ، على كيانه وتوجهاته ، فانصرف لملذاته الذاتية ، وأهوائه الشخصية ، وعاش حياة العبث واللهو ، يقول ابن بسام : " كان بقرطبة في رقته وبراعته وظرفه خليعها المنهمك في بطالته. وأعجَبَ الناس تفاوتاً ما بين قوله وفعله ، أحطهم في هوس نفسه، وأهتكهم لعرضه، وأجرأهم على خلقه"([4]) .

وقد جلب له فهمه وبراعته الأدبية تفاخراً آخر، إذ مالت نفسه إلى التذوق والنقد، ساعده في ذلك سرعة البديهة، ونبوغ الموهبة، وصفاء الذهن، وتوقد القريحة، فأبدع في النظم، وأجاد في التأليف والتحبير والنقد.

لقد استطاع ابن شهيد الأندلسي أن يسجل لنفسه حضوراً متميزاً في صفوف رواد النثر الفني في الأدب العربي ، فرسائله التي حوتها دفتي " الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة " لابن بسام ، تشير إلى ما تتمتع به شخصية هذا الرجل من أهمية أدبية،وفنية تعبيرية،وما لها من قدرة إبداعية نثرية ونقدية خاصة ، لا تقتصر على عصره بل تتوارثها الأجيال عبر العصور المختلفة، فتتناقل ما تحمله تلك الكتابات النثرية من أسس فنية ، وجماليات أسلوبية ، وصور خيالية متفردة ، ومخترعة أحياناً. يقول ابن بسام الشنتريني عن نثره([5]):" إن هزل،فسجع الحمام، وإن جد فزئير الأسد الضرغام"،ويقول عنه ابن حيان : " كان أبو عامر يبلغ المعنى،ولا يطيل سفر الكلام ، وإذا

---

[1] ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، القسم الأول، المجلد الأول: ١٩٥

[2] انظر حديثه عن إكرام المنصور العامري له،وتصرف والده بما منحه إياه العامري من مال، ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة القسم الأول، المجلد الأول: ١٩٦ . وانظر إكرام الوزير ابن مسلمة له بألف دينار، المصدر نفسه:١٩٥.

[3] ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، القسم الأول، المجلد الأول: ١٩٤

[4] المصدر نفسه:٥٠

[5] المصدر نفسه:١٩٢

تأملته ولسنه ، وكيف يجري في البلاغة رسنه ، قلت : عبد الحميد في أوانه ، والجاحظ في زمانه "([1]). ويصف رسائله وكتبه الحميدي، يقول : " وسائر رسائله ، وكتبه نافعة الجد كثيرة الهزل"([2]) .

أثارت تلك الحال حفيظة حساده ، وأغضبت خصومه والناقمين عليه ، ومنهم ابن الحناط الكفيف الذي يقول :" وأخونا أبو عامر يسهب نثراً ، ويطيل نظماً ، شامخاً بأنفه ، ثانياً من عطفه ، متخيلاً أنه قد أحرز السباق في الأدب ، وأوتي فصل الخطاب ، فهو يستقصر أساتيذ الأدباء،ويستجهل شيوخ العلماء"([3])، فجرد ابن شهيد حينها قلمه وفكره مدافعاً عن نفسه متفاخراً بأصله تارة ، معتزاً بأدبه وقدرته البلاغية والتعبيرية أخرى ، فسارت حياته مع خصومه بين أخذ وردّ ، كان من نتاجها رسالته " التوابع والزوابع " ، ورسائل في وصف البعوض ، والذئب ، والماء وغيرها ، وقصائد الفخر والهجاء ، والوصف ، وتوجيهات نقدية ترشد الدارس والأديب لأسس البراعة ومواطن الفصاحة .

ومع كل تلك الهالة السعيدة من الحياة الرغدة ، والنسب العالي ، والقدرة الأدبية المتفوقة، والصلة الضاربة في قصور الخلافة الأموية،جاءته الفتنة ، وأخرجته من نعمته،وثرائه الفادح، ووطنه العزيز، وغيرت مجرى حياته . مما أكسبه شعوراً بالغصة والضجر ، يراوده ويقض مضجعه لفراغ يده من تحقيق طموحه في السياسة ، والتفت إلى عاهة الصمم التي كان يعاني منها ، إذ وجد فيها السبب الذي قصر به عن بلوغ مراده ، كما قصر بالجاحظ جحوظ عينيه ، فيقول : " كما قصر بي أنا فيها ثقل سمعي،وبأبي القاسم([4]) ورم أنفه، إذ لا بد للملك من كاتب مقبول الصورة تقع عليها عينه ، وأذن ذكية تسمع منه حسه ، وأنف نقي لا تذم أنفاسه عند مقاربته له "([5]).

جاء مولد ابن شهيد في عصر الأندلس الذهبي بقيادة القوي المنصور بن أبي عامر، فما أن شب وبلغ قريبا من الثمانية عشر عاما، حتى هبت رياح الفتنة على قرطبة ، وسار مع أحداث تلك

---

[1] ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، القسم الأول، المجلد الأول:١٩٢

[2] الحميدي، جذوة المقتبس : ١٣٣

[3] ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، القسم الأول، المجلد الأول: ٤٣٩

[4] أبو القاسم الإفليلي:إبراهيم بن محمد القرشيّ الزّهري،من أهل قرطبة،كان من أئمة اللغة والنحو،وحافظاً للأشعار وأخبار الناس ،وشرح ديوان المتنبي:ابن خلكان،أحمد شمس الدين، الطبعة الأولى ، وفيات الأعيان وأنباء أبناء، تحقيق إحسان عباس،دار الثقافة،بيروت،لبنان، ١٩٦٨، المجلد الأول :٥١ .

[5] ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة القسم الأول، المجلد الأول: ٢٤٣. وورم الأنف انتفاخه من الغضب:ابن منظور،لسان العرب(وَرِم)

الفتنة، يشهدها حدثا حدثاً،مما أكسبه روح التشاؤم التي تملأ شعره([1])،فيرى أن الفتنة أفعى قد لدغت الناس بسمها ، فيتوجه إلى ممدوحه آملا فيه العلاج الناجع، يقول([2]) :

اللهَ فـــي أرضٍ غُـــذِيَتْ هَواءَهـــا وعِصَـــــابَةٍ لـــــم تَـــــتَّهِمْ إشْـــــفَاقَهَا
نَكَــزتْهُم أفْعــى الخُطــوبِ وعوجلــوا بِمثمَّـــــلٍ منهــــا فَكُـــنْ دِرْياقهـــا([3])

مـا إن حلّت الفتن بأرجـاء الأنـدلس ، وضـربت النكبـات والحروب المتواليـة صـفو الحيـاة الهانئـة ، فأتـت بـالخراب والـدمار علـى جمـال الطبيعـة ، وآذنـت بالفسـاد والضـياع ، وأحلـت الشـقاء مكان النعيم والرخاء ، حتى كان لابن شـهيد منهـا موقف نفسـيّ وأدبـيّ، وفكريّ بـارز([4])، خاصـة وأنها قد استمرت من سنة(٣٩٩هـ) حتى سنة (٤٢٢هـ). ومعنى هذا أن ابن شهيد قد قضى شطراً من حياته في الفتنة، فبادر إلـى الحكـام يسترضـيهم ، وذلـك حـال الكثير مـن الشـعراء والكتـاب فـي عصر الفتنة ، إذ "أصبح الشعراء مولى كل من تولى سلطة ، يمجدون اليوم هذا ، ثم يمجدون غدا قاهره،وغدوا جوابين على أبواب أولئك الأمراء أمثال منذر وخيران ومظفر ومبارك، وأصبحت مدائحهم جزافا من القول في سبيل القوت" ([5]).

وفـي خضـم ذلـك التنقـل فـي المـدح والمـوالاة بـين الحكـام والـولاة والأمـراء الغـالبين والمنصـورين ، ظل ابـن شـهيد يحمل فـي قرارة نفسـه حبّاً عميقـاً وصـادقاً ، وموالاة لا تتغير فـي الباطن ، بتـنقل مدحه بين الممدوحين في الظـاهر، يخلـص فيـه لآل العـامريين ، يحـذوه فـي ذلـك الإخلاص" شعور عميق بأن العـامريين وحـدهم هم الـذين يستطيعون أن يفردوه ويميزوا مكانتـه بين ذوي الفهوم "([6])، وكان من أكثر قصائده وأبدعها في المدح مـا نظمهـا فـي مـدح عبد العزيـز عيسى عبد الرحمن بن المنصور بن أبي عامر الملقب بالمؤتمن ، الذي خرج من قرطبة بعد نشوب الفتـن،وفيه يقول([7]):

مِـــــنْ فِتْنَـــــةٍ قـــــد أسْـــــبلَتْ ظُلُماتُهـــــــا بيَـــــــدِ المَظَـــــــالِمْ

[1] ديوان ابن شهيد الأندلسي ، تحقيق : يعقوب زكي :١٢
[2] ديوان ابن شهيــد: ١٠٦
[3] نكرته : لسعته الحيّة وطعنته بأنفها: ابن منظور،لسان العرب(نَكَزَ).
[4] مشــاعل باقــازي، بحــث منشــور: مســتويات الأداء البلاغــي فــي أدب ابــن شــهيد،جامعة أم القــرى، مكــة المكرمة،٢٠٠٦: ٤.
[5] إحسان عباس،تاريخ الأدب الأندلسي عصر سيادة قرطبة : ١٧٨.
[6] المصدر نفسه: ٢١٩ .
[7] ديوان ابن شهيد :١٥٤

عَمَهَتْ لها أَحْلامُنَا   وكأنَّها أضْغَاثُ حَالِمْ
وتَفَاءَلَتْ أَجْرَامُنا   فيها بِمُوبِقَةِ الجَرائِمْ
وتَحَوَّلَتْ فِينَا الذّنا   بَي الرأسَ ، وابن المْجدِ رَاغِمْ
وأَدَارَ كُلُّ صَغِيرِ قَدْ   رِ المُنْتَهَى أَرْحِى العَظَائِمْ
فكأنَّنَا عُمْيٌ نُسَا   قُ على العَمَى في ظِلِّ عَاتِمْ
حَتَّى انْتَضَى عَبْدُ العَزِي   زِ عَزِيمَةً مِن صَدرِ عازِمْ
فَبَدتْ لنا سُبُلُ الهُدَى   بنَواجِمٍ غَيْر الهَواجِمْ

ومن جانب آخر، فإن أحداث تلك الفتنة الظالمة أثارت موجدة حساده ، وأوجدت لمنتقديه كابن الفرضي ، وأبي القاسم الإفليلي مرتعاً خصباً ، و ثغراً ينفذون منه إليه ، فكثرة الحروب وتعدد الموالاة ، وثبات القدرة الأدبية عند ابن شهيد في النظم ، وما يكون مع ذلك من الإسراف في اللهو ، والإقبال على الملذات ، كانت أسباباً تدفعهم لأن يؤلبوا عليه الحكام والولاة ، ويوغروا صدورهم نحوه ([1])،عندها قام معتذراً للمستعين ، حين كانت له السطوة والخلافة ، وشكا له من جرائر الحسد والبغض،مضمنا هذه الأبيات مراجعة للذات ومناجاة لها، فقال ([2]):-

وقالتِ النَّفسُ لمّا أن خَلوتُ بها   أشْكُو إلَيْها الهَوى خِلواً مِن النَّعَمِ
حتَّام أنتَ على الضَّرَّاءِ مُضطَجِعٌ   مُعَرِّسٌ في ديارِ الظُلْمِ والظُّلَمِ
وفي السُّرى لك لو أزْمعتَ مُرْتحَلاً   بُرْءٌ من الشّوقِ أو بُرْءٌ من العَدَمِ

وفي ضوء تخلخل القيم تكثر الدسائس ،ويسجنه المعتلي بسبب وشاية سُعي بها إليه ، وصفها ابن خاقان في قوله :"ودبت له أيام العلويين عقارب ، برئت بها من أباعد وأقارب ، واجهه بها صرف قطوب ، وانبرت إليه منها خطوب نبا لها جنبه عن المضجع ، وبقي بها يأرق ولا يهجع ، إلى أن علقته من الاعتقال حباله ، وعقلته في عقال أذهب ماله ، فأقام مرتهناً ولقي وهناً"([3])،فكتب قصيدته الدالية يستعطفه بها ويعتذر إليه قائلاً ([4]):-

قَرِيبٌ بِمُحْتَلِّ الهَوانِ بعِيدُ   يجُودُ ويَشْكُو حُزْنَهُ فيُجِيدُ
نعى ضُرَّه عِنْدَ الإمامِ فيالَه   عدُوٌّ لابناءِ الكِرَامِ حسُودُ
ومَا ضَرَّهُ إلا مُزاحٌ ورِقَّةٌ   ثَنَتْهُ سَفيه الذِّكْرِ وهْو رشِيدُ

---

[1] مشاعل باقازي، بحث منشور: مستويات الأداء البلاغي في أدب ابن شهيد،جامعة أم القرى، مكة المكرمة،٢٠٠٦: ٧

[2] ديوان ابن شهيد الأندلسي:١٤٨

[3] ابن خاقان، أبو النصر محمد مطمح الأنفس، ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس،الطبعة الأولى،تحقيق محمد علي شوابكة ، عمان: دار عمار مؤسسة الرسالة، ١٩٨٣م:١٨٩ .

[4] ديوان ابن شهيد:٤١

وما لبث بعدها أن" استقامت أحواله زمن المعتلي ، وتوطدت علاقته به بعد أن أطلق سراحه ، فمدحه بالعديد من القصائد "([1]). ولم يستمر الحال على ما هو عليه ، ولم يهنأ ابن شهيد شهيد بتلك الصحبة فسرعان ما تنكب حكم المعتلي ، وأفل نجمه ، فخرج من قرطبة إلى مالقة بعد أن استولى عليها عمه القاسم ، ولم يغفل في تلك الآونة صلته بابن شهيد ، ولم يتنكر لها ، إذ عزم أبو عامر على الخروج معه.

وبعد خلع القاسم من الحكم ، ومبُايعة المستظهر عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار، والذي كان في زمن حكمه - على ضيقه - ، فترة مجد ابن شهيد ، فقد تولى فيها ابن شهيد الوزارة فيما يقارب سبعاً وأربعين يوماً ، وهي الفترة ما بين تولي المستظهر للخلافة وقتله ، من قبل المستكفي ، وبعد أن عاد المعتلي لقرطبة وقتل المستكفي ، وبايع بالخلافة هشام المعتد ، كان لابن شهيد قصائد مدح متجددة وولاء متميز لمن أعلى شأنه .

كان ابن شهيد قد أعد شعراً ينوي إنشاده سليمان المستعين بن عبد الرحمن بن محمد أول بيعته يحذره فيه من الوزير ابن الفرضي وزير يحيى بن علي بن حمود (٣١٢ -٣١٣هـ) يقول([2]):

فَلَمــا بَــدَا فيــه سُــلَيْمانُ عِنْــدَهَا ... وَصَــاحَ ابــن ذكــوان فثَــاَرَ رجــالُ ([3])
هدَى من ضَلالِ الحَائرينَ بن محمد ... وَأذَّنَ بالبيــتِ العَتيــقِ بِــلالُ
وَقَام أبــو عِمْــرانَ يَــرْأَبُ صَــدْعَها ... بِسَــعْيٍ تَجَلّــى عــن هُــداه ضَــلالُ
وزيــرُ مَتَــى يَسْــتَوْزِرُ المَلــكُ رأيَــهُ ... أمِــرَتْ لــه فــي النائبــاتِ حِبَــالُ

ويعرض بابن الفرضي المقتول على يد هشام المعتد ،فتابع الأبيات :

وَلَـيْسَ كَمَنْحـوسٍ مـن القـومِ مُـنْحِسٌ ... تَعَــاظَمَ حتــىَ قِيــل لــيس يُنــالُ
أعَانتْـه أمــوالٌ تخــوَّن عِينَــها ... وأعلتْــه عُثّــرٌ سُــوقةٌ وسِفــالٌ
لـه كعـبُ نَحْـسٍ لـم يُصَـاحِب بـه امـرءا ... علــى الــدهر إلاَ رٌد وهــوَ خَيَــالٌ
ففـي كُـلَ عصـرٍ مـن عصـورِ حَياتِـه ... تُثَــلُّ عُــروشٌ أو تُــدَكُ جِبــالُ

وبما أن ابن الفرضي - حسب ما يرى ابن شهيد- هو سبب النحس على العروش، ويجلب الفجائع ،ولص سرق أموال الدولة ،وأعوانه في ذلك كلهم من السوقة والسفلة، فإذ بابن شهيد يدعو بقوة إلى استئصاله والقضاء عليه :

هــو الــدَاءُ فاستأصِــلْه تَلْــبَسْ جَمَالَهــا ... وَدَاءُ كُعــوبِ المُنْحِســين عُضَــالُ

[1] ديوان ابن شهيد الأندلسي ورسائله ، جمع وتحقيق : محي الدين ديب ، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، صيدا بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٧م : ٣٢ .
[2] ديوان ابن شهيد : ١١٩
[3] ابن ذكوان : ورد ذكره ، قاضي القضاة بقرطبة ، توفي سنة ٤١٣ هـ /١٠٢٢ م.

فالصراع السياسي بين ابن شهيد وابن الفرضي لا يتوقف ، ويشير إلى نهاية أحد الخصمين ، يقول ابن شهيد " ثم اشتدت وطأة هذا الخبيث أيام المستظهر([1])،" فلم يبق غاية من إهتضامي إلا امتد لها "([2])،و لم تفلح مساعي ابن الفرضي ، وكان مما اتخذه وسيلة للإيقاع بابن شهيد أن نسب قصيدة على لسان ابن شهيد، يهجو فيها المستظهر وعماله، وفيها يقول([3]):

يا كسرةً دَهَمَتْنَا ليس تَنْجَبِرُ وسُبّةً لَحِقَتْنَا مَا لهَا عُذُرُ
بَاتَتْ قُعُوداً رجالٌ طَابَ مَحْتَدُهَا وقَامَ نَذْلانِ في سَنْخَيْهما بَخَرُ
أمسى قدارُ يَسُوسُ الأمرَ أجْمَعهُ لقد تَأَنَقَ فيما ساءَنا القدرُ
وذا أبو اليُسْرِ قد أمْسَى لها وَزَراً إنّا إلى الله بِسْرٌ جَرَّهُ عُسُرُ
لو أنَّ أشْيَاخَنَا كَانتْ لهُمْ هِمَمٌ تُبْقِي رِياسَتَنَا لَمْ تَرأسِ البَقَرُ

وفي مثل هذه الأجواء من الظلم والسخط الشعبي تكثر الدسائس والمؤامرات، وتتهيأ الأرضية الخصبة لنمو بواعث الشر،و يألف أبناء المجتمع الأندلسي سفك الدماء في جو عميق الخصومة ، فتعتري بعض الشعراء - وهم جزء من المجتمع- روح ساديّة غريبة طارئة. يأمر المعتد بقتل عبد الرحمن بن محمد بن الحناط الوزير،نتيجة للصراعات بين الفرقاء السياسيين ،في ظروف إغواء وإغراء من بطانة السوء، التي يشكل أبو عامر يومئذ بعضاً منه. ولا يفوت ابن شهيد نجاح مساعيه في هذا الحدث الشنيع، والمناسبة المؤلمة ، لينشد المعتد قصيدة تصور فرحته بهذا الفعل،والحث عليه بعدوانية واضحة ، يقول([4]):

أحْلَلْتَنِي بِمحلَةِ الْجَوْزاءِ ورَوِيتُ عِنْدكَ مِنْ دَمِ الأعْداءِ
وَطعمْتُ لَحْمَ المارِقين فَأخْصبتْ حَالي وبلّغني الزَمانُ شِفَائِي
ورأيتُني كالصقْر فَوْقَ مَعاشِرِ تَحْتي كَأنهُمُ بَنَاتُ المَاءِ
ولَمَحْتُ إخْوانِي لَدَيْك كَأنَهُمْ مِمَا رَفَعْتُهُمُ نُجومُ سَمَاءِ

ومع ذلك فإنّ الأبيات - على ما فيها من سادية مستغربة- لا تدل على ثبات في شخصية ابن شهيد، ولذلك ألمح ابن حيّان إلى أن تلك الخصلة طارئة ، يقول "([5]): " وكان أبو عامر بن شهيد قد اعتلق يومئذ بدولة هشام المعتد ،واختص بوزيره حكم النذل، المرتقي ذروة الوزارة من الحياكة،

[1] المستظهر : ورد ذكره :" عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار.
[2] ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، القسم الأول، المجلد الأول: ٢٢٣.
[3] المصدر نفسه: ٢٢٤.
[4] ديوان ابن شهيد : ١٦.
[5] ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، القسم الثالث، المجلد الأول:٥٢٠،٥٢١

وانخرط في سلك من كان يؤيد المعتد على تلك الهنات الموبقات"،كما يقف ابن حيان عند هذه الأبيات، ويرفضها شكلاً ومضموناً قائلاً " ما أحسن فيها ولا أغرب ، بل أعرب عن سقم يقينه،ورقّة دينه "([١])،إلاّ أن ابن بسام يخالف ما ذهب إليه ابن حيّان في نقده لهذه القصيدة، فهو يوافقه في رفضه للمعاني التي عبَّر عنها ابن شهيد لفساد المعتقد، لكنه يرى القصيدة في غاية الإحسان من حيث النظم ([٢]).

وفي هذه القصيدة لا يكتفى ابن شهيد من سفك دم غريمه الوزير بروح يسودها التشفيّ والفرح،بل يسعى إلى الإطاحة برؤوس منافسيه وخصومه السياسيين الباقين،و تصور فرح الشاعر بتلك الصورة القبيحة ،وكأنّ المعتد يقتصّ من فئة كافرة،ويدعوه للخلاص من بقيّة خصومه السياسيين بطريقة قاسية،تستهدف سفك دماء مسلمين،يقول :

لاَ يَــرْحَمِ الــرَحمنُ مَصْــرَعَ مَــارِقٍ   عَبَثَــتْ بِطَاعَتِــهِ يَــدُ الأَهْــوَاء
أَلْحِــقْ بِــهِ إخْوانَــهُ فَحَياتُهُــمْ   نَكَــدٌ وَقَــدْ أَوْدَى أَخُــو السُّــفَهَاءِ
سَــاعِدْ نَــدَاكَ([٣]) وَدَعْ مَقَــالَ مَعَاشِــرٍ   بَخِلُــوا فَنَالُــوا خُطَــةَ الــبُخَلاءِ
مَــنْ لَــمْ يفْــدِكَ سِــوى الرِيــاحِ فَخَلِّــهِ   للشَــمْسِ يَرْقُبهــا مــع الحِــرْباءِ
ودَعِ القلانِــسَ فــي السَّــحاب يُسَــقِّها   ومفَــاخِرَ الآبَــاءِ للأَبنــاءِ
إنَّ الرِّجَــالَ إذَا تَــأَخَّرَ نَفْعُهُــمْ   فِــي كــلِّ معنًــى شُبِّهُــوا بِنِسَــاءِ
أنــا صــلّهُمْ عنــدَ الخصــام فَخلِّهــمْ   للســانِ هــذي الحيَّــة الرَقْشَــاء([٤])

وكما كان لتلك الأحداث السياسية الأثر المنفر في نفوس الشعراء، كان لها أيضاً أثر معاكس تمثل عند ابن شهيد بشكل خاص ، فقد كانت سبباً في تجدد طموحه لنيل الوزارة ، وسعيه وراء تولي المنزلة الرفيعة في الدولة ، وهو غرض تحمله ثنايا صوره ، وأغراضه الشعرية ، وإن لم يصرح به، غير أنه يمثل الحافز الأقوى في جلِّ أغراضه ومعانيه ([٥])، فتوالي الخلفاء عليها كان دافعاً للشاعر لأن يمدحهم، ويتقرب منهم ، وعندها لم يكن مدحه نابعاً من إحساس

---

[١] ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، القسم الثالث، المجلد الأول: ٥٢١
[٢] ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، القسم الثالث، المجلد الأول:٥٢٢
[٣] لعلّ الصواب"بذاك" ليستقيم المعنى.
[٤] الصل : الحيّة التي لا تنفع فيها الرُّقية،ويقال للرجل إذا كان داهياً مُنْكراً:ابن منظور،لسان العرب(صَلَّ)
[٥] مشاعل باقازي، بحث منشور: مستويات الأداء البلاغي في أدب ابن شهيد،جامعة أم القرى، مكة المكرمة،٢٠٠٦،: ٥

وشعور ذاتي بالولاء والمناصرة للممدوح، بل هو شعور متصنع يسعى من خلاله لهدف يأمل به ، كما في قوله يمدح المستعين([1]):-

لَعَلَّ نَسيمَ الرِّيحِ تَأتِي بِه الصَّبا ... بنَشْرِ الخُزامى والكِباءِ المُعَبَّقِ
كأنَّ علَيْها نَفْحةً عَبْشَمِيَّةً ... أتَتْ مِن جَنابِ المُسْتَعِينِ المُوَفَّقِ
فنِلْتَ الَّذِي قد نِلْتَ إذ لَيْسَ للعُلا ... سِواكَ كَأنَّ الدَّهْرَ للنَّاسِ مُنْتَقِ

وكما يمدح ابن حمود([2]):

وحَولَكَ أَسْيافٌ مِن السَّعْدِ تُنْتَضَى ... وفَوقَكَ أعْلامٌ مِن النَصْرِ تَخْفِقُ
بأبْيضَ مُسْوَدِّ الدِّلاصِ([3]) كأنّهُ ... شِهابٌ عليه مِن دُجَى الليلِ يلمَقُ
وأسْودَ مِبيَضَّ القَباءِ كأنّما ... يَطِيرُ بِه نَحوَ الكرِيهَةِ عَقْعَقُ ([4])

لكن سرعان ما تتبدل الحال لسرعة الانقلابات السياسية،والشعراء في هذه الأوضاع تتقاذقهم المصالح، فمن هو عدو الأمس تنطوي صفحته، ويستبشر بالحاكم الجديد ، بل والخوف والحرص عليه إذا تترتب على ذلك منفعة للشاعر؛ لأن في ثباته وأمنه مصلحة مطلوبة،فابن شهيد،"وكما أن الفتنة قوت في نفسه حب السلامة في تلك الفترة المتقلبة،فإنها أضافت شيئا إلى المرارة التي كان يحسها نحو الأشياء والناس،وأذكت من نار النقمة عنده على بعض معاصريه"([5])، فهو يبتهل، ويدعو الله أن يحفظ هشاماً المعتد، ويستعرض سيرة هذه العائلة التي آلت نهاية اثنين من أبرز شخصياتها إلى القتل بطريقة دموية بشعة، كما أنه لا يغفل أن يعرّض بخصومه السياسيين مثل ابن الفرضي يقول ([6]):

نَالَتْ سُلَيْمَانَ مِنْه رِجْلٌ ... مِنْ قَبْلُ مَا أَرْجلتْ أَباهُ
فاستدرِجَا كاشٍ فيْ دُجَاهُ ... يَا وَيْلَةَ المَرْءِ ما دَهَاهُ
يا سُخْطَ ربِ العُلا عليه ... إذا أدَّت المُرتَضَى يَدَاهُ

ومن ذلك يظهر جلياً أن واقع الحياة السياسية وأحداثها المتقلبة لم يَجْرِ أثرها في نفس الشاعر على وتيرة واحدة ، مما كان له أثر بارز في نتاجه الشعري ، متأثرا بحالته النفسية والانفعالية، فتطلع ابن شهيد للوزارة كان أملاً سعى جاهداً في تحقيقه ، ولم يتوان عنه ما امتد

---

[1] ديوان اين شهيد : ١١٣
[2] ديوان ابن شهيد :١٠٢.
[3] ادِّلاصِ : اللَّيِّن البَرّاق الأَملس
[4] نوع من الغربان ذو لونين ابيض واسود.
[5] عباس، إحسان ، تاريخ الأدب الأندلسي،عصر سيادة قرطبة:٢١٩ .
[6] ديوان ابن شهيد: ١٧٩

به العمر؛ كما أن حبه قرطبة جعله لا يقبل لها بديلاً عنها حتى وإن أصابتها الفتن وخرَّبتها الحروب .

ثانياً: أثر الفتنة في شعر ابن دراج (٣٤٧-٤٢١ هـ) (٩٥٨-١٠٣٠م)

ابن دراج هو أحمد بن محمد العاصي بن أحمد بن سليمان بن عيسى بن دراج الأندلسي القسطلي([1]) ،أما الحميدي([2]) والضبي([3]) ترجما له بأبي عمر أحمد بن دراج القسطلي ،وإنما توخّيا الاختصار وحافظا في الوقت نفسه على نسبة الرجل إلى دراج؛ لأنه هو الجدّ الذي اشتهر به كل الذين انحدروا من صلبه .

أما لقبه القسطلي فهو نسبة إلى بلدة قسطلة في غرب الأندلس ،فقد أورد الحميري في الروض المعطار، في التعريف بقسطلة دراج قوله : "قرية في غرب الأندلس ، منها أبو عمرو أحمد بن محمد بن دراج القسطلي ،ودراج هو الذي تنسب إليه القرية فيقال : قسطلة دراج "([4]).على أن ابن سعيد يذكر أن ابن دراج من قسطلة أخرى في إقليم جيّان بموسطة الأندلس، وهذا ما ذهب إليه محمود مكي في مقدمة ديوان ابن دراج([5]).

وأسرة ابن دراج ذات أصول بربرية تنتهي إلى صنهاجة([6])،ودراج هذا الاسم العربي مع ما سبقه من أسماء عربية في سلسلة نسب الرجل يؤشر على أن بني دراج البرابرة حينما اعتنقوا الإسلام ؛ وسكنوا الأندلس، وخالطوا العرب ، وتثقفوا بالفقه الإسلامي السني ، نسوا أصلهم البربري ،واتحدوا مع العناصر البشرية الأخرى التي شكلت المجتمع الأندلسي ، حتى غدت مع مرور الوقت أندلسية تماما ،شأن القبائل البربرية التي دخلت الأندلس في تاريخ مبكر ، لم يربطها

---

[1] ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، المجلد الأول:١٣٥.
[2] الحميدي،جذوة المقتبس: ٩٧ .
[3] الضبي، أحمد بن يحيى، بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، دار الكاتب العربي، ١٩٦٧: ١٥٨.
[4] الحميري ،الروض المعطار: ٤٧٩ .
[5] مقدمة ديوان ابن دراج: ٢٨ وما بعدها
[6] انظر : ابن حزم ،جمهرة أنساب العرب،منشورات محمد علي بيضون،دار الكتب العلمية،بيروت،لبنان،٢٠٠١: ٢٦٦-٢٦٧ .

مع تلك الأصول البربرية إلا وشائج النسب . وعلى الرغم من ذلك لا يرى أثر هذه البريرية في حياة ابن دراج ولا في شعره، وهو لا يتحدث عن نسبه على الإطلاق([1]).

ويورد ابن حزم في جمهرة أنساب العرب تعريفا بأصول ابن دراج يقول([2]): " صنهاجة منهم بنو الغليظ رهط أبي عبد الله محمد بن عبد الأعلى الأديب رحمه الله ،وبنو دراج رهط الشاعر أبي عمرو أحمد بن دراج القسطلي،كان منهم محمد بن العاصي بن أحمد بن سليمان من ولد ذر عيسى بن دراج . ومنهم ببلكونة يحيى بن ضريس الذي صدم ابن حفصون فأبطل يده بالضربة المشهورة ، فلم يأكل ابن حفصون بيمينه بعدها ، وعاش بعدها نحو ثلاثين سنة ،ومنهم بأشبونة بنو عبد الوهاب، وهم من ولد ميمون ابن أبي جميل ، وهو ابن أخت طارق بن زياد ،وكانت لهم ثروة وعدد، وكان منهم قواد وكتاب وفقهاء ".

وهذا النص الوحيد الذي يخص أباه بالذكر. كما يؤكد عودة نسب بني دراج إلى قبيلة صنهاجة البربرية،وإنهم دخلوا الأندلس منذ وقت مبكر مع طارق بن زياد عام (٧١١/٩٢م) وأنّ الشاعر ابن دراج ينتمي إلى أسرة ذات شأن في السيادة والقيادة والعلم والثروة ،ولشهرة عائلة بني دراج عرفت البلدة باسمهم ، فقيل قسطلة بني دراج ([3]) ، ويقول ابن سعيد إن دراجا الشاعر الأعلى وبنيه تداولوا على رياستها([4]).

ولد ابن دراج سنة(٣٤٧هـ) ، في قرية قسطلة ، وفيها نشأ ،ولم تذكر المصادر القديمة شيئا عن نشأته الأولى وطفولته ، فظل يحيط بها الغموض إلى أن ظهر في بلاط المنصور بن أبي عامر سنة (٣٨٢ هـ/٩٩٢م). وتمتد هذه الفترة من ولادته حتى ظهوره عند العامريين بغموض واضح ،فلم نجد اهتماما للمؤرخين بشخصيته إلاّ عندما أصبح شاعر الدولة العامرية ، مما جعل حديث الدارسين عن هذه الفترة يعتمد على الظن حينا وعلى التخمين أحيانا أخرى ، يقول محمود علي مكي : "وأغلب الظن أن ابن دراج بدأ حياته الدراسية تلميذاً يتردد على مجالس الشيوخ وحلقاتهم في جيّان،ولعل دراسته في تلك الفترة المبكرة من حياته لم تكن تختلف عما يتلقاه أمثاله من الصبيان من حفظ للقرآن،وإلمام بمبادئ النحو واللغة والأدب والأخبار والأنساب والفقه"([5]).

---

[1] محمود مكي ،مقدمة ديوان ابن دراج: ٢٤ .
[2] ابن حزم، جمهرة أنساب العرب: ٥٠١، ٥٠٢.
[3] الحميري ، الروض :٤٧٩، ٤٨٠.
[4] ابن سعيد المغربي، المغرب في حلي المغرب، تحقيق شوقي ضيف، الطبعة الثانية، مصر: دار المعارف. ،الجزء الثاني :٦٠.
[5] مقدمة ديوان ابن دراج:٣٦ .

والقصائد التي ضمها ديوانه تقلل من شأن غموض سيرة حياته ،فهي تعلمنا عن آثار هذه الثقافة المكتسبة لديه في عصر الأندلس الذهبي ، فقد ولد ابن دراج في السنوات الأخيرة من خلافة عبد الرحمن الناصر ،وقضى فترة تعليمه في السنوات التي وافقت خلافة الحكم المستنصر وجانباً من خلافة ابنه هشام المؤيد. وهذه الفترة الممتدة من حياته كان طابعها العام التميز التام في جميع ميادين الثقافة الأندلسية، واستقرار الحياة السياسية والاجتماعية، وتطور الحياة الاقتصادية، مما استحق وصف هذا العصر بالعصر الذهبي للأندلس .

والناظر في الديوان يجد أن الشاعر متمكن من أدوات اللغة: لفظا، وتركيبا، وبلاغة ،ونحوا، وصرفا،كما يجد أثراً لحفظ القرآن كله أو معظمه؛ لاستقامة نطقه، وقوة عارضته، واستيعابه لمعاني القرآن وسعة ثقافته به.كما أننا نجد سعة الثقافة التاريخية في شعره ،مما يدل على اطلاعه على تاريخ العرب وآدابهم من الجاهلية إلى عصره. وقد أشاد ابن شهيد الأندلسي بهذه الثقافة الواسعة ،يقول([1]):" ثمّ زاد بما في أشعاره من الدليل على العلم بالخبر واللغة والنسب". وعلى أيِّة حال فابن دراج بعد تلك الطفولة التي لا نعرف عنها الشيء الكثير صار فحلا من فحول الشعر في زمانه ، و شهد له الكثير من النقاد بتفوقه و براعته ، ومن يكن أمره كذلك فلابدَّ أن يكون قد نشأ تنشئة أدبية عالية.

لقد حقق ابن دراج مكانة أدبية مرموقة ، وشهد له بذلك مؤرخو الأندلس ، يقول عنه ابن بسام([2]): "كان أبو عمر القسطلي وقته لسان الجزيرة شاعراً أوّلاً حين عدَ معاصريه من شعرائها المشهورة ،وآخر حاملي لوائها ،وبهجة أرضها وسمائها ، وأسوة كتابها وشعرائها ،له عُقد فخرها المحمول وسُهِم ،وبه بُدئ ذكرها الجميل وخُتِم،حلَّ اسمه من الأماني محلَّ الأنس ،وسار نظمه ونثره في الأقاصي والأداني مسير الشمس . واحد من تضاءلت الآفاق عن جلالة قدره ، وكانت الشام والعراق أدنى خُطى ذكره".

وأعجب به ابن حيان أيّما إعجاب، يقول فيه([3])"وأبو عمر القسطلي سبّاق حلبة الشعراء العامريين ،وخاتمة محسني الأندلس أجمعين" .وترجم له الثعالبي في كتابه اليتيمة ،

[1] ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، القسم الأول، المجلد الأول: ٦١.
[2] المصدر نفسه:٥٩،٦٠
[3] المصدر نفسه: ٦٠

يقول([1]):"بلغني أن أبا عمر القسطلي كان عندهم بصقع الأندلس كالمتنبي بصقع الشام ،وهو أحد شعرائهم الفحول هنالك ، وكان يجيد ما ينظم".

وعدّه ابن حزم شاعر الأندلس الأول،ورأى أن مكانته الشعرية لا تقل عن مكانة البحتري والمتنبي،يقول([2]) :"لو قلت إنه لم يكن بالأندلس أشعر من ابن دراج لم أبعد،ولو لم يكن لنا من فحول الشعراء إلا أحمد لما تأخرعن شأو حبيب والمتنبي".

وأشار ابن شهيد إلى موهبة ابن دراج الشعرية مجريا مقارنة نقدية بين شعر ابن دراج وغيره من شعراء الأندلس، مما جعله يؤثر ابن دراج لما اتصف به من البديهة ، والميل إلى الطبع، والبعد عن التكلف في شعره، مع إطالة القصيدة، وتوصله للمعنى وترديده له. يقول([3]):"والفرق بين أبي عمر وغيره، أن أبا عمر مطبوع النظام، شديد أسر الكلام ،.. وما تراه من حوكه للكلام وملكه لأحرار الألفاظ ،وسعة صدره ،وجَيْشَة بحره ،وصحة قدرته على البديع ،وطول طلقه في الوصف، وبغيته للمعنى وترديده وتلاعبه به وتكريره، وراحته بما يتعب الناس، وسعة نفسه فيما يضيق الأنفاس".

وفي ظل المنصور العامري وابنيه عبد الملك وعبد الرحمن، قضى ابن دراج نحواً من ستة عشر عامًا ،وشعره في الدولة العامرية يعتبر من أروع ما نظم، وأحقه بالتقدير، الأمر الذي يذكرّ بقصائد المتنبي في سيف الدولة الحمداني، وجهاده وكفاحه للدفاع عن الثغور الشمالية للدولة العربية ضد مملكة البيزنطيين، مما بث في نفس شاعره المتنبي شعورًا قويًا مضطرمًا بالفتوة العربية، الأمر الذي تكرر مع المنصور بن أبي عامر وشاعره ابن دراج، فابن أبي عامر هو الذي جعل من هذه الدولة العربية القاصية المنحصرة بين البحر وممالك أوروبا المسيحية أقوى دول الغرب الإسلامي كله، وكان المنصور رمزًا لمجد الإسلام في تلك البلاد.

و يعود ابن دراج إلى قسطلة دراج في أعمال جيّان ،وقد أنجبت هذه البلدة قبله أول شاعر أندلسي تميّز بالأصالة وقوة الشخصية ، وهو يحيى بن الحكم الغزال([4]). وأما في القرن الرابع فلعل أهم

---

[1] المصدر نفسه:٦٠، وابن خلّكان ،وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان :١٣٠.
[2] الحميدي، جذوة المقتبس:٩٩ .
[3] ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، القسم الأول، المجلد الأول: ٦١
[4] شاعر كثير القول مطبوع النظم في الحكم والجد والهزل ، جليل في نفسه وعمله ومنزلته ، وسفيرا لملوك بني أمية إلى ملوك الروم (١٥٦ -٢٥٠هـ)،انظر : الحميدي ،جذوة المقتبس : ٢٣٨

شعراء جيّان الإخوة أحمد وسعيد وعبدا لله أبناء محمد بن فرج ([1]). وهذه إشارة واضحة إلى تأصل الموهبة الشعرية في أصول ابن دراج وبيئته .

وعندما نضجت موهبة شاعرنا، و فاضت شاعريته ، تطلع إلى العاصمة الأندلسية "قرطبة" حيث المنصور بن أبي عامر.ويبدو من شعر ابن دراج أنّه خرج من قسطلة سعيا في طلب الرزق ،بعد أن قوي عوده، وأنس في نفسه القدرة الأدبية، فشق طريقه إلى بلاط الحاجب العامري ؛ لما بلغه عنه من إكرامه للأدباء، وتقديره لهم وعلى رأسهم صاعد البغدادي الذي نال الحظوة عنده وقربه إليه، وهناك استقرت به النوى ،وسطعت شمسه،وشاع ذكره،ومدحه بقصيدته الأولى، ومطلعها([2]) :

أضَاءَ لها فجرُ النُّهى فَنَهاها عن الدَّنِفِ المُضْنى بِحَرِّ هَواهَا

وصور صعوبة رحلته حتى حطّت به الرحال في قرطبة،يقول:

وقد عَجَمَتْ مني الخُطوبُ ابنَ حُرَّةٍ أبِيَّا مَحزَّاتي لِوقعِ مُدَاهَا
جَدِيراً إذا أكْدى الزمانُ برحلَةٍ يُحَقِّرُ بُعْدَ الأرْضِ عَرْضُ فَلاها
رَحَلتُ لها أدْماءَ([3]) وَجْنَاءَ([4]) حُرّةً وشيكاً بأوْبَاتِ السُرور سُرَاها

ويصور مشهد الوداع بصور إنسانية معبرة،تظهر تعلق ابن دراج بأسرته،وتعلقها به،مما يمنحنا الاطلاع على جانب من شخصية وحياة ابن دراج التي اتسمت بالالتزام والبعد عمّا وقع به عدد من أبناء عصره من ميل إلى اللهو وشيء من العبث كابن شهيد.

وهنا يذكر من قام بوداعه من أهله،ويخص زوجته وابنته ،إذ سريعا ما يشيح بوجهه عنهما مخفيا مشاعر الحزن التي اشتدت به ساعة رحيله، مقابلا تلك الحالة بأمل يحدوه نحو المنصورالعامري، يقول:

ولله عزْمي يوم وَدَّعْتُ نحوه نُفُوساً شَجاني بَيْنُها وشَجَاهَا

---

[1] مقدمة ديوان ابن دراج: ٣٥
[2] ديوان ابن دراج : ١٠
[3] أدماء: الأُدْمةُ في الإبِل لَوْنٌ مُشْرَب سَواداً أو بياضاً: ابن سيده، أبو الحسن علي بن إسماعيل الأندلسي، المخصص في اللغة، الطبعة الأولى، تحقيق خليل إبراهم جفال، دار إحياء التراث العربي،بيروت ١٩٩٦م (أدم).
[4] الوجناء: الناقة التامة الخلق العظيمة لحم الوجنة:ابن منظور،لسان العرب(وجن)

ورَبَّــــــةُ خِــــــدرٍ كالْجمَـــــان دُمُوعُهـــــا عَزيـــــزٌ علـــــى قلبـــــي شُـــــطُوطُ نَوَاهـــــا

وبِنْــــــتُ ثَمـــــانٍ مــــــا يَـــــزالَ يَرُوعُنِـــــي علـــــى النَّـــأيِ تَـــذْكارِي خُفُـــوقَ حَشَـــاها

ثـم ينتقل إلـى مدح المنصور،ويخلع عليـه من الصفات أعظمها ليستميل قلبه، فيصفه بالسمو والعظمة والشجاعة و الكرم وعراقة النسب، ولا ينسى خلال ذلك أن يجعله معقد آماله ومقصدها :

فَحَطّــتْ بِمَغْنَــى الجُــودِ والمَجْــد رحْلَهــا وألْقَـــــتْ بِرَبْـــعِ المَكْرُمَـــــاتِ عَصَــــاها

لَــــدى مَلِــــكٍ إحــــدى لَــــوَاحظِ طَرْفِـــــهِ بِعــــيْنِ الرِّضَــــا حَسْــــبُ المُنـــى وكَفَاهــــا

هــو الحَاجِــبُ المنصــورُ و المِلِــكُ الــذي سَـــــــعَى فتعـــــــالى جَـــــــدُّه فَتَنَـــــــاهى

سَـليلُ المُلــوكِ الصِّــيدِ مِــنْ سَــرْوِ حِمْيَــرٍ توَسَّـــــطَ فـــــي الأحْسَــــابِ سَـــمْكَ ذُرَاهــــا

وابـن دراج قـال هـذه القصـيدة يعـارض فيهـا صـاعد بـن الحسـين اللغـوي([1])، فاستحسـنها المنصور، إلا أنَّها في الطرف الآخر كانت مبعث حسد لـه،ومثار تشكيك الوشاة فيه،فقد أثـارت ضغينة الحساد، واتهم بدعوى النحلة كما اتهم صاعد قبله.

إن النخبة من الأدباء والشعراء قد سمعوا تلك الأبيات، ووقع جرسها من لسان الطارئ الجديد الـذي أبهر مسامع المنصـور ومسامعهم ([2])،ممـا أثـار حفيظـتهم مخافـة أن يـزاحمهم فـي ديـوان العطاء،وفي حلوله مكان الصدارة في مجلس المنصور،لذا استمر التشكيك بقدرته الشعرية؛ ويمتحن مرة أخرى، ويجتاز الامتحان بامتياز، وتزول عنه تهمة الانتحال، ويفرح المنصور به ،ويجري عليه الرزق ويصله ،ويثبّت اسمه في جملة الشعراء، وفي هذه القصيدة يقول([3]):

حَسْبِي رِضَـاكَ مـن الـدهْرِ الـذي عَتَبَـا وجُـــــودُ كَفّيْـــــكَ للحَـــــظِّ الـــــذي انْقَلَبَـــــا

يــا مَالِكَــاً أصْــبَحَتْ كَفّــي ومَــا مَلَكَــتْ ومُهْجَتِــــي وحَيَــــاتِي بَعْــــضَ مَــــا وَهَبَــــا

مَــا أقْلَــعَ الغَيْــثُ إلا رَيْثَمَــا خَفَقَــتْ مَجَــــادِحُ الجُــــودِ مِــــن يُمْنَــــاكَ فَانْسَــــكَبَا

ويعبر عن عدم رضاه عن الحاسدين والواشين والمشككين بمقدرته الشعرية ، يقول:

ويلتمس من المنصور أن يستخدمه في الكتابة، يقول:

عَبْـدٌ لِنُعْمِــاكَ فِــي كَفيَــهِ نَجْــمُ هُــدىً سَـــــارٍ بِمَـــــدْحِكَ يَجْلُـــــو الشَّـــــكَّ والرِّيَبَـــــا

---

[1] الحميدي،جذوة المقتبس:٩٧

[2] المصدر السابق:٩٧

[3] ديوان ابن دراج: ٣٦٣

إن شِـئْتَ أَمْلَـى بَـدِيعَ الشِّـعْرِ أَوْ كَتَبَـا   أَو شِـئْتَ خَاطَـبَ بِـالمَنْثُورِ أَوْ خَطَبَـا

ولقاء تلك القصيدة يكافئه المنصور بمائة دينار،وبراتب شهري يعمل لقاءه كاتبا في ديوان الإنشاء وشاعراً في ديوان المنصور العامري(١) .

عاش ابن دراج في بلاط الحاجب المنصور،وفي بلاط ابنه المظفر فترة طويلة تجاوزت سبعة عشر عاماً(٣٨٢-٣٩٩هـ) ،وكان ينعم بعيش رغد وحياة مستقرة ، علت فيها مكانته، وتوطدت علاقته بكبار الدولة،حتى غدا نجماً من النجوم الساطعة في فلك دولة المنصور ومن كبار شعرائه (٢). وقد كرس الشاعر شعره لخدمة العامريين ،فراح يمدحهم ، ويسجل انتصاراتهم ،ويخلد مآثرهم بقصائد عجّ بها ديوانه (٣).

ولم يزل ابن دراج يصعد بمنزلته الشعرية عند المنصور حتى تربع ذروة الشعراء لديه وغدا أكثرهم حظوة عنده، وظل يسجل مآثره ومآثر ابنه من بعده،كما سجل الأحداث والفتوح في عهديهما،واختص بكبار الأعمال ينشأ كتبها ويوثقها. يروي ابن حزم حادثة تصدير كتاب فتح حصن "شنتياقب "(٤)وغيرها من القلاع الحصينة التي يقال إن أحدا لم يصل إليها قبل المنصور ، فاستدعى المنصور ابن دراج وابن الجزيري(٥)، وأمرهما بإنشاء كتب الفتح إلى الحضرة ، وإلى سائر الأعمال ، فاستأذن ابن دراج المنصور أن يمنحه يومين أو ثلاثة كي يتمكن من انجاز المهمة، بينما جهز تلك الكتب الجزيري خلال ساعات ، ولما مضت الأيام الثلاثة جاء ابن دراج بكتبه فاستحسنت وملكت إعجاب الناس بها(٦) .

وهذا النص يشير إلى طريقة ابن دراج في الإنشاء ،إذ كان معروفا بالتنقيح والتجويد والتؤدة،كما يشير إلى المكانة الأدبية التي حظي بها ، والشهرة الواسعة التي حققها،إذ إنّ راوي الحادثة يقول عن الكتب(٧) :"ولم تزل منقولة متداولة إلى الآن ،وما بقي من نسخ ابن الجزيري في ذلك الفتح على كثرتها عين ولا أثر" .

---

١ الحميدي،جذوة المقتبس:٩٨

٢ مقدمة ديوان ابن دراج:٤٨

٣ انظر قصائده في العامريين في الديوان.

٤ شنتياقب: مدينة محصنة في منطقة جليقية يقع في أقصى شمال غرب اسبانيا،ابن عذارى،الجزءالثاني:٢٩٤

٥ عبد الملك بن إدريس الجزيري أبو مروان (ت٣٩٤ هـ)وزير أندلسي من الكتّاب من أهل قرطبة.تولى الإنشاء أيام المنصور بن أبي عامر وبقي إلى زمن ابنه المظفر،فعزله واعتقله في برج من أبراج طرطوشة، لبث فيها إلى أن مات ،و له رسائل وأسفار كثيرة مدوّنة. الحميدي ،جذوة المقتبس:٢٤٨

٦ الحميدي ،جذوة المقتبس: ٩٨.

٧ المصدر نفسه: ٩٨.

هكذا سما قدر ابن دراج عند المنصور ، ولازمه كظله في السلم والحرب، و في الرخاء والشدة، يمدحه بغرر قصائده ، ويصف أبرز أحداث الدولة العامرية، فعهد هذا الحاجب كان كله غزوات متواصلة، وفتح لمعاقل استعصت على من قبله ، فلم يفت شاعرنا أن يرفع لواء شعره في الإشادة بعظمة فتوحات هذا القائد،وعز الدولة الأندلسية ، لذلك فشعره إلى جانب قيمته الفنية، يحمل أهميّة تاريخية لحقبة مهمة من تاريخ الأندلس .

ولما وقعت أحداث الفتنة منهية الدولة العامرية انقلبت الأوضاع رأساً على عقب وتخبط الناس في أعمالهم. وطبيعي أن تنعكس ظلال فترة هذه الفتنة على نفوس الناس ،فتملأها بالاضطراب والقلق ، وتفعهما بالمرارة والإحساس بالضياع ، وتدفعها إلى التماس الراحة، والبحث عن المستقر، والناس مختلفون في التماس راحة قلوبهم ، والبحث عما يقر أنفسهم، وذلك لاختلاف طبائعهم وظروف حياتهم ، فمنهم من يرى الراحة والاستقرار في اللجوء إلى ذوي السلطان،"كما نرى من ملامح نفسية ابن دراج،و شعوره دائماً بالحاجة إلى من يوفر له الأمن، وإحساسه بضرورة الاستقرار،وفزعه الشديد من التشتت والضياع"([1]).

وظهر الشعراء المادحون المتقلبون المتجولون على أبواب الملوك والأمراء ،ومن بين الشعراء الذين طرقوا أبوابهم ووفدوا عليهم متوسلين، شاعرنا القسطلي الذي كان من مشاهير الشعراء،وقد" طوَّحتْ به الفتنة الشّنعاء ، واضْطرَّتهُ إلى النُجعة ، فاستقرى ملوكها أجمعين ، ما بين الجزيرة الخضراء ، فسرقسطة من الثغر الأعلى ، يهز كلا بمديحه ، ويستعينهم على نكبته ، وليس منهم من يصغي له ، ولا يحفظُ ما أُضيع من حقه ، وأُرْخِص من عِلْقِهِ ، وهو يَخْبِطُهُم خَبْطَ العِضَاه بمقوَلَه فَيَصَمُّون عنه "([2])،فابن دراج مدح الملوك جميعهم في تلك الفتنة ، ولكنه لم يجد منهم إلا الغدر والخيانة ، وقد حولته الفتنة متسكعاً على الأبواب هارباً من أشباح الجوع ، ينقل معه أولاده حيثما انتقل.

ولعل صفة القلق والاضطراب لازمته طوال سني حياته، إلا أنّ دبيبها خفت وقعه في نفسه في ظل المنصور بن أبي عامر ، فما أن يقضي المنصور شهيدا بجوار ربه ،حتى عاود ابن دراج ذاك الشعور المؤرّق ، لذا نجد من خلال أبيات مدحه للمظفر العامري، الذي ولي العهد بعد والده المنصور مشاعر الألم والحزن والقلق، مع شعور حاد بالغربة ، يقول([3]) :

---

[1] هيكل، أحمد دراسات أدبية، الطبعة الأولى، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٠ :٢٥٤ .
[2] ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، القسم الأول ،المجلد الأول:٦١،٦٠ .
[3] ديوان ابن دراج : ١٨.

أَعْطَيْتَنِـــــي ذُخْـــرَ الزَّمَــانِ وإنَّمَــا شَــــرفَ الحيــــاةِ وعِزَّهَــــا أَعْطَتْنَــــي

لَبَّيْـــكَ شَـــاكرَ نِعْمَـــةٍ أنْـــتَ الـــذي لَمَّـــــا دَعـــــوتُ غِيَاثَهَـــــا لبَّيْتَنِـــــي

فَقَتَلْـــتَ هَمَّـــاً ذُقْـــتُ حَـــدَّ سُـــيُوفِهِ بِسُــــــيُوفِ إنَعَـــــامٍ بِهـــــا اسْـــــتَحْيَيْتَنِي

ورَعَـــى لـــك الـــرحمنُ مـــا اسْـــتَرْعاَكَهُ مِـــــنْ دِينِـــــهِ أَجْـــــراً بِمَـــــا رَاعَيْتَنِـــــي

وشَـفَى سُـيُوفَكَ مِـنْ عِـدَاكَ وقَـدْ سَـطَا هَـــــمٌ أمُـــــوتُ بِدَائِـــــهِ فَشَـــــفَيْتَنِي

وكُفِيـتَ مـا اسْـتُكْفِيتَ يَـوْمَ أَلَـمَّ بِـي هَـــــمٌ أنَـــــاخَ بِكَلْكَلِــــــي فَكَفَيْتَنِــــي

فابن دراج مثقل بالهموم والأحزان بسبب الهم والقلق الذي يلازمه سجية ،فهو دائماً بحاجة إلى من يرعاه ويسبغ فضله عليه ، فهو يقول هذه الأبيات وهو يقارع هم تحول المظفر عنه، ويخشى أن سياسة المظفر تفارق سياسة أبيه المنصور ،ذلك الذي وجد عنده ملاذه وإسعافه وإشفاقه وكرمه عليه،كما وجد لديه تقديراً لمواهبه وإمكاناته الشعرية والنثرية .

ولعلنا إذا وقفنا عند المفردات والعبارات في الأبيات السابقة أحسسنا بعميق القلق والخوف لدى الشاعر ،ولننظر في الجمل التالية :"هم أناخ بكلكي ، هم أموت بدائه ،فشفيتني ،فقتلت هما ،ذقت حد سيوفه".

ولعل في تكرار لفظة الهم ثلاث مرات ما يشعرك بثقل أحزانه وغلبة همومه.كما أنَّ ألفاظ القصيدة، ومنها: لما دعوت غياثها ،لبيتني ،وراعيتني ،وفيتني ، و أحييتني"، توحي إلى السامع حاجة ابن دراج الملحة إلى العناية والرعاية .

إن الأمن والأمان والكرم والعطاء الذي وجده ابن دراج في ظل العامريين، مع سيطرة مشاعر الخوف والقلق، ودوام الاضطراب عنده ، دفع هواجسه تلك نحو الطغيان على مشاعره الأخرى في بناء القصيدة، فكانت العاطفة صادقة وبارزة في ثنايا شعره.

وإذا ما أدركنا أنّ الناس ليسوا سواء في مواجهتهم للشدائد والصعائب والفتن ،تفهمنا حجم الكارثة التي أحاقت بالناس بشكل عام وبالشعراء بشكل خاص ، فكيف بابن دراج وهو قلق مضطرب في أصله ،تتقاذفه الهموم منذ خروجه من قسطلة دراج .

وهذه الحساسية الملازمة له ،أسهمت ومنذ قصيدته الأولى في إبراز تلك المشاعر الإنسانية الحارة أمام المنصور،وأضفت على القصيدة طابعاً خاصاً،باعدها عن القصائد التي تناولت موضوع الرحلة.

لقد كان ابن دراج مرتزقاً من سلطة العامريين، ترامى على خدمة المظفر كما خدم أباه من قبل ،يقول ابن حيّان([1]) :"وكان من شعراء أبي عامر ، لأنه تراخت أيامه ،وأغض عن حمامه ،حتى أخرجته المحن ، وسالت به تلك الفتن ". و إجمالا فابن دراج عاش في ظل الدولة العامرية ستة عشر عاما (٣٨٢ – ٣٩٩ هـ)، و هي فترة ليست بالقصيرة، مدح خلالها الحاجبين العامريين المنصور بن أبي عامر وابنه عبد الملك المظفر ، و من الممكن أن تعد هذه الفترة أخصب فترات الشاعر إذ نعم باستقرار مادي و معنوي ففاضت شاعريته ، فقد مدحهما بما يفوق خمسين قصيدة،وهذا يدل على كثرة شعره ، والسمة البارزة في شعره هي غلبة المدح بشكل ملفت للنظر إن لم نقل إنّه مدح تشوبه أحيانا بعض الأغراض الأخرى .

ويبدو أن ابن دراج لبث في قرطبة يعلل نفسه برجاء انقشاع الأزمة، وانجلاء الفتنة ، فساير تقلب الدول ، فما أن يعلن ابن عبد الجبار خلافته حتى يتوجه إليه ابن دراج مادحا([2]) :

قُلْ للخِلافَةِ قَدْ بَلَغْتِ مُنَاكِ ... ورأيْتِ ما قَرّتْ بِهِ عَيْنَاكِ

و في آخرها يجهر بشكواه ويبكي حظ أدبه المضيع :

وأنَا الشّرِيدُ وظِلُّ عِزِّكَ مَوئِلِي ... وأنَا الأسِيرُ وفي يَديكَ فِكَاكِي

أَدَبٌ أَضَاءَ المَشْرِقَيْنِ و تَحْتَهُ ... حَظٌّ يَئِنُّ إليْكَ أَنَّةَ شَاكِ

إلا أن هذا الأمير لم ينعم بالخلافة طويلا، إذ سرعان ما ثار عليه أموي أخر، وهو سليمان بن الحكم الملقب بالمستعين. فيتحول ابن دراج إلى مدحه، يقول ابن حيّان([3]) : "وكان ممن شهر امتداحه للخليفة سليمان يومئذ،وحفظ كلامه من تلك الطبقة العلية ،كبيرها أبو عمر أحمد بن محمد بن دراج القسطلي،وقد كان إلى وقته ذلك ثاويا بقرطبة،يحسب أن سليمان سيجيره من الزمان ،وكان النجم أدنى من ذلك إليه". ويحفظ ديوان ابن دراج ثلاث قصائد دفعها ابن دراج إلى

[1] ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، القسم الأول، المجلد الأول:٦٠
[2] تم الإشارة إلى القصيدة في المبحث الثاني من الفصل الأول من الرسالة: أحداث الفتنة.
[3] ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، القسم الأول، المجلد الأول:٦٧

المستعين، ويروي ابن بسام لنا قصيدته الدالية في أول مجلس للمستعين في قصر الخلافة([1])، و يمدحه بنونيته المشهورة ([2]):

هَنِيئْــاً لهــذا الــدَّهْرِ رَوْحٌ وَرَيْحَــانُ وللــدّينِ والّــدنيا أمــانٌ وإيمَــانُ

بــأنَّ قعيــدَ الشِّــركِ قَــدْ ثُــلّ عرشُــهُ وأنَّ أميــرَ المُــؤمِنين سُــلَيْمانُ

ويستغل ابن دراج مناسبة عيد الأضحى (٤٠٣ هـ) فينشده قصيدة علّه يحظى بالقرب منه،يقول ([3]):

شَــهِدْت لــكَ الأعْيَــادُ أنّــكَ عِيــدُها بِــكَ حــنَّ مُوحِشُــهَا وآبَ بَعِيــدُهَا

وأضَــاءَ مُظلِمُهَــا وأفْــرَخَ رَوْعُهَــا وَأطَــاعَ عَاصِــيهَا وَلاَنَ شَــدِيدُهَا

وقال فيه([4]):

تَخَيَّـرْتَ فَاستَمْسَـكْتَ بـالعُرْوَةِ الـوُثْقَى فَبُشْــرَاكَ أنْ تُفَنــى عِــدَاكَ وأنَ تَبْقَــى

فَمَـا أبطَـلَ الـرحمنُ بَاطِـلَ مـن بَغَـى عَلَــى الحَــقِّ إلا أنْ يَحِــقَّ بِــكَ الحَقّــا

ويحدثنا ابن بسام عن المستعين ويصفه بالشاعر والأديب يقول([5]):" وكان سليمان ممن مدت له في الأدب غاية،كبا دونها أهل الآداب، ورفعت له في الشعر راية مشى تحتها كثير من الشعراء والكتاب".إلا أن جريان الأحداث الساخنة في قرطبة دفعته إلى أن يصمّ آذانه عن سماع الشعر ومنادمة الأدباء،بل يروي ابن بسام قطعة من شعر المستعين أثبتها في ذخيرته([6]) .

ومع أن ابن دراج ألح عليه، وشكا له شكاية اليائس ،وصور حاجته وأسرته ، ثم كنفه يأس أقضّ مضجعه ،دفع به إلى التفكير بالرحيل .أمّا قصيدته الأخيرة في المستعين فمطلعها :([7]) :

بَلَغَــتْ عَبْــدَكَ الخُطُــوبُ مَــدَاهَا يَــومَ تَبْليغِــكَ النُّفُــوسَ مُناهَــا

وتَنَــاهَى جَهْــدُ الحَيَــاةِ بِمَــنْ لَــمْ يَسْــعَ فيمــا رَضِــيتَ إلا تَنَــاهَى

وعَجِيــبٌ أنْ يُفْنِــيَ الظَمْــءُ نَفْسَــاً أبْحُــرُ الأرْضِ فــي يَــدَيْ مَوْلاَهَــا

فيقنط ابن دراج من سليمان المستعين ، وسليمان هذا لم يستمع إليه، ولم يهتم لشكواه،و يلتفت إلى أحد وزرائه ، وهو القاسم بن حمود، وكان حينئذ في قرطبة ،فمدحه بقوله ([8]):

---

[1] المصدر نفسه

[2] تم الإشارة إلى القصيدة في المبحث الثاني من الفصل الأول من الرسالة: أحداث الفتنة.

[3] تم الإشارة إلى القصيدة في المبحث الثاني من الفصل الأول من الرسالة: أحداث الفتنة.

[4] ديوان ابن دراج : ٦٧

[5] ابن بسام، الذخيرة، القسم الأول، المجلد الأول:٤٦

[6] ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة الذخيرة، القسم الأول، المجلد الأول:٤٧

[7] ديوان ابن دراج : ٦٩

[8] المصدر نفسه : ٧٠

كَـــمْ أَسْـــتَطِيلُ تَضَـــلّلِي و تَلَـــدُّدِي و أَرُوحُ فـــي ظُلَـــمِ الخُطُـــوبِ وأغْتَـــدِي
والأَرْضُ مُشْـــــرِقَةٌ بِنُـــــورَيْ رَبِّهَـــــا والفَجْـــرُ مُنْـــبَلِجٌ لِعَـــيْنِ المُهْتَـــدِي

ثم ختم قصيدته، وقد بث ألمه وشكواه، وأفرط في إظهار حاجته وفاقته، يقول:

فـــي سِـــتَةٍ ضَـــعُفُوا وضُـــعِّفَ عَـــدُّهُمْ حَمْـــــلاً لِمَبْهُـــــورِ الفُـــــؤَادِ مُـبَـلّـــــــدِ
شَـــدَّ الجَـــلاءُ رِحَـــالَهُمْ فَتَحَمَّلَـــتْ أَفْـــــلاذَ قَلْـــــبٍ بِـــــالهُمُومِ مُبَـــــدَّدِ
وحَـدَتْ بهـم صَـعَقاتُ رَوْعٍ شَـرَّدَتْ أَوْطَـــانَهُمْ فـــي الأرضِ كُـــلَّ مُشَـــرَّدِ
لا ذَاتُ خِـــدْرِهِمُ يُـــرَامُ لِوَجْهِهَـــا كِـــــنٌّ ولا ذُو مَهْـــــدِهِمْ بِمُمَهَّـــــدِ
عـاذُوا بلَمْـعِ الآلِ فـي مَـدِّ الضُّـحَى مِـــنَ بَعْـــدِ ظِـــلٍّ فـــي القُصُـــورِ مُمَـــدَّدِ
واسْـتَوطَنُوا فَزَعـاً إلـى بَحْـرِ النَّـدى أَهْـــوَالَ بَحْـــرٍ ذِي غَـــوَارِبَ مُزْبِـــدِ
مـنْ كُـلِّ عَـارٍ بالتَّجَمُّـلِ مُكْـتَسٍ ومُـــزَوَّدٍ بالصَّـــبْرِ غَيْـــرِ مُـــزَوَّدِ
ولِـنِعْمَ جَبْـرُ الفَقْـرِ مـن بَعْـدِ الغِنَـى والـــذُّلِّ بَعْـــدَ العِّـــزِّ آلُ مُحَمَّـــدِ

ولما كان السفر والرحيل يشقان على ابن دراج ، فقد ملأ قصائده بصور الوداع وفراق الأهل والأولاد ،وتصوير مشاق السفر ووعورة الطريق ،وهياج البحر،وغيرها من مشاهد السفر المضني. فالأبيات السابقة تعج بالشكوى من تشرده وضياعه وبعده عن وطنه،ومن تزاحم الهموم التي ضربته، وأصابت صميم قلبه،الذي كان مشغولا دائما بأسرته الكبيرة التي يخشى ضياعها في حر الشمس بعد ظل القصور ،فلا مستقر لها ولا مستودع.

وهذه الصورة تظهره دائم القلق والاضطراب على نفسه وعياله،ولعل من أسباب ذلك تلك الظروف الخاصة التي أحاطت بابن دراج من شدة حساسيته بأولاده إلى قسوة الأيام عليه وعليهم ؛ ولذلك يعد ابن دراج صاحب السبق كما ونوعا في تصوير صور الوداع وفراق الأهل والأولاد ،حتى غدت ظاهرة غلب غيره من الشعراء في إبرازها بألوان مختلفة من الذكر([1]).

وعزم ابن دراج على الرحيل عن قرطبة ليضرب في الأرض بحثا عن سد فاقته، وطلب أمنه واستقراره.ويبدو أنه أراد قبل الرحيل أن يستأذن سليمان المستعين استئذان من يود لو يسعفه ويكفيه مغبات السفر، ومغامرة جديدة تقصيه عن قرطبة ،فخاطب المستعين برسالة منها([2]):"حاشا لله أن أسْتَشِفَّ الحَسْيَ قبل جُمُومِه ،واستَكْرِه الدَّرَّ قبل حُفُوله ،أو أتعامى عن سِراجِ المَعذِرة ،وأرغب عن أدب الله في نَظِرةٍ إلى مَيْسَرةٍ ولكن:

[1] هيكل،أحمد ،الأدب الأندلسي: ٣١٦
[2] ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، القسم الأول، المجلد الأول:٦٣، وانظر الأبيات أيضا الديوان:٥٤٧

مَـــاذَا تَقُـــولُ لأَفــــراخٍ بِـــذِي مَـــرَخٍ   حُمْـــرِ الحَواصِـــلِ لا مَـــاءٌ ولا شَـــجَرُ (1)
مــا أوْضَـحَ العُـذْرَ لِـي لـو أنهـم عَـذَروا   وأَجْمَــلَ الصَّـــبْرَ بِـــي لـــو أنهـــم صـــبروا
لَكِـــنَّهُم صَـــغَرُوا عـــن أزْمَـــةٍ كَبُـــرَتْ   فَمَـــا اعتـــذاري عَمَّـــنْ عُـــذْرُهُ الصِّـــغَرُ"

و يظهر أن الرسالة لم تحرك ساكنا في المستعين ،إذ رحل ابن دراج عن قرطبة وتوجه إلى علي بن حمود في سبتة .

و يبدو أن الشعر في ظل عهد الفتنة كان يعمل بطاقة الدفع الذاتي ،أي أن الشعر يتوقد كردة فعل طبيعية ناجمة عن تفاعل الشعراء بواقعهم الجديد الذي كان كفيلا بهز قرائحهم،واستجلاب انفعالاتهم وعواطفهم .وظل الدور الدعائي على خجله متابعا لأحداث الفتنة في الغالب، دون رعاية رسمية لهذا الشعر وتوجيهه كما كان في عهد المنصور بن أبي عامر، حيث نجد ديوان الشعراء وهو مظلة رسمية حاضنة للشعر والشعراء ،وتكفل تسويقه ونشره وتوجيهه بما يخدم ويدعم السلطة العامرية في نظام الحكم القائم.

أما في عهد الفتنة فإن الدور الدعائي للشعراء كان تأثيره محدوداً ،وذلك لزهد كثير من الرؤساء في الشعر والشعراء ،فقد كان معظم هولاء الرؤساء من البربر من ناحية،ومن ناحية أخرى كانت القوة العسكرية متفردة في تحديد الواقع السياسي والاجتماعي على أرض الواقع، فسليمان المستعين- كما أشرت سابقا- كان أمويا شاعرا وأديبا، ومع هذا لم يجد الشعراء موطئ قدم في بلاطه، ولم يوسع لهم في مجلسه ؛لانشغاله بتثبيت أركان حكمه، مما أثر تأثيرا سلبيا في الحركة الأدبية والثقافية،وإلى ذلك يشير ابن حيان (2): "لما استوثق الأمر في قرطبة لسليمان...، تعرض لمدحه من كان ثوى بقرطبة يومئذ من بقية الشعراء العامريين،رجاء في ثمد نواله،فصاغوا في مديحه أشعارا حسنة اسْتذمُّوا فيها إلى الدين والمروءة ،وأنشدها أكثرهم في مجلس حَفْلِه علانيةً فأصغَى وهشّ،ثمّ غَلَّ المديحَ فما بَلَّ ولارَشّ ؛وتم لذلك تقويض الجماعة عن حضرة قرطبة،وتخلى الكثير منهم عن ولايته، فامّحَى لذلك رسْمُ الأدب بها ،وغلب عليها العُجْمة ،وانقلب أهلها من الإنسانيّة المتعارفَةِ إلى العامّيّة الصريحةِ".

لقد دخل ابن دراج في عهد المنصور بن أبي عامر ضاحكاً مستبشراً راغبا ،وخرج منها سنة (٤٠٤هـ/١٠١٤م) مكرهاً يائساً ،عضه الحزن مما لاقى والخوف مما سيلاقي. وفي هذه الظروف

1 هذا البيت مشهور وهو للحطيئة جرول بن أوس العبسي،ديوان الحطيئة،شرح يوسف عيد،الطبعة الأولى،دار الجبل،بيروت،لبنان١٩٩٢ :١٠١
2 ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، القسم الأول، المجلد الأول:٦٧

السياسية يظهر نجما القاسم وعلي من أبناء حمود الحسني،ويستشرف ابن دراج مستقبل هذين القائدين وما يخططان له من القضاء على الدولة الأموية ،وإقامة دولة علوية ([1]) ،ولذلك توجه بالمديح إليهما،ومما قاله في علي بن حمود ([2]):

لَعَلّكِ يا شَمْسُ عِندَ الأصيلِ　　شَجَيْتِ لِشَجْوِ الغَرِيبِ الذَلِيلِ

وتحول ابن دراج من مقامه في سبتة التي وصل إليها في نهاية العام (٤٠٤هـ/١٠١٤م)، وخرج منها بداية العام (٤٠٦هـ/١٠١٦م).وما خروجه من سبتة إلا مؤشر عن عدم رضاه عن سفرته هذه ،فهو لم يصل إلى طائل عطاء علي بن حمود ،ولربما أن حياة هذه الأسرة العلوية النسب بين البربر،جعلتهم جفاة ،لا يتذوقون جمال اللغة العربية،ولا تأثير الشعر في النفوس .

وتوجه إلى الموالي من الصقالبة ،إذ تردد ابن دراج مابين (٤٠٦هـ/١٠١٦م و٤٠٨/١٠١٨م) بين المرية وبلنسية وشاطبة وطرطوشة مادحا أمراء هذه المدن دون أن يظفر منهم بعطاء ([3]).و في في خيران العامري مولى المنصور بن أبي عامر، ورفيق ابن دراج في مجلسه يقول ابن دراج قصيدته النونية المشهورة،وفيها تصوير شعري بديع لما جرّته الفتنة على الأندلس من ويلات وكوارث، بلغة قوية رصينة، تذكّر بصياغات المتنبي وفحولة تعبيره، وهذه القدرة الفذة على التصوير والتجسيد لمشهد الرحيل والاغتراب، ولجج البحر تتخطف القلوب رعبًا وفزعًا، فالبحر الهائج في نظر هؤلاء الراحلين المذعورين قبر، والماء من تحتهم أكفان، وليس لهم من الأرض مأوى، ولا من الإنس عرفان. فلا مؤنس لهؤلاء الذين يركبون المخاطر ويتعرضون للحتف إلا الشهيق والزفرات، ولا مُسعد لهم إلا الدموع والأشجان.يقول ([4]):

لكَ الخَيْرُ، قد أوْفى بعَهْدِك خَيْرانُ　　وبُشْرَاكَ، قد آواكَ عِزٌّ وسُلْطَانُ

هو النُّجْحُ، لا يُدعى إلى الصُّبْحِ شَاهِدٌ　　هو الفَوْزُ، لا يُبْغَى على الشَّمْسِ بُرهانُ

إلَيْكَ شَحَنَّا الفُلْكَ تَهْوى، كَأنَّهَا　　و قَدْ ذُعِرَتْ عن مَغْرِبِ الشَّمْسِ غِرْبَانُ

---

[1] مقدمة ديوان ابن دراج:٦٦.
[2] تم الإشارة إلى القصيدة في المبحث الثاني من الفصل الأول من الرسالة: أحداث الفتنة.
[3] مقدمة ديوان ابن دراج: ٦٨.
[4] ديوان ابن دراج :٨٦.

علـــى لُجَـــجٍ خُضْـــرٍ إذا هبَّـــتِ الصَّـــبا   ترامــــى بهـــا فينـــا ثَبيــــرٌ وثَهْـــلاَنُ(١)

مَوائِـــلَ تَرْعَـــى فـــي ذُراهَـــا مَـــوَاثِلاً   كَمَـــا عُبِـــدَتْ فـــي الجَاهِليَّـــةِ أوْثَـــانُ

فالسفن تهوى في زمن غروب الشمس، وهي مثل الغراب الخائف من الليل ثم يصف سرعة تلك الفلك، فسرعتها كسرعة الرياح التي تهب على لجج الماء، وتقذف شيئا عظيما يشبه جبلي ثبير وثهلان، فتظهر السفن موائل، فيبصر فيها الركاب وقد غلب عليهم الخوف والهلع، فثبتوا في أماكنهم كالأوثان الثابتة الصامدة التي لا حراك لهم،وقد هزهم الشوق والحنين إلى الأهل والأحبة،ذارفين عليهم ملء العيون دمعا،ويقول :

وفي طَيِّ أسمَالِ الغَرِيبِ غَرَائِبـــــــــٌ   سَـــكَنَ شَـــغَافَ القَلْـــبِ شِـــيبٌ وَوِلْـــدانُ

يُـــرَدِّدْنَ فـــي الأحشَـــاءِ حَـــرَّ مَصَـــائِبٍ   تزيـــدُ ظَلامـــاً لَيْلَهَـــا وهْـــيَ نِيـــرَانُ

إذا غِـــيضَ مَـــاءُ البَحْـــرِ مِنَهـــا مَدَدْنَـــهُ   بِـــدَمْعِ عُيـــونٍ يَمْتَـــرِيهِنَّ أَشْـــجَانُ

وإنْ ســـكَنَتْ عَنَّـــا الريَّـــاحُ جَـــرَى بنـــا   زَفِيـــرٌ إلـــى ذِكْـــرِ الأحِبَّـــةِ حَنَّـــانُ

يقِّلْـــنَ ومَـــوْجُ البَحْـــرِ والهَـــمِّ والـــدُّجَى   تَمُـــوجُ بنـــا فيهـــا عُيُـــونٌ وآذانُ

يتحدث الشاعر عن ملابسه الخلقة التي سكن بداخلها وسكنت معها أخلاق وعادات عجيبة،فغلب عليه الهم والحزن ، إنها عادة الرحيل والاغتراب،فهذه الغرائب كما وصفها ابن درَاج تردد في أحشاه اشتداد مصائبه، التي تشتد ويقوى لهيبها حتى تصبح أقوى في الليلة النيرة،ولهذا يصف ابن دراج قوة هذه الأهوال في إحدى رحلاته البحرية، ومدى التعب والقلق اللذين شعر بهما، فغيض ماء البحر وتحرك الأمواج بقوة، وانهمار الدموع ،كلها دلالات نفسية توضح الاضطراب النفسي،ويتساءل قائلاً:

---

١ ثَبيرٌ وثَهْلاَنُ: جبلان قرب مكة،(ثبر،ثَهْلاَنُ) ابن منظور،لسان العرب.

ألا هَـلْ إلـى الـدُّنيَا مَعَـادٌ وهَـلْ لَنَـا   سِـوى البَحْـرِ قبـرٌ أو سِـوى المَـاءِ أكْفَـانُ؟
وهَبْنَـا رأينـا مَعْلَـمَ الأرْضِ، هـل لنـا   مـن الأرْضِ مَـأوىً، أو مِـن الإنْـسِ عِرْفَـانُ
وصَـرْفُ الـرَّدى مـن دَونِ أدْنَـى مَنَـازِلٍ   تَبـاهَى إلّينَـا بالسُّـرُورِ وتَـزْدَانُ
تَقَسَّـمَهُنَّ السَّـيْفُ والحَيْـفُ والبِلَـى   و شَـطّتْ بنـا عنهـا عُصـورٌ وأزْمَـانُ
كمـا اقْتَسَـمَتْ أخْـدَانَهُنَّ يـدُ النَّـوى   فَهُـم للـرَّدَى والبَـرِّ والبَحْـرِ أخْـدَانُ
ظَعَـائِنُ عُمْـرَانُ المَعَاهِـدِ مُقْفِـرٌ   بِهِـنَّ وقَفْـرُ الأرْضِ مِـنْهُن عُمْـرَانُ
هَـوَتْ أمَّهُـمْ، مَـاذا هَـوَتْ بِرِحَـالِهِمْ   إلـى نَـازِحِ الآفَـاقِ سُـفْنٌ وأظْعَـانُ

وهنا التساؤل لا يقصد منه الحاجة إلى العلم بشيء لم يكن معلوما، ولكنه استفهام تضمن معنى التوجع والقلق ليعبر عن سوء الأوضاع التي وصل إليها ،والحال التي بلغها ، وحال غيره من أبناء المجتمع القرطبي بشكل خاص، والأندلسي بشكل عام،فالصور التي طرقها ابن دراج عكست لنا ألواناً من الحياة الأندلسية الاجتماعية بعد حدوث الفتنة. ويعتبر شعره من أدق الوثائق المفصلة لحياة الفرد في ظل الفتنة، فنراه يرصد العديد من الظواهر الاجتماعية عندما يصور حال النازحين والفارين عن دوائر الصراع، وما عانوه هؤلاء من قسوة وعنف، في حالتي البقاء أو الفرار،فيرسم صور العذاب التي أدت شيئا فشيئاً إلى تحلل البنية الاجتماعية وتصدعها .

فطول البعد ووحشة البحر جعلتهم قريبين من الموت ،ولم يعد بينهم وبينه حواجز أو فواصل،لذلك اعتمدت الصورة على التشبيه البليغ(البحر قبر، الماء أكفان)الذي لا يفصل بين المشبه والمشبه به، وتضيق المسافة بينهما على نحو ما ضاقت بين حياته وإحساسه بقرب الموت منه وهو ما نراه في الشطر الأول حين يتساءل متشككاً عن إمكانية العودة إلى الدنيا وكأنه ليس فيها . ثم يقول في موقف التأمل واستخلاص العبر وإطلاق الحكم على الزمان وأهله،متأثراً بما آل إليه مصير الخلافة العربية في الأندلس، وهوان شأنها وتشرذمها إلى دويلات:

سَـلاَمٌ علـى الإخْـوَانِ تَسْـلِيمَ آيِـسٍ   وسَـقْيًا لِـدَهرٍ كَـانَ لِـي فِيـهِ إخْـوَانُ
ولا عَرَّفَـتْ بـي خَلّـةً دَارُ خُلّـةٍ[1]   عَفَـا رَسْـمَها مِنْهـا جَفـاءٌ ونِسْـيانُ

---

[1] الخَلّة (بفتح الخاء): الصفة والخَصلة، وبضم الخاء: المحبة والمودة:ابن منظور، لسان العرب(خلل)

وغَرَّتْ بِبَرْقِ المُزْنِ مِنْ ذِكْرِ صَعْقِهِ ومـــن ذِكْـــرِ رَبٍّ كُـــلَّ يَـــومٍ لَـــهُ شَـــانُ

ويـا رُبَّ يـومٍ بـانَ صَـدْعُ سَـلاَمِهِ بصَـــدْعِ النَّـــوى أَفْـــلاذَ قَلْبِـــيَ إِذْ بَـــانُوا

نُـــوَدِّعُهُمْ شَـــجْوًا بِشَـــجْوٍ كَمِثْلِمَـــا أَجَابَتْ حَفِيفَ السَّـــهْمِ عَوْجاءُ مِرْنانُ[1]

ويَصْـدَعُ مـا ضَـمَّ الَـودَاعُ تَفَـرُّقٌ كمـــا انْشَـــعَبَتْ تَحـــتَ العَوَاصِـــفِ أَغْصَـــانُ

إِذا شَـرَّقَ الحَـادِي بِهِـمْ غَرَّبَـتْ بِنـا نَـــوىً يَوْمُهَـــا يومـــانِ والحِـــينُ أَحْيَـــانُ

فـــلا مُـــؤْنِسٌ إلا شَـــهِيقٌ وزَفْـــرَةٌ ولا مُسْـــــــعِدٌ إلا دُمُـــــــوعٌ وأَجْفَـــــــانُ

ولاَ قَـنْطٌ واليُسْـرُ للعُسـرِ غالـبٌ وفـــي العَـــرْشِ رَبٌّ بـــالخَلاَئِقِ رَحْمَـــانُ

ثم يتحول إلى الممدوح،يقول:

وتَسْـــتبْدِلُوا مِـــنْ مَـــوْجِ بَحْـــرِ شَـــجاكُمُ بِبَحْـــرٍ لَكُـــمْ مِنْـــهُ لُجَـــيْنٌ وعِقْيـــانُ[2]

فَتـــىً سَـــيْفُهُ لِلـــدِّين أَمْـــنٌ وإيمـــانُ ويُمنـــــاهُ لِلآمـــــالِ روْحٌ ورَيْحَـــــانُ

وبعد أبيات كثيرة في مدح (خيران) وتمجيد شجاعته وبطولته وفتكه بأعدائه - حتى لكأنّه يذكّر قومه بأفعال المنصور بن أبي عامر وبطولاته في زمانه ابن دراج، ثمّ يستجدي خيران ويدعوه إلى اكرامه، يقول:

ولله مِنّـــا أَهْـــلَ بَيْـــتٍ رَمَـــتْهُمُ إلـــى يَـــدِكَ العُلْيـــا بُحُـــورٌ وبُلْـــدانُ

وكُلّهُـمُ يُزْهَـى علـى الشّـمْسِ فـي الضُّـحَى وبَـــدْرِ الـــدَّيَاجي أَنَّهُـــمْ لَـــكَ جِيـــرَانُ

وقـــد زَادَ أَبْنَـــاءُ السَّـــبِيلِ وَسِـــيلةً وحَلّـــوا فَـــزَادُوا نَّهُـــمْ لَـــكَ ضِـــيْفَانُ

فَمَـا قَصَّـرَتْ بـي عـن عُـلاَكَ شَـفَاعَةٌ ولا بِـــكَ عـــن مِثْلِـــى جَـــزَاءٌ وإِحْسَـــانُ

ولم يكن خيران بأحسن حال من سابقيه مع الشعراء ، ولم ينل ابن دراج منه إلاّ جيوباً فارغة ، وخيبة أمل ، ويأساً محكماً ، حتى غدا بخل خيران مع ابن دراج مضرب مثل ، يقول الفقيه الأندلسي عمر الزجال في قصيدة له،يقول ([1]) :

---

[1] العوجاء: الضامرة من الإبل:المصدر نفسه(عَوَج). القوسُ، المصدرنفسه(رنن)

[2] لُجيْن وعقيان: فضة وذهب خالص.اللجين:ابن منظور، لسان العرب(لجين).

فــــلا تَنْسَـــنِي مِـــن أَهْـــل وِدّك إنَّنـــي أَخَــــافُ الليـــالَي أنْ تَطـــوُلَ فَتَنْســـاني

ولا خيـــرَ إن تجعـــلْ كِفَـــاءَ قصـــيدتي كِفــاءَ ابـــن درَّاج علـــى مَـــدْحِ خَيْـــرَانِ

والظاهر من قول الشاعر أن خيران لم يجزل لابن دراج جائزته عليها ، ولذا تتجدّد الرحلة صوب بلنسية حيث يحكم مبارك ومظفر ، وهما من موالي المنصور العامري . والهدف من جميع رحلات ابن دراج كما هو ظاهر من شعره تحقيق المطالب الإنسانية التالية: الأمن،والاستقرار، والحصول على الثروة والتقدير،ما يكفيه عناء السفر والترحال ، فجمع مدحهما بقصيدتين،كما اجتمع ملكهما، الأولى مطلعها([2]):

أَنُـــورُكِ أَمْ أَوْقَـــدْتِ بالليْـــل نَـــارَكِ لِبَـــاغٍ قِـــراكِ أو لِبـــاغٍ جِـــوارَكِ

أمّا القصيدة الثانية فكان مطلعها([3]):

أهَنيِّكُمَـــا مـــا يَهنـــئُ الـــدِّينَ مِنكُمـــا هُـــدىً ونـــدىً فلْيَسْـــلَمِ الـــدِّينُ واســـلَمَا

لقد كان للأحداث تأثيرها على البنية الاجتماعية ، فقد تشتت كثير من الأسر، ولم يعد يجمعها بيت واحد أو قرية واحدة أو مدينة واحدة ، فهذا ابن دراج يعلمنا أن له ولداً يعيش في بلنسية ، مصوراً حنينه واشتياقه إليه ، يقول :

وفِلْـــذَة قَلْبِـــي فـــي حِماهـــا رَهينَـــةً وإنســـانُ عيَنْـــيِ فـــي ذَرَاهـــا مُخَيِّمَـــا

وهذه الحالة مدعاة لاستثارة ابن دراج لمعاودة الشكوى من الزمن وما فيه من شدائد وأسرته من حاجة وضياع وتشتت ، يقول:

فَمــــا نَأتَسِــــي إلا أســــىً وتَعَزِّيــــاً ومــــا نَلْتَقِــــي إلا كَــــرىً وتَوَهُّمَــــا

لَيــــالِيَ كالإعــــدامِ طَوَّلَهــــا الأســــى وطاوَلْتُهَــــا حَــــوْلاً وحَــــوْلاً مُجَرَّمَــــا

أَسَــــهمْاً رمــــاهُ عــــن قِسِــــيٍّ جَــــوانِحِي فِـــــراقٌ فَــــوَالى مِنــــهُ قَلْبِــــيَ أسْــــهُمَا

---

[1] المقري، نفح الطيب، المجلد الخامس: ٤٣.
[2] ديوان ابن دراج :١٠١ .
[3] ديوان ابن دراج:٥٢٠ .

ولم يستقر في بلنسية كما طاف في المدن الأخرى لأنه لم يجد من يعينه على نكبته ، فيتحول إلى طرطوشه ، ويحكمها يومئذ من الفتيان العامريين البيت فيمدحه بقصيدته مطلعها ([1]):

هَـلْ تَثْنِـيَنَّ غُـرُوبَ دمـعٍ سـاكِبِ   مَـنْ شـامَ بارِقَـةَ الغَمَـامِ الصَّـائِبِ

وتسيطر على ابن دراج حالته النفسية الشاكية الباكية في ظل أبيات القصيدة ، يكلله أمل يحدوه اتجاه لبيب العامري، عله يسعفه على مصيبة فراق الأهل والوطن، وحياة التغرب، يقول :

أبَـتِ العَزيمـةُ مـن فُـؤادٍ جَامِـدٍ   أن تَسْـتَقيدَ لمَـاءِ جَفْـنٍ ذَائِـبِ

مَـنْ تَرمِـهِ حَـدَقُ المكـارمِ تُصْـبِهِ   عـن مُصْـبِياتِ أحِبَّـةٍ وحَبَائِـبِ

فَفِـراقُ رَبَّـاتِ الخُـدُورِ مُكَفَّـرٌ   بِلِقَـاءِ نَجْـمِ المكرُمـاتِ الثّاقِـبِ

وأثرت أحداث الفتنة وما ترتب عليها من نتائج في الشاعر الأندلسي عموماً، وفي ابن دراج بوقع خاص ، إذ إنَّ سمته الجادة البعيدة عن حياة اللهو قذفته إلى التفاعل مع أحداث عصره، كما أنّ المصائب التي حلت به أثرت في شخصيته تأثيراً بالغاً ، ودفعته نحو إحساس عميق بالمسؤولية العائلية ، والى ذلك يشير إحسان عباس بقوله([2]) : " فقد بدأ مذهبه الشعري بالاتكاء على تصوير فراقه لزوجه وأطفاله ، وتعلقهم به ، ورقته عليهم في حال الفراق المتخيل ، ثم انتهى إلى التحدث عن هؤلاء الأطفال – أو الأبناء- حديثاً مستمداً من الواقع لا من الخيال"، ولننظر في هذه الصورة الشاجية :

قَالَـتْ وقـد مَـزَجَ الـوداعُ مـدامِعاً   بمـدامعٍ وترائِبـاً بترائِـبِ

أتَفَـرُّقٌ حتّـى بمنِـزلِ غُرْبَـةٍ؟   كَـمْ نَحْـنُ للأيَّـامِ نُهْبَـةُ نَاهِـبِ!

فـي كُـلِّ يـومٍ مُنْتَـوىً مُتباعِـدٌ   يَرْمـي حُشَاشَـةَ شَـمْلِنَا المُتَقـارِبِ

هكذا قدر لابن دراج أن يقضي ثماني سنوات من الغربة والتشرد لا يستقر له حال، ولم يجد عند ممدوحيه آذانا صاغية ، فجاء شعره في هذه الفترة مطبوعا بالشكوى والألم والحسرة مليئاً بمشاهد السفر القاسية بين الصحارى والبحار ، يظهر دبيبها في نفس ابن دراج وقد أدركه مشيب الشعر الذي لم يشفع له ، ولم يكن كفيلاً بوقف نزيف الرحلة الدائمة ، فنراه يصورها تصوير مجرب ،يقول:

---

[1] المصدر نفسه : ١٠٩

[2] عباس ،إحسان ، تاريخ الأدب الأندلسي ،عصر سيادة قرطبة:٢٠٤.

أيَّامَ تؤنِسُنا فَلاً وسَواحِلٌ ... عن آنساتِ مقاصِرٍ وَمَلاعِبِ

نَعَبَ الغُرابُ فطارَ بأهِلها ... سِرْباً عَلَى مِثْلِ الغُرَاب النَّاعِبِ

خَرقُ الجَناحِ إلى الرِّياح مُضلَّلٌ ... بِشمَائِلٍ لِعبَتْ بِه وَجَنائِبِ

يهوِى بِذِي طِمْرَيْنِ مَزَّقَ لبسهَا ... أيْدي لَوَاهِفَ للنُفوسِ نَوَادِبِ

في غَوْلِ ذي لُجَجٍ لَبِسنَ دياجِياً ... تركَ الحياةَ لنا كأمسِ الذّاهِبِ

قاسيُتهُنَّ غواربا كغياهِبِ ... وَسريتُهُنَّ غياهِباً كغوارِبِ

وَلئن جنيت عليكِ تَرْحَةَ راحِلٍ ... فأنا الزَّعيمُ لها بفَرْحَةِ آيِبِ

هل أبْصَرَتْ عيناكِ بَدْراً طَالعا ... في الأفقِ إلاّمن هلالٍ غَارِبِ

والبيتان الأخيران يحملان قدراً لا بأس به من تفاؤل الشاعر وأمله في الحياة وتحقيق الأمنيات، غير أن هذا الإحساس كان طارئاً سرعان ما تلاشى ، لا لميله إلى الشكوى من الزمن وهم الضياع فحسب ، بل لأن تجاربه الشعرية أكدت تجاربه اليومية مع ممدوحيه ، إذ لم يوفوه حقه ولم يقضوا حاجته ، ولم يكفوه حالة التسكع على بلاطاتهم ،إلى أن وفد على منذر التجيبي وأمضى عشر سنوات في كنفه و كنف ابنه يحيى بن منذر ، إذ نعم بشيء من الاستقرار بعد ثماني سنوات عجاف([1]).

وبعد تطواف طويل يحطّ ابن دراج عصا الترحال بسرقسطة عند المنذر بن يحي التجيبي سنة ٤٠٨ هـ، وقد كان هذا الأخير على نصيب من العلم والأدب، حمله على العناية بالشعراء والعلماء ، فقرب إليه ابن دراج ،واتخذه شاعرا رسميا لبلاطه ، فتنفس ابن دراج الصعداء إذ أتيح له جو من الاستقرار لم ينعم به منذ وقوع الفتنة .

[1] مقدمة ديوان ابن دراج: ٧١ .

ووجد القسطلي في غزوات المنذر متنفسا لشعره، فعاود حياته في ظله وفي ظل ابنه كما كان من قبل في بلاط العامريين ، فلا يكاد يدع مناسبة إلا أنشد فيها شيئا ، وابتدأ مدائحه بمنذر التجيبي بقصيدته الرائية ، يقول (1):

بُشْـرَاكَ مِـنْ طَـولِ الترَّحُّـلِ والسُّـرى   صُـبْحٌ بِـرَوْحِ السَّـفْرِ لاَحَ فَأسْـفَرَا
مِـنْ حَاجِـبِ الشّـمْسِ الـذِي حَجَـبَ الـدُجَى   فَجْـراً بأنْهـارِ النَّـدى مُتَفَجِّـرا

ويتحدث في أبيات القصيدة عن المصاعب والشدائد التي واجهته وهو ينتقل بأولاده من بلد إلى بلد ،حتى بلغوا سرقسطة ووفدوا على المنذر، ومن هذه الأبيات ،يقول :

فَسَـرَيْتُ فـي حَـرَمَ الأهِلّـةِ مُظلِمـاً   وَرَفَلْـتُ فـي خِلَـعِ السَّـمُومِ مُهَجِّـرَا
وَشَـعَبْتُ أفْـلاَذَ الفُـؤَادِ ولَـمْ أكَـدْ   فَحـذَوَتُ مـن حَـذْوِ الثَّرَيّـا مَنْظَـرَا
سِـتٌ تَسَـرَّاها الجَـلاَء مُغَرِّبَـاً   وَحَـدَا بهـا حَـادِي النَّجـاءِ مُشَـمِّرَا
لا يَسْـتفَيِقُ الصُّـبْحُ منهـا مـا بَـدَا   فَلَقـاً وَلا جَـدْيُ الفَرَاقِـدِ مـا سَـرى
ظُعُـنٌ ألِفْـنَ القَفْـرَ فـي غَـوْلِ الـدُّجَى   وَتَـركنَ مـألوفَ المَعَاهِـدِ مُقْفِـرَا
يَطْلُـبْنَ لُـجَّ البَحْـرِ حيـثُ تَقَاذَفَـتْ   أمْواجُـهُ والبَـرَّ حيـثُ تَنَكـرَا
هـيمٌ ومـا يَبْغِـينَ دُونَـكَ مَـوْرِداً   أبَـداً ولا عـن بَحْـرِ جُـودِكَ مصـدَرَا
وَلَـئِنْ خَلعْـتَ عَلَـيَّ بُـرْداً أخضَـراً   فَلَقَـدْ لِبسْـتُ إليْـكَ عَيْشَـاً أغْبَـرَا
وَلَـئِنْ مَـدَدْتَ عَلَـيَّ بُـرْداً ظِـلاً بَـارِداً   فلكَـمْ صَـلِيتُ إليـكَ جَـوّاً مُسْـعَرَا

وتلتهب قريحة ابن دراج الشعرية ، فيتغنى مادحاً المنذر وابنه يحيى بقصائد عديدة تجاوزت ثلث ديوانه خلّد فيها مآثرهم ومجد بطولاتهم وانتصاراتهم .

وعلى الرغم مما وجده ابن دراج عند التجبيين من إكرام وتقدير ، إلا أنه ما انفك يعود بذاكرته إلى ماضيه الذي تحول بسبب الفتنة إلى صورة مؤلمة ماثلة، ولذا تتداعى لديه المقارنة بين ماضيه

1 ديوان ابن دراج :١٢٤

وحاضره ، مثنياً ومقدراً أعمال ممدوحيه التي جاءت إنقاذاً وخلاصاً له ولأسرته من المصائب والشدائد التي ألمّت به، حيث يقول([1]) :

فـــإنْ تَضَـــايَقَتِ الـــدُّنْيا بِمُغْتَـــربٍ " فَمُنْـذِرٌ" بَعْـدُ رَحْـبُ الصُّـدرِ وَاسِـعُهُ
وَإنْ دَجـــا فَلَـــقٌ يومـــاً بِـــذِي أمَـــلٍ فَــذُو الرِّياســاتِ طَلّــقُ اللّيْــلِ ناصِــعُهُ
وَمَـــنْ سِـــوَاهُ لِمَقْطَـــوعٍ أو اصـــرُهُ؟ وَمَـــنْ سِـــواهُ لِمَـــرْدُودٍ شَـــوَافعُهُ
وَمَـــنْ سِـــواهُ لِخَطّـــبٍ جَـــلَّ فادِحُـــهُ؟ وَمَـــنْ سِـــواهُ لِخـــرْقٍ قَـــلَّ راقِعُـــهُ

وفي سرقسطة توثقت علاقة ابن دراج بعلية أهلها من قضاة وكتاب وقواد وخدام كابن أزرق ([2])، ([2])، إذ يقول فيه([3]):

أخُـــو ظَمَـــاءٍ يَمُـــصُّ حَشَـــاهُ سَـــبْعٌ وأرْبَعَـــــــةٌ وكُلّهُـــــــمُ ظِمـــــــاءُ
خُطَـــــوبٌ خَـــــاطَبَتَهُمْ مـــــن دَوَاهٍ يَمُـــوتُ الحـــزمُ فِيهـــا والـــدَّهَاءَ
نَقَائِــــــذُ فِتنـــــةٍ وخُلـــــوفُ ذُلٍّ ألَـــذُّ مـــن البَقَـــاءِ بـــه الفَنَـــاءُ
وَكَـــمْ لَبِسُـــوا مـــن النَّعْمَـــى بُـــروداً جَلاَهَـــا عـــن جُســـومِهِمُ الجـــلاءُ
فَـــإنْ كشَـــفَوَاَ لهـــم منـــه غِطـــاءً ففيـــه وفيـــكَ لـــي ولهـــم غِطـــاءُ

ويتعكر صفو العلاقة بين ابن دراج ويحي بن منذر التجيبي ، فيعبر عن سوء العلاقة بينهما وعن عزمه على الرحيل من جديد عن بيت ضاق به ، حيث يقول في نهاية قصيدة له([4]) :

ومَـنْ يمنـع الضَّـيْفَ رَحْـبَ الفِنـاءِ فَقَـــدْ قـــادَهُ للفضـــاءِ الرَّحِيـــبِ

وفعلاً رحل ابن درج إلى بلنسية مرة ثانية واتصل بصاحبها المؤتمن عبد العزيز بن أبي عامر ومدحه ، غير أنه لم يوفق في وجهته ، يقول في المؤتمن قصيدة مطلعها ([5]) :

أهِلّـــي قَـــدْ أنـــى لَـــكِ أنْ تُهِلّـــي إلـــــى صَـــوْبِ الغَمـــــامِ المُسْـــتهِلِّ

ثم يتحول إلى دانية ، حيث مجاهداً العامري([1])، و يقول فيه([2]) :

---

[1] ديوان ابن دراج: ١٤٣ .
[2] ابن ازرق : هو من أشهر كتاب منذر بن يحيى التجيبي. انظر ابن عذارى ، البيان المغرب ، الجزء الثالث:١٧٧
[3] ديوان ابن دراج: ٣٢٧
[4] ديوان ابن دراج: ٤٧٣
[5] المصدر نفسه: ٤٧٣

إلـــى أيٍّ ذِكــرٍ غَيْــرِ ذِكــرِكَ أرتَــاحُ ومــــن أيِّ بَحْـــرٍ بعـــد بَحْـــرِكَ أمْتَـــاحُ

إليـكَ انْتَهَـى الـرِّيُّ الـذي بِـكَ يَنْتَهِـي ولاحَ لـــي الـــرَّأيُ الـــذي بـــك يَلْتَـــاحُ

وفـي مائِـكَ الإغْـداقُ والصّـفْوُ والـرَّوى وفـــي ظِلِّـــكَ الرَّيحـــانُ والـــرَّوْحُ والـــرَّاحُ

وكْـــلٌّ بأثمــــارِ الحيـــاةِ مُهَـــدَّلٌ وبالعطفِ مَيَّاسٌ وبالعُرْفِ مَيَّاحُ([3])

فأغْـــدَقَ للظمـــآنِ مَحْيـــاً ومَشْـــرَبٌ وأفْصَـــــحَ بالضَّـــــاحِي غُصُـــــونٌ وأدواحُ

فهنا ابن دراج يتغرب من جديد، ويعود في قصائده إلى تناول ما ألمّ به من خطوب وما عاناه وأسرته من ضيق، و ينحو به تغربه إلى حدّ النظر إلى المشرق المقدر له، إذ تفيض أبياته بالانفعالات النفسية والعاطفية، فذكر ديار العراق وخراسان على هذا المنوال يحمل بين طياته إحساس عميق باغتراب نفسيّ يكابده الشاعر،لأن من يعاني هذا الاغتراب يعجز عن إقامة علاقات مع الآخرين، مما يجعله يشعر بالعزلة والتفرد والقلق، يقول([4])

فَـــإنْ غرَّبَـــتْ أرْضُ المَغَـــارِبِ مَـــوْئِلِي وأنْكَرَنِـــــي فيهـــــا خَلِـــــيطٌ وخِـــــلاّنُ

فَكَـــمْ رَحَّبَـــتْ أرْضُ العِـــرَاقِ بِمَقْـــدَمِي وأجْزَلَـــتِ البُشْـــرى عَلَـــيَّ خُرَاســـانُ

وإنَّ بِــــــلادًا أخْرَجَتْنِـــــي لَعُطّـــــلٌ([5]) وإنَّ زمانـــــاً خَـــــانَ عَهْـــــدِي لَخَـــــوَّانُ

والظاهر أن حياة ابن دراج انتهت في دانية، وقد تجاوز السبعين من عمره قريباً من سنة (٤٢١هـ)([6])،وبذلك مرت حياته بمنعرجات حادة كان أثرها عميق في نفسه وفي شعره . فقد مر

---

[1]مجاهد العامري أحد القواد الصقالبة في أيام المنصور بن أبي عامر ، استقل بدانيه حال وقوع الفتنة . وكان من أعظم ملوك الطوائف وأكثرهم عناية بالأدب والعلم.ابن عذارى،البيان المغرب،الجزء الثالث:١٥٥ .

[2] ديوان ابن دراج : ٤٧٨

[3] أي كلّ من قام بالمعروف:ابن منظور،لسان العرب(ميح).

[4] ديوان ابن دراج:٨٩ .

[5] عُطل:جمع عاطل:المرأة التي لا حُلي عليها،ولا زينة لها :ابن منظور لسان العرب(عَطِل).

[6] الحميدي ، الجذوة: ١٠٠.

بمرحلتين اتصفتا بالتشرد والضياع ، الأولى امتدت منذ وقوع الفتنة (٣٩٩هـ) إلى (٤٠٨هـ) . والمرحلة الثانية تمتد من (٤١٩- ٤٢١هـ) . بينما اتصفت حياته في ظل العامريين (٣٨٢-٣٩٩هـ)،وفي ظل التجيبيين (٤٠٨- ٤١٩) بالهدوء والاستقرار والأمن ، وإن كان بإمكاننا وصف حياة ابن دراج في ظل العامريين بالعصر الذهبي له .

الخاتمة

لقد حاولت في هذه الرسالة الغوص في حدث تاريخي هام، أطلق عليه المؤرخون"الفتنة الكبرى"، وأسفر عن جملة من النتائج الخطيرة على الوجود العربي في الأندلس كاندلاع النزاعات العرقية والطائفية، وسقوط الخلافة الأُمَوية، وقيام دول الطوائف، وتفاقم الخطر النصراني، وتعاظم دور اليهود،وغيرها من النتائج المروعة .

وخلصت بعد دراسة مستفيضة لشعر لتلك الفترة الزمنية، إلى عدد من النتائج تم التوصل إليها من خلال الدراسة الموضوعية ،والتي اعتمدت في دراستها للشعر على المنهج التاريخي ،بالإضافة إلى المنهج التحليلي ، الذي حاولت فيه جاهدا تفسير الشعر المعبر عن خفايا النفس البشرية، التي تفرقت بين الخوف والرجاء،والأمن والفزع بين الغربة والاغتراب،بين الشكوى والمعاناة وبث الأمل،بين صور المدح والهجاء قناعة أو تملقا.

وقد بيّنت في الرسالة أن نتائج الفتنة الأندلسية الكبرى كانت كبيرة ومؤثرة في الشعر إثراءً وأداءً ووجهة ، فقد أثّرت الفتنة في الموضوعات الشعرية،وعملت على توجيه الموضوع الشعري نحو موضوعات محددة ،وفقدت موضوعات شعرية مكانتها،فتقدمت قصيدة المديح، على الموضوعات الأخرى، وجعلت قصيدة المديح هي أغلب ما ينظمون. وكنا نجد الشعراء الأندلسيين قبل الفتنة قد اهتموا بوصف المباني والقصور الجميلة مثل الزهراء والزاهرة ، وما يحيط بها من حدائق غناء ، وخضرة ندية ، وما يزينها من زخرفة وتحف ، بالإضافة إلى ما تزخر به الأندلس من مظاهر حضارية كانت تسحر الأبصار بروعتها وحسن إتقانها وتنوع طرائقها،فلم يترك الشعراء معلما من معالم الحضارة جذب أبصارهم، وأحسوا به إلاّ وصفوه، ومزجوا ذلك الوصف بالممدوح في أغلب الأحيان.

بينما نجد الشعر في ظل الفتنة، قد أغمض عينيه عن وصف الطبيعة، وخفت صوته بها، وغلب عليه شعر المديح الذي لم يكن مديحا فحسب، بل عبّر عن معاني أخرى كانت حاضرة في ذهن الشاعر، وفرضت نفسها على أبيات القصيدة كالتعبيرعن مشاق السفر، ووعورة السبيل ،وصور الوداع ،و آلام الغربة، والإحساس العميق بالضياع .

وبيّنت في الرسالة أنّ الفتنة وأسبابها هي الباعث على ظهور شعر الغربة و نموه في هذه المرحلة من تاريخ الأندلس، وهذا الشعر أغلبه نظمه الشعراء تعبيرا، عن شجونهم العاطفية،و جدالا لخصومهم وشكوى من أهل زمانهم.

على هذا النحو ورد كثير من الشعر الذي يشكو فيه أصحابه من حياتهم في الغربة وما يلاقونه من آلام وصعوبات، حتى أصبحت العودة إلى الوطن حلماً صعب المنال وأمراً مستحيلاً يقف الموت دونه.

أمّا تأثير الدمار والخراب الذي حل بمدينة قرطبة، فكان له وقع خاص على الشعر والشعراء في الأندلس، ففي الشعر كان موضوع بكاء قرطبة حاضراً قوياً فيه، و كان الشعر سجلاً ومرآةً لمرحلة من حياتهم، وتعبيراً فنياً حياً وصادقاً عن مشاعرهم وعواطفهم اتجاه نكبة قرطبة من جهة، ومن جهة أخرى تعبيراً عن همومهم الشخصيّة والفكرية في صراعهم مع الحساد والمناوئين لهم من أهل زمانهم، ثم وصفاً صادقاً لمعاناتهم في الرحلة والاغتراب،والحنين إلى الديار التي أصبحت أطلالا و جافية في مودتها لهم وحين أجبروا على النزوح عنها.

وأمّا تأثير الموضوع في الشعراء، فسيصدر في كل ما نظموه من أشعار عن تجربة حقيقية معيشة، ويستقي لغته من واقع التجربة،ومن ثم اتسمت تجربة الشعراء بالصدق في شعرهم، ولغتهم بالحيوية والعفوية، ومما يدخل في هذا المنحى الشجي الذاتي، أشعارهم في الحنين إلى الماضي، إلى الأهل والأحباب الذين تفرقوا، إلى الألفة والعشرة الطيبة التي افتقدوها، داعين بالسقيا لتلك الأيام الجميلة.

فالفتنة تعدّ العامل الأبرز في تشكل الذوق الأدبي، وتحديد وجهته، فقد كان الشعراء يقولون الشعر استيحاءً من المواقف النفسية التي كانت تعرض لهم، ومن التجارب الحيّة التي يمرون بها، ولم يكن الشعر تهويماً خيالياً فحسب، أو مجرد صنعة فنية أو تقليداً لتجارب الآخرين، بل هو انعكاس أدبي للواقع، وتسجيل فني له،أو انعكاس مباشر له. الشعر في هذه المرحلة صورة دقيقة للواقع،إذا ما استثنينا أبيات المدح التي كانت تنظم وسيلة للكسب مع رخص البضاعة، وقلة الطلب، فضلا عن ميل عدد من الشعراء إلى نظم الشعر في موضوعات عدّت هروبا من الواقع كالنظم في الشراب وإغراق الهم، وشعر التلهيّ.

المصادر والمراجع

١. القرآن الكريم

٢. الأزهري،تهذيب اللغة، منصور محمد بن أحمد، الطبعة الأولى، تحقيق محمد عوض مرعب،بيروت،لبنان، دار إحياء التراث العربي،٢٠٠١.

٣. إسماعيل، محمود، إشكالية المنهج في دراسة التراث، الطبعة الأولى، دار الجيل، ٢٠٠٤.

٤. باقازي ، مشاعل، مستويات الأداء البلاغي في أدب ابن شهيد، جامعة أم القرى، مكة المكرمة،٢٠٠٦.

٥. ابن بسام،علي الشنتريني، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، الطبعة الأولى، تحقيق إحسان عباس، بيروت، لبنان،دار الثقافة، ١٩٧٩.

٦. ابن بشكوال، خلف بن عبد الملك، كتاب الصلة وكتاب صلة الصلة لأبي جعفر أحمد الغرناطي،الطبعة الأولى،تحقيق شريف أبو العلا العدوي،القاهرة، مصر: مكتبة الثقافة الدينية،٢٠٠٨ .

٧. بلقين ، عبد الله،المذكرات المسماة بكتاب التبيان ، تحقيق بروفنسال ، مصر، دار المعارف ، ١٩٥٥ .

٨. بيرس، هنري ، الشعر الأندلسي في عصر الطوائف،ترجمة الطاهر أحمد مكي، مصر، دار المعارف ،١٩٨٩م.

٩. الجوهري، الصحّاح. القاهرة، مصر، دار الكتاب العربي،١٩٥٦ م.

١٠. حتاملة ، محمد عبده ، موسوعة الديار الأندلسية، الطبعة الأولى، عمان،الأردن، المكتبة الوطنية، ١٩٩٩م.

١١. ابن حزم الأندلسي، رسائل ،الطبعة الأولى،تحقيق احسان عباس،،المؤسسةالعربية للدراسات والنشر،بيروت،لبنان،١٩٨٠،الجزء الأول:٢١٨.

١٢. ابن حجر العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، الطبعة الثالثة، تحقيق عبد العزيز بن باز، دار السلام.

١٣. ابن حزم ،جمهرة أنساب العرب،منشورات محمد علي بيضون، بيروت،لبنان،دار الكتب العلمية،٢٠٠١ .

١٤. ابن حزم، طوق الحمامة، الطبعة الثانية، تحقيق الطاهر أحمد مكي،كورنيش النيل- القاهرة: دار المعارف،١١١٩، ١٩٧٥.

١٥. ابن حزم الأندلسي، المفاضلة بين الصحابة، نشر وتحقيق سعيد الأفغاني:دار الفكر العربي،بيروت، ١٩٦٩ .

١٦. الحموي، ياقوت،شهاب الدين، أبو عبد الله، معجم الأدباء،الطبعة الثالثة،دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع،١٩٨٠.

١٧. الحموي، ياقوت، شهاب الدين، أبو عبد الله، معجم البلدان،الطبعة الثانية، دار بيروت للطباعة والنشر، ١٩٨٤.

١٨. ابن حوقل النصيبي،صورة الأرض، القسم الأول، الطبعة الثانية، مطبعة يريل،١٩٦٧م .

١٩. الحميدي، محمد بن أبي نصر، جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، الطبعة الأولى، تحقيق روحية عبد الرحمن السيوفي، منشورات محمد علي بيضون،بيروت- لبنان ، دار الكتب العلمية،١٩٩٧ .

٢٠. الحميري،محمد بن عبد المنعم ، الروض المعطار في خبر الأقطار، الطبعة الثانية،تحقيق إحسان عباس ، مكتبة لبنان ،بيروت،١٩٨٤.

٢١. ابن خاقان، أبو النصر محمد ،قلائد العقيان ومحاسن الأعيان،الطبعة الأولى،تحقيق حسين يوسف خريوش،الزرقاء،الأردن:مكتبة المنار للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٨٩م .

٢٢. ابن خاقان، أبو النصر محمد مطمح الأنفس، ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس،الطبعة الأولى،تحقيق محمد علي شوابكة ، عمان: دار عمار مؤسسة الرسالة، ١٩٨٣م.

٢٣. ابن الخطيب،لسان الدين ، الإحاطة في أخبار غرناطة، الطبعة الأولى، تحقيق يوسف علي طويل، بيروت :منشورات علي بيضون، دار الكتب العلمية.

٢٤. ابن الخطيب،لسان الدين، أعمال الأعلام في من بويع قبل الاحتلام من الملوك الأعلام ،الطبعة الثانية ، تحقيق ليفي برونفسال ، بيروت-لبنان ، دار المكشوف، ١٩٥٦.

٢٥. ابن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، الطبعة الأولى، لبنان، بيروت،دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع.

٢٦. ابن خلدون، المقدمة، الطبعة الثانية، تحقيق: خليل، القاهرة، مصر ،١٩٦٧م، الجزء الثالث.

٢٧. ابن خلكان،أحمد شمس الدين، وفيات الأعيان وأنباء أبناء، تحقيق احسان عباس،دار الثقافة،بيروت،لبنان، ١٩٦٨ :٥١

٢٨. دعدور ،أشرف علي .الغربة في الشعر الأندلسي عقب سقوط الخلافة،الطبعة الأولى، مصر القاهرة: دار نهضة الشرق،٢٠٠٢.

٢٩. الدقاق ، عمر،ملامح الشعر الأندلسي ،بيروت ، لبنان : دار الشروق ،١٩٧٤.

٣٠. دورثي لور، اسبانيا شعبها وأرضها، ترجمة طارق فودة،مؤسسة فرانكلين للطباعة.

٣١. ديوان أبي إسحاق الالبيري،تحقيق أميليو غرسية غومس،مدريد،غرناطة ١٩٤٤.

٣٢. ديوان جميل بن عبد الله بن معمر بن ظبيان؛ جمع وتحقيق حسين نصار، دار مصر للطباعة.

٣٣. ديوان الحطيئة،شرح يوسف عيد،الطبعة الأولى،دار الجبل،بيروت،لبنان١٩٩٢ .

٣٤. ديوان ابن دراج القسطلي،الطبعة الأولى، تحقيق محمود علي مكي، دمشق ،منشورات المكتب الإسلامي، ١٩٦١ .

٣٥. ديوان ابن زيدون. تحقيق كرم البستاني،بيروت، دار صادر.

٣٦. ديوان ابن شهيد الأندلسي ورسائله، جمع وتحقيق محي الدين ديب ، صيدا بيروت : المكتبة العصرية للطباعة والنشر، الطبعة الأولى ، ١٩٩٧م.

٣٧. ديوان ابن شهيد،جمع وتحقيق شارلز بلات ،الطبعة الأولى، بيروت، لبنان: دار المكشوف، ١٩٦٣.

٣٨. ديوان ابن شهيد، جمع وتحقيق يعقوب زكي. القاهرة : دار الكاتب العربي للطباعة والنشر.

٣٩. ديوان علي بن الجهم،الطبعة الثانية،تحقيق خليل مرد بك،دار الأفاق الجديدة،بيروت،لبنان.

٤٠. الذهبي،،محمد بن أحمد،سير أعلام النبلاء،مؤسسة الرسالة،٢٠٠١:الجزءالسابع عشر:٢٨٤.

٤١. الزبيدي،محمد مرتضى الحسيني،تاج العروس، تحقيق عبد الستار أحمد فراح، نشر وزارة الإرشاد والأنباء الكويتية،١٩٦٥.

٤٢. زمامة ،عبد القادر،الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية ، تحقيق سهيل ذكار، الدار البيضاء : دار الرشاد الحديثة، ١٩٧٩ .

٤٣. الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر الخوارزمي ،الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، الجزء الثاني، تحقيق عبد الرزاق المهدي، بيروت، دار إحياء التراث العربي.

٤٤. ابن سعيد المغربي، المغرب في حلي المغرب، تحقيق شوقي ضيف، الطبعة الثانية، مصر: دار المعارف.

٤٥. ابن سيده، أبو الحسن علي بن إسماعيل الأندلسي، المخصص في اللغة، الطبعة الأولى، تحقيق خليل إبراهم جفال، دار إحياء التراث العربي - بيروت ١٩٩٦م .

٤٦. شيخة ، جمعة،الفتن والحروب وأثرها في الشعر الأندلسي من سقوط الخلافة إلى سقوط غرناطة، الطبعة الأولى، الجزء الأول ، تونس المطبعة المغاربية للطباعة والنشر والإشهار، ١٩٩٤.

٤٧. الضبي، أحمد بن يحيى، بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس: دار الكاتب العربي، ١٩٦٧.

٤٨. الطبري، تاريخ، تحقيق أبو الفضل إبراهيم ، الطبعة الثانية ، مصر: دار المعارف، ١٩٧١م.

٤٩. العاملي ، ابن سماك ،الزهرات المنثورة، دراسة وتحقيق وتقديم محمود علي مكي، مدريد:مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية ،عدد ٢١.

٥٠. عباس ، إحسان ، تاريخ الأدب الأندلسي، عصر سيادة قرطبة، الطبعة الأولى ، بيروت،لبنان : دار الثقافة، ١٩٦٠ .

٥١. عدنان محمد آل طعمة ،موشحات ابن بقي الطليطلي وخصائصها الفنية،الجمهورية العراقية،وزارة الثقافة والفنون،سلسلة كتب التراث(٤٧)١٩٧٩م.

٥٢. ابن عذارى المراكشي، أحمد ،البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ليفي بروفنسال. بيروت، لبنان: دار الثقافة.

٥٣. ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام هارون، بيروت: دار الجيل.

٥٤. ابن الفرضي، أبو الوليد عبد الله بن محمد، تاريخ علماء الأندلس،الطبعة الثانية،تحقيق إبراهيم الإبياري، بيروت لبنان: دار الكتاب اللبناني،١٩٨٩.

٥٥. ابن فضل الله العمري،شهاب الدين أبو العباس،أحمد ،مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق احمد زكي باشا، مطبعة الكتب المصرية،١٩٢٤.

٥٦. الفيروز آبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب،القاموس المحيط: المؤسسة العربية للطباعة والنشر.

٥٧. القضاعي ،ابن الأبار، الحلّة السيراء في تراجم الشعراء من أعيان الأندلس والمغرب من المئة الأولى للهجرة إلى المئة السابعة للهجرة، الطبعة الأولى ،تحقيق علي إبراهيم محمود ،بيروت ، دار الكتب العلمية،٢٠٠٨ .

٥٨. الكتاني، أبو عبد الله محمد، التشبيهات من أشعار أهل الأندلس، تحقيق إحسان عباس، بيروت، لبنان: دار الثقافة.

٥٩. المراكشي،عبد الواحد، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، الطبعة الأولى، تحقيق محمد زينهم محمد عزب، دار الفرجاني للنشر والتوزيع،١٩٩٤.

٦٠. المراكشي،محمد الأنصاري،الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة،الطبعة الأولى، تحقيق إحسان عباس ، بيروت، لبنان،دار الثقافة ،١٩٧٣.

٦١. المقري،التلمساني،أحمد شهاب الدين، أزهار الرياض في أخبار عياض، الطبعة الأولى،تحقيق عبد السلام الهراس و سعيد أحمد أعراب.

٦٢. المقري التلمساني، أحمد شهاب الدين، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، الطبعة الخامسة، تحقيق أحسان عباس، بيروت، لبنان، دار صادر، ٢٠٠٨.

٦٣. ابن منظور،لسان العرب، تحقيق أمين محمد عبد الوهاب ومحمد العبيدي،الطبعة الثالثة. بيروت-لبنان: دار إحياء التراث العربي، مؤسسة التاريخ العربي، ١٩٩٩.

٦٤. النمري،عمر بن شبه،تاريخ المدينة،تحقيق فهيم محمد شلتوت، الجزء الثالث ،جدة،١٣٩٩هـ.

٦٥. هيكل ، أحمد.الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة، القاهرة، دار المعارف،١١١٩ــــ كورنيش النيل-١٩٧٩.

٦٦. هيكل، أحمد، دراسات أدبية، الطبعة الأولى، القاهرة، دار المعارف، ١٩٨٠.

٦٧. مؤنس،حسين،أطلس تاريخ الإسلام،الطبعة الأولى:دار الزهراء للأعلام العربي،١٩٨٧ .

٦٨. الموسوعة الإسلامية العامة، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ٢٠٠١.